ترجمة
الشيخ محمد الأمين الشنقيطي
صاحب أضواء البيان

جمعها وصنفها
عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس

دار الهجرة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة

الشيخ محمد الأمين الشنقيطي

صاحب أضواء البيان

جَمِيع الحُقُوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار الهجرة للنشر والتوزيع

هاتف: ٨٩٨٣٠٠٤ (٠٣) الثقبة ـ ٤٧٩٢٠٥٥ (٠١) الرياض

فاكس ٨٩٥٢٤٩٦ (٠٣)

ص . ب: ٢٠٥٩٧ ـ الثقبة ٣١٩٥٢

المملكة العربية السعودية

مقدّمة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهدِهِ الله؛ فلا مضلَّ له، ومَن يضلل؛ فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الاطِّلاعَ على سير الأفذاذ من الرجال، وخصوصاً حملة العلم الشرعي، الدُّعاة إليه، الذَّابِّين عن كتاب الله وسنَّةِ رسوله ﷺ: مما يشحذ همم طلبة العلم لسلوك سبيلهم، والسير على منوالهم، والاقتداء بهم، على حدِّ قول القائل:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُم ... إِنَّ التَّشَبُّهَ بالكِرامِ فَلاحُ

ونقل عن أبي حنيفة (رحمه الله): «سِيَر الرجال أحب إليَّ من كثير من الفقه».

وقد اشتمل القرآن على قَصص الأنبياء، وقال اللهُ جلَّ وعلا لنبيِّه في ذٰلك: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾.

وقالَ بعد أن ساقَ قصة يوسف وإخوته: ﴿لَقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأولي الألْبابِ﴾.

واستهلَّ قصَّتَهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ في يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلينَ﴾.

وقد زَخَر تاريخُنا الإسلامي بقُدُوات كُثُرٍ في ميادين كثيرة؛ في العلم، وفي الدعوة، وفي الجهاد، وفي الزهد، وفي الصبر، وفيها مجتمعة.

وتحديث الناس بسير الرجال ومآثرهم ومناقبهم عنصر رئيس من عناصر التربية، له دور فاعل في الارتقاء بالمتربِّين إلى مراتب عليا، فحين يرون تطبيقاً عمليّاً لما يسمعونه نظريّاً من معانٍ وآداب سامية؛ يسهِّلُ ذٰلك الأمرَ عليهم، ويدفعهم إلى الأمام قُدُماً في كل ما ينفعهم في دُنياهم وأخراهم.

وقد قالَ اللهُ سبحانه لنبيِّه ﷺ بعد أن قصَّ عليه قَصص مجموعة من أنبيائه في سورة الأنعام: ﴿أُولٰئِكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

ولمَّا كانَ الشيخ الإمام القدوة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي صاحب كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» من خير مَن يُقتَدَى به من رجال القرن الرابع عشر في العلم والتُّقى والورع والزهد في الدُّنيا وبذل الجهد في نشر العلم والدَّأب الشديد قبل ذٰلك في تحصيله، حتى فاق أقرانه في كل ذٰلك:

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار سابقاً (رحمه الله): «مُلِىء علماً من رأسه إلى أخمص قدميه».

وقال عنه أيضاً: «آية في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب».

وقال عنه الألباني: «من حيث جمعه لكثير من العلوم ما رأيتُ مثله»، وشبَّهه بابن تيمية.

وقال عنه الشيخ حمَّاد الأنصاري: «وله حافظة نادرة قوية، ويعتبر في وقته نادراً، ولم يكن له منافس في تفسير القرآن بأنواعه الأربعة: بالقرآن، والسنة، وأقوال السلف، واللغة العربية، وعنده في اللغة استحضار عديم النظير».

إلى غير ذٰلك مما ستراه (إن شاء الله) في هٰذا الكتاب من أقوال العلماء في الثناء عليه.

أقول: لما كان الشيخ بهٰذه المنزلة، وكان طلبة العلم ـ ومنهم كاتب هٰذه السطور ـ بحاجة إلى ما ينير لهم طريق الطلب، ويشحذ هممهم للمواصلة فيه، وكانت التربية بالقدوة من خير وسائل التربية، وكانت سِيَر الرجال لها تلك المكانة عند سلَفِنا؛ جمعتُ طَرفاً من أخبار ومِلَح وآثار ومآثر هٰذا الحَبْر، ولم أستوعب، فالاستيعاب في هٰذا الشأن مطلب بعيد المنال.

ولقد جمعتُ ذٰلك ورتَّبتُه على الفصول الآتية:

الفصل الأول: في ما يتعلَّق بحياتِه قبل مجيئه إلى المملكة العربية السعودية:

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نسبه، وولادته، ونشأته.

المبحث الثاني: طلبه للعلم، ومشايخه فيه.

المبحث الثالث: أعماله وجهوده في نشر العلم قبل قدومه إلى المملكة.

الفصل الثاني: في سياق رحلة حجه إلى بيت الله الحرام ـ ومدتها ستة أشهر ـ وما فيها من النكت العلمية والأدبية.

الفصل الثالث: جهوده في الدعوة ونشر العلم بعد استقراره بالمملكة.

الفصل الرابع: عقيدته (رحمه الله).

الفصل الخامس: مآثره ومراثيه.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وفاته ومراثيه.

المبحث الثاني: سمتُه وأخلاقه.

المبحث الثالث: تلاميذه وأقوال علماء عصره فيه.

كتبه

عبدالرحمٰن بن عبدالعزيز السديس

□□□□□

الفصلُ الأوَّل
حياتُه قبل مجيئِهِ إلى المملكة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول
نسبه، ولادته، نشأته

□ اسمه ونسبه:

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر بن محمد بن أحمد نوح بن محمد ابن سيدي أحمد بن المختار، من أولاد أولاد الطالب أوبك، وهٰذا من أولاد أولاد كرير بن الموافي بن يعقوب بن جاكن الأبر جد القبيلة الكبيرة المشهورة المعروفة بالجكنيين، ويعرفون بتجكانت، ويرجع نسب هٰذه القبيلة إلى حِمْيَر[1]، وكلٌّ من اسمه (رحمه الله) واسم أبيه عَلَمٌ مركَّب من اسمين، وذُكر محمد فيه للتبرُّك[2].

(١) حدثني ابنه الدكتور عبدالله؛ قال: «نسبه مختلَف فيه، والصحيح أنه من حِمْير، وسمعت أبي يقول: أجدادنا ذهبوا فاتحين. والقول الآخر أنه أصله من قريش، ولا دليل عليه، ولا يشك الشيخ (رحمه الله) في أنهم من حمير» انتهى كلامه.

(٢) انظر: «ترجمة الشيخ عطية له» في آخر (ج ١٠) من «الأضواء» (ص ١٨ من الترجمة).

□ **ولادته:**

ولد (رحمه الله) عام خمسة وعشرين وثلاث مئة وألف للهجرة عند ماء يسمى (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بـ (شنقيط)، وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن، علماً بأن كلمة (شنقيط) كانت ولا تزال اسماً لقرية من أعمال مديرية (أطار) في أقصى موريتانيا في الشمال الغربي[1].

□ **نشأته:**

ونشأ (رحمه الله) يتيماً.

قال (رحمه الله): «توفي والدي وأنا صغير أقرأ في جزء ﴿عمَّ﴾، وترك لي ثروة من الحيوان والمال، وكانت سكناي في بيت أخوالي وأمي ابنة عم أبي، وحفظت القرآن على خالي عبدالله بن محمد المختار بن إبراهيم بن أحمد نوح جد الأب المتقدم»[2].

□□□□□

---

(١) انظر: «الترجمة» (ص ١٩) آخر (ج ١٠) من «الأضواء».

(٢) انظر «الترجمة» (ص ٢١) آخر (ج ١٠) من «الأضواء»، حيث نقل الشيخ عطية ذلك عن الشيخ سماعاً.

المبحث الثاني
طلبه للعلم، ومشايخه فيه

قال الشيخ عطية: [حفظ القرآن في بيت أخواله على خاله عبدالله ـ كما تقدم ـ وعمره عشر سنوات.

قال (رحمه الله): «ثم تعلمت رسم المصحف العثماني (المصحف الأم) عن ابن خالي سيدي محمد بن أحمد بن محمد المختار، وقرأت عليه التجويد في مقرأ نافع برواية ورش من طريق أبي يعقوب الأزرق وقالون من رواية أبي نشيط، وأخذت عنه سنداً بذلك إلى النبي ﷺ، وذلك وعمري ست عشرة سنة».

□ أنواع الدراسة في القرآن:

تعد الدراسة في علوم القرآن منهجاً متكاملاً، لا تقتصر على الحفظ والأداء، بل تتناول: معرفة رسم المصحف؛ أي: نوع كتابته، ما كان موصولاً أو مفصولاً، وما رسم فيه المد أو كان يمدُّ بدون وجود حرف المد، وقد يكون حرفاً صغيراً، أو نحو ذلك، ثم ضبط ما فيه من متشابه في الرسم أو التلاوة.

ومن المشهور عندهم في هذا رجز محمد بن بوجه المشهور المعروف بـ (البحر)، تعرض فيه لكل كلمة جاءت في القرآن مرة واحدة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع وعشرين مرة؛ أي: من الكلمات المشتبهة، وأفرد كل عدد بفصل، فمثلاً كلمة (أعينهم) بالرفع جاءت ثلاث مرات؛ قالَ فيها:

«أَعْـيُنُهُمْ بالـرَّفْـعِ مِنْ غَيْرِ حُضُـور
مِنْ بَعْـدِ كَانَتْ[1] وتَـوَلَّـوْا[2] وتَـدُور[3]»

ومن الثاني كلمة (الأشياع) بالعين؛ قال فيها:

«أَشْـياعُ بالـعـينِ فهـل مِنْ مُدَّكِـرْ[4]
في سَبَـإٍ مِنْ قَبْـلِ إِنَّـهُـم ذُكِـرْ[5]»

وقد درس هٰذا كله في طفولته، وكانت له زيادة نظم على ذٰلك تذييلاً لزيادة الفائدة؛ كما قال على البيت الأخير مبيِّناً حركاته وإعرابه:

«فـي سورةِ الـقمـرِ خاطِبْ وانْصِبَـا
وجُـرَّهُ وغَـيِّبَـنْـهُ في سَبَـا»

أي: في سورة القمر تكون تلاوتها الخطاب والنصب: ﴿ولَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَـلْ مِنْ مُدَّكِرْ﴾، وفي سورة سبإ تكون تلاوتها بالغيبة والجر: ﴿كَمَا فُعِلَ بأَشْياعِهِمْ﴾.

---

(١) ﴿وعـرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً. الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري...﴾ [الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١].

(٢) ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون﴾ [التوبة: ٩٢].

(٣) ﴿أشحَّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت...﴾ [الأحزاب: ١٩].

(٤) ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدَّكر﴾ [القمر: ٥١].

(٥) ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب﴾ [سبأ: ٥٤].

وهٰذه دراسة لا تكاد توجد إلا ما شاء الله، وهي من المهام العلمية؛ لحفظها رسمَ القرآن من التغيير والتبديل، وهي من آثار تعهُّد الله بحفظ هٰذا القرآن المنزَّل من عنده سبحانه.

ثم قال (رحمه الله): «وفي أثناء هٰذه القراءة درست بعض المختصرات في فقه مالك؛ كرجز الشيخ ابن عاشر، وفي أثنائها أيضاً درستُ دراسة واسعة في الأدب على زوجة خالي أم ولد الخال».

أي: أن ولد خاله يعلِّمه العلوم الخاصة بالقرآن، وأمه تعلِّمه الأدب.

قالَ: «أخذتُ عنها مبادىء النحو؛ كـ«الآجرومية»، وتمرينات ودروس واسعة في أنساب العرب وأيامهم والسيرة النبوية، ونظم الغزوات لأحمد البدوي الشنقيطي، وهو يزيد على خمس مئة بيت، وشروحه لابن أخت المؤلف المعروف بـ (حماد)، ونظم عمود النسب للمؤلف، وهو يعد بالآلاف، وشرحه لابن أخته المذكور على خصوص العدنانيين؛ لأنه مات قبل شرح ما يتعلَّق بالقحطانيين».

هٰذه دراسته في علوم القرآن والأدب والسير والتاريخ، كانت في بيت أخواله على أخواله وأبناء أخواله وزوجات أخواله؛ أي: كان بيت أخواله المدرسة الأولى له.

أما بقية الفنون؛ فقال: «أولاً: الفقه المالكي، وهو المذهب السائد في البلاد، درست (مختصر خليل)».

بدأ دراسته فيه على الشيخ محمد بن صالح إلى قسم العبادات، ثم درس عليه النصف من «ألفية ابن مالك»، ثم أخذ بقية الفنون على مشايخ

متعددة في فنون مختلفة، وكلهم من الجكنيين، ومنهم مشاهير العلماء في البلاد، منهم:

ـ الشيخ محمد بن صالح المشهور بابن أحمد الأفرم.

ـ والشيخ أحمد الأفرم بن محمد المختار[1].

ـ والشيخ العلاَّمة أحمد بن عمر.

ـ والفقيه الكبير محمد النعمة بن زيدان.

ـ والفقيه الكبير أحمد بن مود.

ـ والعلامة المتبحر في الفنون أحمد فال بن آدة.

وغيرهم من المشايخ الجكنيين.

قال (رحمه الله): «وقد أخذنا عن هٰؤلاء المشايخ كل الفنون: النحو، والصرف، والأصول، والبلاغة، وبعض التفسير والحديث، أما المنطق وآداب البحث والمناظرة؛ فقد حصَّلناه بالمطالعة».

هٰذا ما أملاه عليَّ (رحمه الله) وسجَّلته عنه[2].

---

(١) وقد ذكره في «الأضواء» (٧ / ٣٤٧) بقوله ـ بعد أن ذكر اللغات في مادة (غني) ـ ما نصه: «وهٰذه اللغات التي ذكرناها في مادة (غني) كنت تلقيتها في أول شبابي في درس من دروس الفقه، لقننيها شيخي الكبير أحمد الأفرم بن محمد المختار الجكني، وذكر لي بيتي رجز في ذٰلك لبعض أفاضل علماء القطر، وهما قوله:

وضد فقر كـ (إلى) وكـ (سحاب) ... النفع والمطرب أيضاً كـ (كتاب)

وكـ (فتى) إقامة وكـ (هنا) ... جمع لغُنية لما به الغنى»

(٢) الكلام لا يزال للشيخ عطية.

علماً بأن الفن الذي درسه على المشايخ أو مطالعة من الكتب لم يقتصر في تحصيله على دراسته، بل كان دائماً يديم النظر ويواصل التحصيل، حتى غدا في كل منه كأنه متخصص فيه، بل وله في كل منه اجتهادات ومباحث مبتكرة، سنلمُّ بها ـ إن شاء الله ـ عند إيراد المنهج العلمي لدراسته وآثاره العلمية.

□ المنهج السائد في بلاده وقت طلبه العلم وأثر ذلك عليه:

تعدُّ طريقة الدراسة في تلك البلاد جزءاً من حياة البوادي حلاًّ وارتحالاً، وإذا أقام أحد المشايخ في مكان؛ توافد عليه الطلاب للدراسة عليه، ومكث حتى يأخذوا عنه، وقد يقيم بصفة دائمة لدوام الدراسة عليه، ويُقال له: المرابط؛ نظراً لإقامته الدائمة لنشر العلم.

ولا يأخُذُ المرابطُ من طلابه شيئاً، وإن كان ذا يسار؛ ساعد المحتاجين من طلابه، وقد يساعد أهلُ ذاك المكان الغرباءَ من الطلاب، فينزلون حول بيته، ويبنون لهم خياماً أو مساكن مؤقتة، ويكون لهم مجلس علم للدرس والمناقشة والاستذكار.

وقد يكون المرابط مختصّاً بفنٍّ واحد، وقد يدرس عدة فنون، فإذا كان مختصّاً بفنٍّ واحد؛ فإن دروسه تكون في هٰذا الفن موزعة في عدة أماكن منه بحسب مجموعات الطلاب، فقد تكون مجموعة في البداية منه، ومجموعة في النهاية، وأخرى في أثنائه... وهٰكذا، فتتقدم كل مجموعة على حدة، فتدرس على الشيخ، ثم تأتي المجموعة الأخرى... وهٰكذا.

وإذا كان يدرس عدَّة فنون؛ فإنه يقسم طلاب كل فنٍّ على النحو المتقدم.

□ **إفراد الفنون:**

ولا يحقُّ لطالب أن يجمع بين فنَّين في وقت واحد، بل يدرس فنّاً حتى يكمله؛ كالنحو مثلاً، ثم يبدأ في البلاغة حتى يكملها... وهٰكذا، يبدأ مثلاً في الفقه حتى يفرغ منه، ثم يبدأ في الأصول حتى يكمله... سواء درسها على عدة مشايخ أو على شيخ واحد.

□ **طريقة الدراسة اليومية:**

يبدأ الطالب بكتابة المتن في اللوح الخشبي، فيكتب قدر ما يستطيع حفظه، ثم يمحوه، ثم يكتب قدراً آخر... حتى يحفظ مقرأ من الفن حسب التقسيم المعهود (تعد «الألفية» في النحو أربعة مقارىء، ويعد «متن خليل» في الفقه نحواً من ذٰلك).

فإذا حفظ الطالب مقرأ من الفن؛ تقدَّم للدراسة، فيشرحه له الشيخ شرحاً وافياً بقدر ما عنده من تحصيل؛ دون أن يفتح كتاباً أو يحضِّر في مرجع.

ثم يقوم هٰؤلاء للاستذكار فيما بينهم ومناقشة ما قاله الشيخ، وقد يأخذون بعض الشروح لمقابلته على ما سمعوه، أو يرجعون إلى بعض الحواشي، ولا يجتازون ذاك المكان من الدرس حتى يروا أنهم قد حصلوا كلَّ ما فيه، وليس عليهم من سرعة أو إنهاء كتاب بقدر ما عليهم من فهم وتحصيل ما في الباب.

وقد ذكروا عن بعض الطلاب ممَّن عرفوا بالذكاء والقدرة على التحصيل أنه كان لا يزيد في «متن خليل» على سطرين فقط، فقيل له: لم

لا تزيد وأنت قادر على التحصيل؟ فقال: لأنني عجلان لأعود إلى أهلي. فقالوا له: إن العجلان يزيد في حصته! فقال: أريد أن أتقن ما أقرأ حتى لا أحتاج إلى إعادة دراسته فأتأخر.

□ **دراسة الشيخ (رحمه الله):**

على هٰذا المنهج كانت دراسة الشيخ (رحمه الله)؛ إلا أنه تميَّز ببعض الأمور قلَّ أن كانت لغيره، نوجز منها الآتي:

ـ تقدَّم أنه أتيح له في بادىء دراسته ما لم يُتَحْ لغيره، حيث كان بيت أخواله مدرسته الأولى، فلم يرحل في بادىء أمره للطلب، وكان وحيد والديه، فكان في مكان التدلُّل والعناية.

ـ قال (رحمه الله): «كنتُ أميل إلى اللعب أكثر من الدراسة، حتى حفظت الحروف الهجائية، وبدؤوا يقرئونني إياها بالحركات، (با فتحة با، بي كسرة بي، بو ضمة بو)[1]، وهٰكذا (ت) و(ث)... فقلتُ لهم: أوكل الحروف هٰكذا؟ قالوا: نعم. فقلتُ: كفى؛ إني أستطيع قراءتها كلها على هٰذه الطريقة ـ كي يتركونني ـ. فقالوا: اقرأها بثلاثة حروف أو أربعة... وتنقلت إلى آخرها بهٰذه الطريقة، فعرفوا أني فهمت قاعدتها، واكتفوا مني بذٰلك، وتركوني، ومن ثَمَّ حُبِّبَت إلي القراءة».

ـ وقال (رحمه الله): «ولما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوَّقت فيه على الأقران؛ عُنِيَتْ بي والدتي وأخوالي أشدَّ

---

(١) كذا قال الشيخ عطية، ولعل صوابه: «ب فتحة با، ب كسرة بي، ب ضمة بو»، وكذا ما بعدها؛ لأن هٰذا هو المعروف، وهو المقرَّر في القاعدة البغدادية.

العناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهَّزتني والدتي بجملين: أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيأت لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابسي كأحسن ما تكون؛ فرحاً بي، وترغيباً لي في طلب العلم... وهٰكذا سلكت سبيل الطلب والتحصيل».

□ **الحياة الدراسية:**

تقوم الحياة الدراسية على أساس منع الكلفة، وتمام الألفة، سواء بين الطلاب أنفسهم أو بينهم وبين شيخهم، مع كمال الأدب، ووقار الحشمة، وقد تتخللها الطُّرف الأدبية والمحاورات الشعرية، ومن ذٰلك ما حدثنيه (رحمه الله)؛ قال:

«قدمتُ على بعض المشايخ لأدرس عليه، ولم يكن يعرفُني من قبلُ، فسأل عني مَن أكون في ملإٍ من تلامذته؟ فقلت مرتجلاً:

هٰذا فَتَىً مِنْ بَني جَاكَانَ قَدْ نَزَلا ... بِهِ الصِّبَا عَنْ لِسانِ العُرْب قَدْ عَدَلا
رَمَتْ بِهِ هِمَّةٌ عَلْيَاءُ نَحْوَكُمُ ... إذ شَامَ بَرْقَ عُلومٍ نُورُهُ اشْتَعَلا
فجَاءَ يَرْجُو رُكاماً مِن سَحَائِبِهِ ... تَكْسُو لِسانَ الفَتَى أَزْهَارُهُ حُلَلا
إذ ضَاقَ ذَرْعاً بِجَهْلِ النَّحْوِ ثُمَّ أَبى ... أَلَّا يُمَيِّزَ شَكْلَ العَيْن مِنْ «فَعَلا»
وَقَدْ أَتَى اليَوْمَ صَبّاً مُولَعاً كَلِفاً ... بـ «الحَمْدُ للهِ» لا أَبْغِي لهُ بَدَلا»

يريد دراسة «لامية الأفعال».

وقد مضى (رحمه الله) في طلب العلم قُدُماً، وقد ألزمه بعض مشايخه بالقِران؛ أي: أن يَقْرِنَ بين كل فنَّيْن؛ حرصاً على سرعة تحصيله،

وتفرُّساً له في القدرة على ذٰلك، فانصرف بهمة عالية في درس وتحصيل][1].

وقد صوَّر شدَّة انشغاله بطلب العلم في شبابه بقوله (رحمه الله) في «رحلة الحج» ما نصه: «ومما قلتُ في شأن طلب العلم وقد كنت في أخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج لأنه ربما عاق عنه وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي يرغب في زواجي ويطمع فيه، فلما طال اشتغالي بطلب العلم عن ذٰلك المنوال؛ أيست مني، فتزوجت ببعض الأغنياء، فقال لي بعض الأصدقاء: إن لم تتزوج الآن مَن تصلح لك؛ تزوجت عنك ذوات الحسب والجمال، ولم تجد مَن يصلح لمثلك، يريد أن يعجلني عن طلب العلم، فقلت في ذٰلك هٰذه الأبيات:

دَعَانِي النَّاصِحُونَ إِلى النِّكاحِ ... غَدَاةَ تَزَوَّجَتْ بِيْضُ المِلاحِ
فَقَالُوا لي تَزَوَّجْ ذَاتَ دَلٍّ ... خَلُوبَ اللَّحْظِ جَائِلَةَ الوِشاحِ
ضَحُوكاً عَنْ مُؤشرةٍ رِقاقٍ[2] ... تَمجُّ[3] الرَّاحَ بالماءِ القَراحِ
كأَنَّ لِحاظَها رَشَقَاتُ نَبْلٍ ... تُذيقُ القَلْبَ آلامَ الجِراحِ
ولا عَجَبٌ إذا كَانَتْ لِحاظٌ ... لِبَيْضاءِ المَحاجِرِ كالرِّماحِ
فَكَمْ قَتَلَتْ كَمِيًّا ذا دِلاصٍ[4] ... ضَعِيفاتُ الجُفونِ بِلا سِلاحِ

---

(١) ترجمة الشيخ (رحمه الله) بقلم الشيخ عطية سالم، من (ص ٢١) إلى (ص ٣٠)، مع تصرف يسير.

(٢) في «ترجمة الشيخ عطية له»؛ قال: «تبسم عن نوشرة رقاق»؛ مكان هٰذا الشطر.

(٣) في «الترجمة»: «يمج»؛ بالياء مكان التاء.

(٤) في «الترجمة»: «فكم قتلا كمياذا ولا حى».

فَقُـلْتُ لهُـمْ دَعُـونِـي إنَّ قَلْبِـي ... مِنَ الغَيِّ[1] الصُّـراحِ اليومَ صاحِ
ولـي شُغْـلٌ بأَبـكـارٍ عَذارى ... كَأَنَّ وُجـوهَهـا غُرَرُ الصَّبـاحِ[2]
أَراهـا في المَهـارِقِ لا بِسـاتٍ ... بَراقِـعَ مِن مَعـانيهـا الصِّحـاحِ
أَبـيْتُ مُفَكِّـراً فيهـا فَتَضْحَى ... لِفَهْمِ الفِـدْمِ خافِضَـةَ الجَنَـاحِ
أَبَـحْتُ حَريمَهـا جَبْـراً عليهـا ... ومَـا كَانَ الحَـريمُ بِمُسْتَبَـاحِ»[3]

وسيأتي ذكـر قصته في سهره على حلِّ مسألة من مسائل «مختصر خليل» حيث بقي في حلِّها من العصر إلى طلوع الشمس.

□□□□□

(١) في «الترجمة»: «من العي»؛ بالعين المهملة، وليس النكاح عيّاً ولا غيّاً.

(٢) في «الترجمة»: «ضوء الصباح».

(٣) «الرحلة» (ص ٢٤٩).

المَبْحث الثالث

أعماله وجهوده في نشر العلم قبل قدومه إلى المملكة

قال الشيخ عطية (وفقه الله) في ترجمته في صدد ذكره أعمال الشيخ (رحمه الله) في بلاده ما نصُّه: «كانت أعماله (رحمه الله) كعمل أمثاله من العلماء: الدَّرس والفتيا، ولكنه قد اشتهر بالقضاء وبالفراسة فيه، وكان المواطنون عظيمي الثقة فيه، فيأتونه للقضاء بينهم، ويفدون إليه من أماكن بعيدة أو حيث يكون نازلاً»[1].

وما أشار إليه الشيخ عطيَّة من اشتغال الشيخ بالتدريس يحتِّمُه الوضع السائد في البلاد، حيث كان الجو العلمي مستحكماً، وخصوصاً في قبيلة الجكنيين، واشتهر في موريتانيا مقولة «العلم جكني»[2]، فكيف بجكني طبقت شهرته آفاق البلاد؟!

حدثني الشيخ الدكتور محمد الخضر؛ قال: «. . . وأخبار نجابته شائعة وذائعة في القطر الموريتاني».

ويؤكِّدُه قول الشيخ (رحمه الله) في «الرحلة»: «. . . فنزلنا عند تاجر منا طيِّب الشمائل والأخلاق، اسمه أحمد بن الطالب الأمين، وهو من أخص إخواني وتلامذتي . . .»[3] إلخ.

وقول الشيخ الدكتور محمد ولد سيدي بن الحبيب عن نفسه:

---

(١) «الترجمة» (ص ٣٤) بتصرف يسير.

(٢) حدثني بذلك الشيخ محمد الخضر.

(٣) «الرحلة» (ص ٩٠).

«تلقيت عن الشيخ (رحمه الله) في البلاد سنة سفره عام ١٣٦٧هـ بعض العقائد، املاءات في التوحيد، حيث كنت أحضر حلقاته وأنا صغير جدّاً، ووعيت عنه فيها».

وقد اشتغل الشيخ بالتدريس والفتيا حتى بعد خروجه من مسقط رأسه للحج، حيث يُفيض من علمه الغزير حيثما وجد أرضاً متعطشة للعلم، فقد أفتى ودرَّس في طريق رحلته للحج في المناطق الآتية:

١ ـ قرية (كيفة) في موريتانيا[١].

٢ ـ (حلة الطالب جده) وهي حي من قبيلة الأقلال بوادي (أم الخز)[٢].

٣ ـ قرية (تامشكط)[٣].

٤ ـ قرية (العيون)[٤].

٥ ـ قرية (تنبدقة)[٥].

---

(١) انظر: «الرحلة» (ص ٤١)، وأجاب في هٰذه القرية عن المسألة (رقم ١ و٢) حسب ترقيمي للمسائل الواردة في «الرحلة»، وانظر الكلام عن كتاب «رحلة الحج» ضمن كلامي عن مؤلفات الشيخ.

(٢) «الرحلة» (ص ٤٧)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٣) حسب ترقيمي المشار إليه قريباً.

(٣) «الرحلة» (ص ٤٨)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٤ و٥) حسب الترقيم المذكور.

(٤) «الرحلة» (ص ٥٣)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٦).

(٥) «الرحلة» (ص ٥٧)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٧ و٨ و٩ و١٠).

٦ ـ قرية (النعمة)[١].

ومـــروره على هٰذه القـــرى كان على البعير، ثم باعهـــا في قرية (النعمة)، وركب سيارة.

٧ ـ قرية (فاوة)[٢].

٨ ـ بلد (أنيامي) عاصمة النيجر الفرنساوية[٣].

٩ ـ قرية (الجنينة) في حدود السودان من جهة الغرب[٤].

١٠ ـ بلدة (أم درمان) بالسودان[٥].

وسيأتي بيان ذٰلك في سياق رحلة حجه (رحمه الله) عام ١٣٦٧هـ.

أما طريقته في القضاء؛ فقال الشيخ عطيَّة في وصفها: «كان إذا أتى الطرفان؛ استكتبهما رغبتهما في التقاضي إليه، وقبولهما ما يقضي به، ثم يستكتب المـدَّعي دعـواه، ويكتب جواب المـدَّعى عليه أسفـل كتـابـة الدعوى، ويكتب الحكم مع الدعوى والإجابة، ويقول لهما: اذهبا بها إلى من شئتما من المشايخ أو الحكام.

أما المشايخ؛ فلا يأتي أحدهم قضية قضاها إلا صدَّقوا عليها.

---

(١) «الرحلة» (ص ٧١)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ١١ و١٢ و١٣ و١٤ و١٥).

(٢) «الرحلة» (ص ٩١)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ١٦).

(٣) «الرحلة» (ص ٩٤)، حيث أملى شرحاً كاملاً لسلم الأخضري في المنطق، وأجاب عن المسألة (رقم ١٨ و١٩).

(٤) «الرحلة» (ص ١٠٤)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣).

(٥) «الرحلة» (ص ١١٧)، حيث أجاب عن المسألة (رقم ٢٤)، وتكلَّم في المسائل من (٢٥ ـ ٤٢) حسب الترقيم المشار إليه سابقاً.

وأما الحكام؛ فلا تصلهم قضية حكم فيها إلا نفَّذوا حكمه حالاً.

وكان يقضي في كل شيء؛ إلا في الدماء والحدود، وكان للدماء قضاء خاص، حيث كان الحاكم الفرنسي في البلاد يقضي بالقصاص في القتل بعد محاكمة ومرافعة واسعة النطاق، وبعد تمحيص القضية وإنهاء المرافعة وصدور الحكم يُعْرَض على عالمين جليلين من علماء البلاد ليصادقوا عليه، ويسمى العالمين لجنة الدماء، ولا ينفَّذ حكم الإعدام في القصاص إلا بعد مصادقتهما عليه.

وقد كان (رحمه الله) أحد أعضاء هٰذه اللجنة، ولم يخرج من بلاده حتى علا قدره، وعظم تقديره، وكان علماً من أعلامها، وموضع ثقة أهلها»[1].

□ مؤلفاته في بلاده (رحمه الله):

أما في مجال التأليف؛ فقد صنَّف (رحمه الله) عدة كتب، وهي كما يلي:

١ ـ «**نظم في أنساب العرب**»: ألَّفه قبل البلوغ، يقول في أوله:

«سَمَّيْتُهُ بخَالِصِ الجُمانِ ... في ذِكْرِ أَنْسابِ بَنِي عَدْنانِ»

وبعد البلوغ دفنه؛ قال: «لأنه كان على نيَّة التفوق على الأقران»، وقد لامه مشايخه على دفنه، وقالوا: كان من الممكن تحويل النيَّة وتحسينها[2].

---

(١) «الترجمة» (ص ٣٤ و٣٥).

(٢) «ترجمة الشيخ عطية سالم له» (ص ٥١ و٥٢).

٢ ـ «رجزٌ في فروع مذهب مالك»: يختصُّ بالعقود من البيوع والرهون، وهو آلاف متعدِّدة؛ قال في أوَّله:

«الحمدُ للهِ الَّذي قَدْ نَدَبا ... لأنْ نَمِيْزَ البَيْعَ عَنْ لَبْسِ الرِّبا
ومَنَّ بالمُؤلِّفينَ كُتُبَا ... تَطْرُدُ أَطْوادَ الجَهالَةِ هَبَا
تَكْشِفُ عَنْ عَيْنِ الفُؤادِ الحُجُبا ... إذا حِجابٌ دونَ عِلْمٍ ضُرِبا»[1]

وقد أشار إليه الشيخ (رحمه الله) ونقل منه في سورة البقرة في كلامه الطويل عن الربا وأحكامه عند قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾، حيث قال ما نصه: «وقد كنت حرَّرت مذهب مالك في ذلك في الكلام على الربا في الأطعمة في نظم لي طويل في فروع مالك بقولي:

وكُلُّ مَا يُذاقُ مِنْ طَعامِ ... رِبَا النَّسا فيهِ مِنَ الحَرامِ
مُقْتاتاً آو مُدَّخَراً أو لا اخْتَلَفْ ... ذاكَ الطَّعامُ جنسهُ أو ائْتَلَفْ
وإنْ يَكُنْ يُطْعَمُ للدَّواءِ ... مُجَرَّداً فالمَنْعُ ذُو انْتِفاءِ
ولِربا الفَضْلِ شُروطٌ يَحْرُمُ ... بِها وبانْعِدامِها يَنْعَدِمُ
هِيَ اتِّحادُ الجِنْسِ فيما ذُكِرا ... مَعَ اقْتِياتِهِ وأَنْ يُدَّخَرا
وما لِحَدِّ الادِّخارِ مُدَّهْ ... والتَّادِلي بِسِتَّةٍ قَدْ حَدَّهْ
والخُلْفُ في اشْتِراطِ كونِهِ اتُّخِذْ ... للعُرْفِ عَيْشاً وبالاسقاطِ أُخِذْ
تَظْهَرُ فائِدَتُهُ في أَربَعِ ... غَلَبَةُ العَيْشِ بِها لَمْ تَقَعِ
والأَرْبَعُ التي حَوَى ذا البَيْتُ ... بَيْضٌ وتِينٌ وجَرادٌ زَيْتُ
في البَيْضِ والزَّيْتِ الرِّبا قَدِ انْحَظَرْ ... رَعْياً لِكَوْنِ شَرْطِها لم يُعْتَبَرْ

---

(١) «ترجمة الشيخ عطية سالم له» (ص ٥٢).

وقَدْ رَعَى اشْتِراطَها في المُخْتَصرْ ... في التِّينِ وحْدَهُ ففيهِ مَا حَظَرْ
وَرَعْيُ خُلْفٍ في الجَرادِ بَادِ ... لِذِكْرِهِ الخِلافَ في الجَرادِ
وحَبَّةٌ بِحَبَّتَيْنِ تَحْرُمُ ... إذِ الرِّبَا قَلِيْلُهُ مُحَرَّمُ

ثم ذكرت بعد ذلك الخلاف في ربوية البيض بقولي:

وَقَوْلُ إنَّ البَيْضَ مَا فيهِ الرِّبَا ... إلى ابنِ شَعْبَانَ الإمامِ نُسِبَا»[1]

٣ ـ «**نظمٌ في الفرائض**»: أولها:

«تَرِكَةُ المَيِّتِ بَعْدَ الخَامِسِ ... مِنْ خَمْسَةٍ مَحْصورةٌ عن سادِسِ
وحَصْرُها في الخَمْسَةِ اسْتِقراءُ ... وانْبِذْ لَحَصْرِ العَقْلِ بالعَراءِ
أَوَّلُها الحُقوقُ بالأعْيانِ ... تَعَلَّقَتْ كالرَّهْنِ أو كالجَاني
وكَزَكاةِ التَّمْرِ والحُبوبِ ... إنْ مَاتَ بَعْدَ زَمَنِ الوُجُوبِ»[2]

وقد أشار الشيخ (رحمه الله) إلى هذين المؤلَّفين له قائلاً: «وقد كنت قلتُ في نظمي في فروع مالك وفي الفرائض على مقتضى مذهبه في الكلام على ما يخرج من تركة الميت قبل ميراث الورثة بعد أن ذكرت قضاء ديونه:

وأَتْبِعَنَّ دَيْنَهُ بهَدْيِ ... تَمَتُّعٍ إنْ مَاتَ قَبْلَ الرَّمْيِ»[3]

إلا أن ظاهر كلام الشيخ (رحمه الله) قد يُفهم منه أنهما مؤلف

---

(١) «الأضواء» (١ / ٢٤٧ و٢٤٨).

(٢) ذكره الشيخ عطية محمد سالم في «ترجمته للشيخ» (ص ٥٢).

(٣) «الأضواء» (٥ / ٥٢٢ ـ ٥٢٣ ـ أحكام قوله تعالى: ﴿ويَذْكُروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾).

واحد.

وما ذكره الشيخ عطية (وفقه الله) من أنه آلاف متعددة قد يُفهم من قول الشيخ (رحمه الله) في تفسير سورة البقرة عند فراغه من الكلام عن أحكام قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا﴾ في ثلاثين صفحة، حيث قال:

«وهٰذا البيع الذي ذكرنا تحريمه هو المراد عند العلماء ببيع العِينة، ويسميه المالكية بيوع الآجال، وقد نظمتُ ضابطه في نظمي الطويل في فروع مالك بقولي:

بُيوعُ الآجالِ إذا كانَ الأجَلْ ... أو ثَمَنٌ كأَخَوَيْهما تَحِلّ
وإنْ يَكُ الثَّمَنُ غَيْرَ الأوَّلِ ... وخَالَفَ الأجَلُ وَقْتَ الأجَلِ
فانْظُرْ إلى السَّابقِ بالإعطاءِ هَلْ ... عادَ لهُ أكثَرُ أوْ عَادَ أقَلّ
فإنْ يَكُنْ أكْثَرَ مِمَّا دَفَعَهْ ... فإنَّ ذاكَ سَلَفٌ بِمَنْفَعَهْ
وإنْ يَكُنْ كَشَيْئِهِ أو قَلاَّ ... عَنْ شَيْئِهِ المَدْفُوعِ قَبْلُ حَلاَّ»[1]

وكلا هٰذين المؤلفين في فروع مالك لا يزالان مخطوطين.

٤ ـ «ألفية في المنطق»: أولها قولُه:

«حَمْداً لمَنْ أظْهَرَ للعُقولِ ... حَقائِقَ المَنْقُولِ والمَعْقولِ
وكَشَفَ الرَّيْنَ عَنِ الأذْهانِ ... بواضِحِ الدَّليلِ والبُرْهانِ
وفَتَحَ الأبْوابَ للألْبابِ ... حَتَّى اسْتَبانَتْ مَا وَراءَ البَابِ»[2]

وقد ذكرها الشيخ (رحمه الله) ونقل منها في تفسير سورة الأنعام في

---

(١) «الأضواء» (١ / ٢٥٩).

(٢) «ترجمة الشيخ عطية له» (ص ٥٢).

الكلام على أحكام قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إِليَّ مُحَرّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يكونَ مَيْتَةً. . .﴾ الآية، حيث قالَ:

«وقد أشرتُ في أرجوزتي في فن المنطق إلى أنه يُشترط في تناقض القضيتين اتحادهما فيما سوى الكيف ـ أعني: الإيجاب والسلب ـ من زمان ومكان، وشرط وإضافة، وقوة وفعل، وتحصيل وعدول، وموضوع ومحمول، وجزء وكل؛ بقولي:

والاتِّحادُ لازِمٌ بينَهُمَا ... فيما سِوَى الكَيْفِ كَشَرْطٍ عُلِما
والجُزْءِ والكُلِّ مَعَ المَكانِ ... والفِعْلِ والقُوَّةِ والزَّمانِ
إِضافَةِ تَحْصِيْلٍ أَو عُدُولِ ... ووِحْدَةِ المَوْضوعِ والمَحْمُولِ»[1]

وذكرها (رحمه الله) في «الرحلة»، فبعد أن بيَّن معنى السبر والتقسيم عند الأصوليين، وهو عند المناطقة يعرف بالشرطي المنفصل، وعند الجدليين بالتقسيم والترديد[2]؛ قالَ ما نصُّه: «وقد حرَّرنا هٰذه المباحث في كتابنا المنظوم وشرحه في فن المنطق»[3].

وذكرها أيضاً في «الأضواء» في تفسير: ﴿وإِنْ تَدْعُهُمْ إِلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذنْ أَبداً﴾ من سورة الكهف[4]، حيث قال ما نصه: «وقد أوضحتُ الفرق بين الشرطية اللزومية والشرطية الاتِّفاقيَّة في أرجوزتي في المنطق وشرحي لها، في قولي:

---

(١) «الأضواء» (٢ / ٢٥١).
(٢) انظر: «الرحلة» (ص ١٦٥).
(٣) «الرحلة» (ص ١٧٤).
(٤) الكهف: ٥٧.

مُقَـدَّمُ الـشَّـرْطِـيَّةِ الـمُـتَّـصِـلَهْ مَهْمَـا تَكُنْ صُحْبَـةُ ذا التَّـالِ لَهْ
لمـوجِبٍ قَدِ اقْتَضـاهـا كَسَبَبْ فهِـيَ الـلُّزومـيَّةُ ثُمَّ إِنْ ذَهَـبْ
موجِبُ الاصـطِحـابِ ذا بَيْنَهُمـا فالاتِّـفـاقِـيَّةُ عنـدَ الـعُـلَمـا»[1]

وهٰذه الألفية في المنطق لا تزال مخطوطة أيضاً.

□□□□□

(١) «الأضواء» (٤ / ١٤٩).

الفصل الثاني
في سياق رحلة حجه إلى بيت الله الحرام
وما فيها من النكت العلمية والأدبية

تعـد رحلتـه (رحمـه الله) للحـج رحلة علمية زاخـرة بأنـواع من المحاضرات والدروس والمناظرات والنكت الأدبية والعلمية.

وقد بدأها (رحمه الله) في اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة وحطَّ عصا الترحال منها في العشر الأول من شهر ذي الحجة من نفس العام.

وسـأذكـر سياقـه للرحلة دون ذكـر تحقيقاته العلمية وإجاباته على الأسئلة التي وجهت له؛ مقتصراً على ذكر السؤال والإشارة إلى الجواب.

والباعث على ذكر خبر هٰذه الرحلة في الترجمة هو ما اشتملت عليه من بيان علوِّ مكانة الشيخ (رحمه الله) ورفعة منزلته وكونه ـ بما حوى من علم غزير ـ موضع الإجلال والتقدير والاعتراف له بالسبق أينما حلَّ وحيثما ارتحل.

قال الشيخ (رحمه الله) بعد خطبة الكتاب والتي بين فيها الباعث له على الخروج من مسقط رأسه، وأنه قوله تعالى: ﴿وللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إليهِ سَبيلاً﴾، لا قول عمر بن أبي ربيعة:

إنْ كُنْتَ حاوَلْتَ دُنْيا أو أَقَمْتَ لَها ... ماذا أَخَـذْتَ بِتَرْكِ الحَجِّ مِنْ ثَمَنِ

ما نصه:

«أما بعد؛ فليكن في علم ناظره أنّا أردنا تقييد خبر رحلتنا هٰذه إلى بيت الله الحرام، ثم إلى مدينة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ليستفاد بما تضمنته من المذاكرة والأحكام وأخبار البلاد والرجال، وما تجول فيه الأدباء من المجال، والغرض الأكبر من ذٰلك تقييد ما أجبنا به عن كل سؤال علمي سُئِلنا عنه في جميع رحلتنا.

اعلم أنا خرجنا من عند أهلنا بجانب الوادي ذي البطاح والمياه والنخيل، وودَّعنا كل قريب وخليل، والبَيْن يَهيج في القلوب الداء الدخيل، فترى وردَ الخدود يطله جمود الدموع، والأعين تنكر السنة والهجوع، ماء العيون في الجفن حائر، حسبما قال الشاعر:

ومِمَّا شَجَانِي أَنَّها يَوْمَ وُدِّعَتْ ... تَوَلَّتْ وماءُ العَيْنِ في الجَفْنِ حَائِرُ
فلَمَّا أَعادَتْ مِن بَعيدٍ بنَظْرَةٍ ... إليَّ الْتِفاتاً أَسلَمَتْهُ المَحاجِرُ

وكان يوم الخروج لهٰذه القاعدة الكبيرة لسبع مضين من جُمادى الآخرة من سنة سبع وستين وثلاث مئة وألف، أمننا الله مما نخشاه من الأمام والخلف، فخرجنا من بيوتنا يصحبنا بعض تلامذتنا إلى قرية اسمها (كيفة)، فوصلناها في مدة خفيفة، ونحن تُحْدى بنا الجِمال في الأودية والرمال.

وفي مدة إقامتنا بـ (كيفة) سألتنا كريمة من بنات العم ـ وهي أم الخيرات بنت أحمد بن المختار الجكنية ـ عن مسألتين، وطلبت فيهما منا التحرير، وأحضرت فهم العالم النحرير:

أولاهما: ما يحيك في النفس من عدم الفرق بين علم الجنس واسم الجنس.

والثانية: قول المتكلمين إن الصفة النفسية لا يدرك بدونها الموصوف، وإن الإنسان مثلاً بدون النطق غير معروف، لم لا يعرف الإنسان بخواصه؛ كالمشي على الاثنتين مع الانتصاب، وكالضحك وكتابة الكتاب»[1].

ثم ذكر جوابه عن السؤال الأول في أربع صفحات، وعن الثاني في صحيفة ونصف، ثم قال:

«ثم ارتحلنا من قرية (كيفة) عشية بعد أن توادعنا مع من يعز علينا، وذهب معنا يشيعنا ابن الأمراء الرئيس وأنيس الجليس العيشي محمد بن عثمان، وقانا الله وإياه من شر حوادث الزمان، ونحن متوجهون إلى قرية (تامشكط)، فمررنا في الطريق بوادي (أم الخز)، ونزلنا عند حي من قبيلة (الأقلال) اسمه (حلة أهل الطالب جدة)، فأحسنوا إلينا غاية الإحسان، ومن جملة من زارنا عالم ذلك الحي ومفتيه الشيخ الأستاذ محمد فال بن أحمد نوح، فسألنا عن قول الأخضري في «سلمه» في كلامه على القياس الاستثنائي:

وهو الذي دَلَّ على النَّتِيجهْ أَو ضِدَّها بالفِعْلِ لا بالقُوَّهْ

فكيف يدلُّ القياس الاستثنائي على النتيجة بمادتها وصورتها والنتيجة لا بد أن تكون مغايرة لمقدمتي القياس بدليل قول الأخضري نفسه في «سلمه»:

---

(١) «الرحلة» (ص ٤٠ و٤١).

مستلزماً بالذات قولاً آخرا

والقياس إذا أنتج إحدى المقدمتين؛ كان ذا خطإ عندهم؛ كما قال الأخضري عاطفاً على خطإ البرهان من جهة المادة:

أو ناتج إحدى المقدمات؟»[1]

وذكر الجواب، ثم قال:

«ثم وصلنا قرية (تامشكط) عند صلاة المغرب، فزارنا جل من فيها من الأكابر والعلماء، وعاملونا معاملة الكرماء، وكنا في ضيافة الرئيس سيدي أحمد بن العربي رئيس أهل جدة بن خليفة من قبيلة الأقلال، ومن جملة من زارنا قاضي القرية المذكورة الأستاذ الشيخ المحفوظ بن الغوث والشيخ الأستاذ محمد الأمين ابن الشيخ أحمد الذي كان قاضياً أيضاً للقرية المذكورة، ومما دار في أثناء تلك المذاكرة السؤال عن مسألتين:

إحداهما: بيان كيفية استحالة تسلسل هيولى العالم؛ أي: تأثير بعضها في بعض إلى ما لا نهاية، والبرهان الدال على أن كل ما سوى الله جلَّ وعلا حادث.

والثانية: تحقيق الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع»[2].

ثم ذكر جوابه عن السؤال الأول في ثلاث صحائف، وعن الثاني في صحيفة واحدة، ثم قال:

«ثم ذهبنا من قرية (تامشكط) قبيل غروب الشمس ونحن على

---

(١) «الرحلة» (ص ٤٧).

(٢) «الرحلة» (ص ٤٨ و٤٩).

جمالنا في أخريات جمادى الأخيرة، وشيعنا جلُّ من فيها من الأكابر، وودَّعونا وقدَّم لنا وقت الوداع العالم الأديب واللوذعي الأريب الشيخ أحمد بن عبدالرحمٰن بن جدة ابن خليفة القلاوي أبياتاً، وهي هٰذه:

مني إلى المَعْهودِ ذي الفَتْح الجَليّ ... دِرْعِ الكُماةِ إذا الْتَقَتْ في الجَحْفَلِ
مَنْ كَفَّ صَوْبُ المُزْنِ عَنْ إروائِهِ ... وانْحَطَّ في المَعْقولِ عنهُ الذُّؤلي
هٰذا وإنَّا حامِدونَ لوَصْلِكُمْ ... ولَكُمْ عَلَيْنا المُسْتَناخُ النَّوْفَلي

ثم سرنا متوجهين تلقاء قرية (العيون)، والعيون التي تسمى بها القرية عيونٌ متعددة متفجرةٌ من جبال هناك، ويُقال لها باللسان الدارجي: (عيون العتروس)، وهو بلسانهم الدارجي: (التيس)، ويقال لها أيضاً: (عيون المكفي)؛ بكاف معقودة قبل الفاء، فوصلناها في ليال قلائل، فقابَلَنا مَن فيها من الفضلاء باللائق من الإكرام والتبجيل، وبالغ في إكرامنا قاضيها، مع هدية سنية وأخلاق مدنية، وسألنا عن الكاغَد المتعامَل به في نواحي البلاد التي تحت أيدي فرنسا: هل يجوز سلمه في فلوس النحاس المتعامل بها أيضاً عندهم في مذهب الإمام مالك (رحمه الله تعالى) أم لا؟»[1].

ثم ذكر جوابه على هٰذا السؤال في ثلاث صفحات، ثم قال: «وكنا أيامنا في قرية (العيون) نازلين عند أمير أولاد الناصر عثمان بن الحبيب الناصري، واجتمع علينا تجار من قبيلتنا الجكنيين، وأسدوا إلينا صنائع الإحسان.

---

(١) «الرحلة» (ص ٥٣).

ثم ارتحلنا من قرية (العيون) أثناء رجب الفرد، قاصدين قرية (تنبدقة) المعروفة على لسان الإفرنج بـ (تنبدرة)، ورفع تجارنا الذين هم في قرية (العيون) إلى قاضي (تنبدقة) برقية بتوجهنا إلى (تنبدقة)، وأنّا سننزل في ضيافته، فخرجنا من قرية (العيون) وقت الضحى، يشيعنا جل من فيها من الفضلاء، وودعنا ثم صديقنا ابن الأمراء الرئيس وأنيس الجليس محمد بن عثمان العيشي حفظنا الله وإياه من حوادث الزمان، وأهدى لنا جملاً ذَلولاً، وكان افتراق ركبينا في شهر الله رجب الفرد، فتذكرتُ قول مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بـ (صريع الغواني):

مَا مَرَّ بِي رَجَبٌ إِلَّا نَعِمْتُ بِهِ ... يا حَبَّذا رَجَبٌ لو دَامَ لي رَجَبُ

فذهبنا على جمالنا قاصدين قرية (تنبدقة)، فوصلناها بعد ليال قلائل، فوجدنا قاضيها في انتظارنا لأجل البرقية التي رُفِعت إليه بخبرنا، وهو العالم الأديب واللوذعي الأريب المحفوظ بن بيه المسومي، فأقمنا عنده أيامنا في غاية التبجيل والإعظام والإحسان والإكرام، وكثُرت بيننا المذاكرات في كثير من فنون العلم، ومما دار في أثناء تلك المذاكرات أن قال هو: النص الفلاني منسوخٌ بالإجماع»[1].

ثم ذكر استدراكه عليه بأن الإجماع لا يجوز النسخ به شرعاً. قال: ولم؟ فأجابه، وذكر الجواب في نحو صفحة، وقال بعده:

«ثم قال لنا القاضي المذكور: ما الحكمة في النسخ؟ هل هي التخفيف أو لا؟»[2].

---

(١) «الرحلة» (ص ٥٦ و٥٧).

(٢) «الرحلة» (ص ٥٨).

وذكر جوابه له في أربع صفحات، ثم قال بعدها:

«ثم دارت المذاكرة بيني وبين قاضي (تنبدقة) ـ وهو المحفوظ بن بيَّه المذكور ـ في الكلام على الأختين: هل جمعهما في التسري بملك اليمين جائز أو لا؟ فقلت له: إني سألني قبل ذلك المرحوم الأمير بن الأمراء محمد محمود ابن سيد المختار الحاجي (رحمه الله) عن الأختين بملك اليمين: هل يجوز التسري بهما أو لا؟ وما النصوص الدالة على حكم التسري بهما معاً من كتاب أو سنة؟ فأجبته، وأوردت جوابي له لقاضي (تنبدقة)، وفيه مقنع في حكم وطء الأختين بملك اليمين»[1].

وذكر حاصله في سبع صفحات، قال في آخرها:

«فهٰذا هو جوابنا عن السؤال الأول والأخير عن حكم الأختين بملك اليمين.

ثم سألنا تلامذة قاضي (تنبدقة) المذكور عن كيفية تركيب القياس الاقتراني»[2].

وذكر أنه أوضح لهم الجواب، ولم يذكره، ثم قال:

«ثم في أيامنا عند قاضي (تنبدقة) اختصم إليه رجلان في بعير باعه أحدهما للآخر بالوصف، ثم اختلفا: هل هو على الوصف الذي بيع عليه، فالبائع يقول: هو عليه، والمشتري يقول: لا. فقال القاضي للمشتري: هات بيِّنتك على أنه ليس على الوصف. فقال له المشتري: أعليَّ البيِّنة؟

---

(١) «الرحلة» (ص ٦٢ و٦٣).

(٢) «الرحلة» (ص ٧٠).

فقال له: نعم. ثم سألني القاضي: هل هٰذا الذي قال هو الحكم أم لا؟ فقلت له: إن الذي أعرف في دواوين فروع المالكية إنما هو خلافه، وأن البينة على البائع أنه على الوصف»[1].

وذكر مناقشة دارت بينهما، وقال في آخرها:

«فراجع القاضي المذكور النظر في كتب المالكية، فوجد ما قلتُ له صحيحاً.

ثم ارتحلنا من (تنبدقة) عشية في أخريات رجب الفرد متوجهين إلى قرية (النعمة)، وشيعنا جماعة من أهل (تنبدقة) فيهم القاضي، وأهدى لنا قاضيها هدية قدر طاقته، فوصلنا قرية (النعمة) في ليال قلائل ونحن على جمالنا، ونزلنا عند تاجر من بني عمنا قاطن في قرية (النعمة) اسمه سالم بن الطيب، فاجتمع علينا تجار من قبيلتنا الجكنيين كانوا في تلك البلاد، وجمعوا لنا هدايا سنية، ومكثنا في قرية (النعمة) إحدى عشرة ليلة في غاية الإكرام والتبجيل بحمد الله الكريم الجليل، وزارنا من فيها من الفضلاء، وسألونا عن مسائل منها مسألة سلم الكاغد المتعامل به في فلوس النحاس، فأجبناهم بالجواب المتقدم، ومما سألونا عنه تحقيق النسبة التي بين القدم والأزل في اصطلاح المتكلِّمين، وأن نكتب لهم كلاماً في ذٰلك»[2].

وذكر جوابه لهم في صفحة، ثم قال:

«ومما سألونا عنه مذهب أهل السنة في آيات الصفات وأحاديثها؛

---

(١) «الرحلة» (ص ٧٠).

(٢) «الرحلة» (ص ٧١).

كقوله تعالى: ﴿ثمَّ اسْتَوى على العَرْشِ﴾، وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَدُ اللهِ فوقَ أَيْديهِمْ﴾، وقوله ﷺ: ﴿قَلْبُ المُؤمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحمٰنِ﴾... ونحو ذٰلك»[1].

وذكر جوابه لهم في أربع عشرة صفحة، قال (رحمه الله) بعده:

«ثم في مدة إقامتنا بـ (النعمة) قدم علينا أديب علوي، اسمه محمد المختار بن محمد فال بن بابه العلوي، وأكثر من سؤالنا عن أيام العرب وأشعارها وملح الأدباء ونوادرهم، ومما وقع السؤال عنه في أثناء المذاكرة ثناء أدباء الشعراء في قصار النساء؛ كقول الشاعر:

مَنْ كَانَ حَرْباً للنِّسا ... ءِ فإِنَّني سِلْمٌ لَهُنَّهْ
فإِذا عَثَرْنَ دَعَوْنَني ... وإِذا عَثَرْتُ دَعَوْتُهُنَّهْ
وإِذا بَرَزْنَ لمَحْفَلٍ ... فقِصارُهُنَّ مِلاحُهُنَّهْ

مع أن القصر جدّاً وصف مذموم كما يدل عليه قول كعب بن زهير:

لا يُشْتَكَى قِصَرٌ مِنها ولا طُول

ومعلوم أن كمال القامة واعتدال القد وصف محمود فيهن، ومما يدلُّ على ذٰلك قول عمرو بن كلثوم التَّغلبي:

وساريَتَي بِلَنْطٍ أَو رُخامٍ ... يَرِنُّ خَشاشُ حُلْيِهِما رَنِينا»[2]

وذكر جوابه له في صفحة، ثم قال (رحمه الله):

«وربما حضر مذاكرتنا بعض العوام الذين لا يفهمون، ومن جهلهم

---

(١) «الرحلة» (ص ٧٢ و٧٣).

(٢) «الرحلة» (ص ٨٧).

أن واحداً منهم قال لنا بكلامه الدارجي ما مضمونه: إنه يغبطنا ويغار منا بسبب أننا نمرُّ بأرض السودان التي فيها موضع شريف! قلنا له: وما ذاك الموضع الشريف؟ قال: الخرطوم. قلنا: وأي شرف للخرطوم؟ قال: لأنه مذكور في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلى الخُرْطومِ﴾! فقلنا له: ذٰلك خرطوم آخر غير الخرطوم الذي تعني! فضحك من يفهم من الحاضرين، واستدل بعضهم بدليل هو عليه لا له. فقال لي الأديب العلوي: هٰذا مغني اللصوص. فضحك من له خبرة بقصة مغني اللصوص، وهي قصة مشهورة، حاصلها أن بعض الأمراء أسر لصوصاً كانوا يقطعون الطريق، فقدمهم للقتل واحداً بعد واحد، حتى لم يبق منهم إلا واحد، فقال: لا تقتلوني؛ فإني لست من اللصوص، وإنما كنت مغنياً لهُم، أطربهم بالأناشيد والأغاريد، فقالوا له: بم كنت تغنيهم؟ فقال: بقول الشاعر:

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرينِهِ ... فكُلُّ قَرينٍ بالمُقارِنِ يَقْتَدي
فإنْ كانَ ذا شَرٍّ فجانِبْ بِسُرْعَةٍ ... وإنْ كانَ ذا خَيْرٍ فقارِنْهُ تَهْتَدِي

وطلب منا قوم من أهل (النعمة) أن نفسر لهم سورة الواقعة، ففسرتها لهم ليلاً، وسألنا بعض طلبة العلم منهم عن الفعل المبني للمفعول؛ هل هو أصل أو فرع؟»[1].

فأجابهم عن ذٰلك، وعن قياس مصدر (فاعَلَ)، وهل يجوز أن يُقال: (جُلاس) في (جَالَسَ)، ثم قال (رحمه الله):

«ثم ارتحلنا من القرية المسماة (النعمة) آخر النهار في العشر الأول

(١) «الرحلة» (ص ٨٨ و٨٩).

من شعبان، متوجهين إلى المحل المسمى (بمكو)، وركبنا إليه سيارة بعد أن بعنا جمالنا في قرية (النعمة)، وودّعنا بعض فضلاء القرية حتى دخلنا السيارة، فبتنا تلك الليلة في قرية تسمى (النوارة)، فتذكرت ـ بنزولنا بقرية (النوارة) آخر الليل، ولم نعرف أحداً من أهلها ـ بيتي الشاعر الأديب إبراهيم بن بابه ابن الشيخ سيدنا اللذين قالهما في شأن (النوارة) المذكورة، وهما:

إن للدَّهْرِ إنْ تَأَمَّلْتَ صَرْفا ... يُكْسِبُ المَرْءَ حِكْمَةً واعْتِبارا
ها أنا اليومَ بالنّوَارِ مُقيمٌ ... أيَّ عَهْدٍ بَيْني وبينَ النّوَارا

ثم أقمنا فيها أول النهار، وسافرنا بعد صلاة العصر منها، وحبسنا المطر ليلاً، فبتنا تلك الليلة بجنب قرية صغيرة لا ندري اسمها، وأهلها سودُ الألوان، وما بين (النوارة) و (بمكو) فياف واسعة تتخلّلها قرى صغار من السوادين.

وجاءت بنا السيارة بلد (بمكو) في الليلة الثالثة آخر الليل، فنزلنا عند تاجر منا طيب الشمائل والأخلاق اسمه أحمد بن الطالب الأمين، وهو من أخص إخواني وتلامذتي، فبالغ في إكرامنا، وأهدى لنا ثياباً، ودفع عنا أجرة السيارة إلى بلد (مبتى).

فبادرنا السفر إلى جهة (مبتى)، وركب معنا أخونا أحمد المذكور في السيارة، وباتت بنا تلك الليلة في قرية اسمها (سيكثو)، وباتت بنا أيضاً في الليلة الثانية في قرية اسمها (صن).

ومررنا في طريقنا هٰذه على قرى صغار مساكنها العرش والأخصاص، يزرعون الذرة واللوز، وليس على أبدانهم شيء من الثياب

أصلاً، ونساؤهم حالقات الرؤوس عاريات جميع البدن، والواحد منهم ذكراً كان أو أنثى يجعل خرقة صغيرة جداً أو ورقة من ورق الشجر على سوءة قبله، ولا يستتر بشيء غير ذلك، وهم سود الألوان، سمعت بالاستفاضة أنهم وثنيون يعبدون الشجر، وما نزلنا في شيء من قراهم، ولا كلمنا منهم أحداً، مع أن السيارة تمر بنا من بين مزارعهم، ما عليهم من الثياب إلا ما ولدتهم به أمهاتهم، وسمعت أنهم ربما أكلوا الناس، ويسمون باللسان الدارجي (العرايا)، وهم تحت حكم فرنسا.

ثم جاءت بنا السيارة بلدة (مبتى) وقت الظهر، فنزلنا في دار فيها تجار منا، فبالغوا في إكرامنا، وبتنا معهم ليلتين، ثم حملونا في البريد الفرنساوي المتوجه إلى قرية (فاوه)، فمكث بنا دون (فاوه) ليلتين: أولاهما: في محل اسمه (دوينصه)، وكان مقيلنا من الغد في قرية اسمها (همبري)، والثانية: على شاطىء النهر، ما بيننا وبين قرية (فاوه) إلا نفس النهر.

ثم دخلنا (فاوه) وقت الضحى، فنزلت عند رجل تاجر من أبناء العم اسمه الزاوي، وهو رجل طيب الأخلاق والشمائل، فأحسن إلينا غاية الإحسان، واجتمع علينا تجار من قبيلتنا الجكنيين كانوا من أرض (فاوه)، فمكثنا معهم أسبوعاً في غاية الإكرام والتبجيل، وزارنا كثير من أهل (فاوه)، وسألونا عن مسائل؛ منها: امرأة غاب زوجها، فسمعت في غيبته أنه مات، فظنت صدق الخبر، فاعتدَّت، وتزوجت، فحملت من الزوج الثاني، ثم انكشف الغيب عن حياة الزوج الأول، وعدم فراقه لزوجته؛ ما الحكم في ذلك في مذهب مالك (رحمه الله)؟ فأجبناهم بفتوى كتبناها لهم محرَّرة

بنصوص فروع مذهب مالك، حاصل مضمونها»[1].

وذكر حاصلها في صفحة ونصف تقريباً، ثم قال بعدها:

«ثم أردنا التوجه من قرية (فاوه) إلى بلد اسمه (انيامي)، وهو عاصمة النيجر الفرنساوية، فحملنا ابن عمنا الذي نحن في ضيافته الذي هو الزاوي المذكور في البريد الفرنساوي الذاهب إلى (انيامي)، وسائقه ورفقته نصارى، فجاءنا المطر في ليلتنا الأولى فحبسنا حتى ما وصلنا (انيامي) إلا بعد ليلتين.

ولما قدمنا إلى بلد (انيامي) في الضحى بعد الليلة الثانية؛ نزلنا عند تاجر اسمه الحاج الكيدي توره، وهو رجل كريم السجايا والطبائع، فيه نفع للمارّ به من عامة المسلمين (جازاه الله عنهم خيراً)، ففرح بقدومنا، وأكرمنا غاية الإكرام، ورغَّب جدّاً في أن نقيم عنده شهر رمضان وقد استهل ونحن عنده، ووعدنا بأنه يحملنا من كيسه في طائرة إلى جدة إن أقمنا معه مدة، فقلنا له: لا بد لنا من الجد في السير في الوقت الحاضر، فأهدى لنا وودعنا وحملنا في البريد الفرنساوي إلى قرية (مرادي).

وأدركني في مدتي عنده رئيس أولاد حمة من قبيلة مشومة من قبائل شنقيط، وكان رفيقي إلى انتهاء رحلتي بالمدينة المنورة.

وفي مدة إقامتنا عند الحاج الكيدي توره جاءنا رجل من أهل العلم من قبيلة تسمى (الطلابة)، اسمه محمد إبراهيم، وطلب منا أن نبيِّن له معاني سلم الأخضري في فن المنطق بدرس شاف، فأجبته، وكان يكتب

---

(١) «الرحلة» (ص ٩٠ ـ ٩٢).

ما أملي عليه من إيضاح معانيه ليلاً ونهاراً خوفاً من معاجلة السفر قبل الإتمام، حتى أتى على آخره، فجاء ذٰلك الإملاء شرحاً وافياً وعن غيره كافياً، والحمد لله رب العالمين.

ثم سألنا عن تعيين ناسخ آية الوصية للوالدين والأقربين، فقلتُ له: كان هٰذا مشكلاً عليَّ في زمن درسي فن أصول الفقه إشكالاً قويّاً».

وبيَّن له وجه إشكاله، ثم حلَّ هٰذا الإشكال في خمس صفحات ونصف، قال بعد ذٰلك:

«ثم أردنا السفر من بلد (أنيامي) بعد أن أقمنا به أياماً في ضيافة الحاج الكيدي توره المذكور في غاية التبجيل والإكرام، فحملنا في البريد الفرنساوي الذاهب إلى قرية اسمها (مرادي)، فبتنا دونها ليلتين: إحداهما: في قرية اسمها (مداوا)، والثانية: في محل غير معروف.

ثم قدمنا إلى قرية (مرادي) آخر النهار في العشر الأول من رمضان، فنزلنا عند سلطانها، فأنزلنا في بيت فيه رجل من أبناء عمنا كان ضيفاً عنده، ومكثنا في ضيافته خمسة أيام، وأخونا الذي كان عنده قبلنا يخدمنا أتم خدمة، والسلطان يعاملنا معاملة الضيف.

وقدمنا فلوساً كانت عندنا إلى (فورلمي) بطريق الحوالة، ثم سافرنا من القرية التي تسمى (مرادي) وقت قرب القيلولة في سيارة ذاهبة إلى بلد اسمه (كنو)، فلما مشينا قليلاً مررنا على مركز فرنساوي هو الحدود بين النيجر الفرنسي ونيجيريا الإنكليزية، فنظر رئيس المركز في جوازات السفر وأمضاها، وبتنا تلك الليلة في بلد اسمه (كتنه).

ثم من الغد نزلنا (كنو) آخر النهار، فنزلنا عند شريف ظريف اسمه محمد الأمين الشريف، فأحسن إلينا غاية الإحسان، وبتنا عنده ليلة واحدة، وبادرنا السفر من صبيحتها متوجهين إلى قرية تسمى (جص)، فركبنا في قطار الحديد إليها، فبتنا دونها ليلة واحدة، وجئناها من الغد، فوجدناها كما قال الشاعر:

ولٰكنَّ الفَتَى العَرَبيَّ فيها غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسانِ

فلم يفهموا كلامنا، ولم نفهم كلامهم، وبتنا فيها ليلة واحدة، ثم وجدنا واحداً يفهم من العربية قليلاً، فحصل بيننا المفاهمة مع صاحب سيارة ذاهبة إلى بلد يسمى (يروى مادفري)، فدفعنا لصاحبها أجرتها، وركبنا فيها، فلما سارت بنا تسعة وستين ميلاً؛ وقع فيها خلل مانع من الحركة، فمكثنا يومين وليلة في محل واحد موحش كثير البعوض والندى في خلاء من الأرض، ثم أصلح فسادها حتى لم يبق بيننا وبين (يروى) إلا مئة ميل وسبعة أميال، عاودها الفساد الأول، فمرت بنا سيارة ذاهبة إلى (يروى)، فدفعنا الأجرة لصاحبها، وركبنا فيها، فأدخلتنا بلد (يروى) في تلك الليلة، فنزلنا عند تاجر اسمه عبدالمحمود، فأصلح لي خللاً كان في جواز رفيقي عند الحكومة، فشكرتُ له، وتذكرت قول الشاعر:

وإذا امرؤٌ أَسْدَى إليكَ صَنيعةً مِنْ جَاهِهِ فكَأَنَّها مِنْ مالِهِ

ومكثنا في (يروى) ليلتين، ثم سافرنا منها آخر النهار متوجهين إلى بلد اسمه (فورلمى)، فركبنا بالأجرة في سيارة، فلما مشت بنا خمسة أميال؛ فسدت فساداً مانعاً من التحرك، فبتنا في ذٰلك المكان، وأرسل الله مطراً كأفواه القرب، فلما كان آخر النهار فعل لها سائقها شبه الإصلاح،

وسرنا فيها آخر النهار سيراً ضعيفاً للخلل الواقع بها، فلما سارت بنا ستة أميال؛ راجعها الفساد بأشد من الحالة الأولى، فبتنا في ذٰلك المكان تلك الليلة.

ولما ارتفع النهار وكان قرب القائلة؛ مرَّت بنا سيارة ذاهبة إلى بلد (فورلمي)، فدفعنا الأجرة لصاحبها وركبنا فيها فسارت بنا بقية ذٰلك اليوم، فلما كان آخر النهار؛ حبسها المطر في قرية اسمها (كمبارو) ـ بالكاف المعقودة ـ، فلما كان من الغد؛ ذهبت بنا وجاءت بنا آخر النهار إلى بلد اسمه (كسرى)، فأتعبنا أهل مركزه بتفتيش المتاع، وأخذوا منا جوازات السفر، وباتت عندهم.

فلما كان من الغد أول النهار؛ أمضوا الجوازات وأرسلونا، فدخلنا وقت الضحى في ذٰلك اليوم بلد (فورلمى)، وذهبنا إلى المركز الذي نستلم منه الدراهم التي حولنا إليه من قرية (مرادي) كما تقدم، فوجدنا مع رئيس المركز المذكور رجلاً طيب الشمائل والأخلاق تلوح بوجهه آثار الكرم اسمه خليفة فرج، وكان أرسل له أخ لي كان في قرية (فاوه) اسمه محمد بن أحمد فال جواباً بخبري وبأني سأمر ببلد (فورلمي)، فرحَّب بنا، ودعانا إلى النزول، فلم نجد وقتاً للنزول عنده لمبادرة السفر في نفس ذٰلك اليوم، فأخذ لنا الحوالة من رئيس المركز، ونحن في ذٰلك الوقت نتكلم مع صاحب سيارتين ذاهبتين إلى بلد (الأبيض) في شأن الأجرة، فجاء خليفة فرج المذكور، وتكلم معه بالنيابة عنا، حتى اتفقا على أن أجرة ركوب الرجل الواحد من (فورلمي) إلى (الأبيض) ألف ريال فرنساوي، ثم دفع عنا ألفاً لصاحب السيارة مع البشر والترحيب (جازاه الله خيراً)، وكنت أسمع عنه

قبل الملاقاة بصفات حميدة. . . فذكرني ما عاملني به قول الشاعر:

كانَتْ مُحادَثَةُ الخلَّانِ تُخْبِرُنا ... عَنْ أَحْمَدَ بنِ صَلاحٍ أَحْسَنَ الخَبَرِ
ثمَّ الْتَقَيْنا ولا واللهِ ما سمعَتْ ... أُذُنِي بأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَري

وركبنا من (فورلمي) آخر ذلك النهار في إحدى السيارتين المذكورتين وترافقنا ثلاثة لغير صاحبهما، واللتان ركبنا في إحداهما لرجل ذُكِر لنا أنه عربيٌّ، وأن أصله شاميٌّ، وهو عفيف الجبهة جدّاً، ما رأينا في رحلتنا هٰذه رجلاً يدَّعي الإسلام أعفَّ منه جبهة عن مسيس الأرض، وهٰذا العفاف التام يمنعه من أن تخطر الصلاة في ذهنه أصلاً، فضلاً عن أن يصلي.

وجميع السيارات ـ التي نحن فيها واللتان ترافقها ـ مشحون من السوادين الذين لا يفهمون كلامنا ولا نفهم كلامهم، وأكثرهم كالبهائم، فذكرتني مرافقتنا معهم أبيات محمد بن السالم البوحسني الشنقيطي:

إنْ يَطْرَحُونيَ أَرْضاً لا يُؤانِسُني ... إلَّا أَلَصُّ هَريتُ الشِّدْقِ نَبَّاحُ
فَكَمْ تَكَنَّفَني في ظِلِّ مَدْرَسَةٍ ... شُمُّ الأنوفِ لهُمْ كُتْبٌ وأَلْواحُ
وكَمْ أُغَازِلُ جَمَّاءِ العِظامِ على ... أَنيابِها العنْبَرُ الهِنْدِيُّ والرَّاحُ

وفي تلك الأيام أغلق الفرنساويون الطريق المعهود إلى قرية (آتيه)، فحاشت بنا السيارة إلى قرية اسمها (بحر غزال)، وباتت بنا دونها ليلة، وجاءتها من الغد وقت القائلة، فكان مقيلنا في قرية (بحر غزال)، ورحنا منها آخر النهار متوجهين إلى قرية (آتيه) من طريق غير معبَّد، فهو إلى بنيَّات الطريق أقرب منه للطريق، وباتت السيارة طول تلك الليلة كلما خرجت من

ورطة حبستها أخرى؛ لأن الأرض هناك رمال دهسة لينة جدّاً، وبتنا الليل كله نمشي على أقدامنا، لكن قليلاً قليلاً؛ لكثرة عوائق السيارات بالرمل اللين، ولم نزل على تلك الحال حتى كان وقت الضحى، فدخلنا وادياً فيه زراعات ومياه وفيه الفلفل الأحمر بكثرة لا ندري ما اسمه، وقلنا فيه، ثم رحنا منه آخر النهار، وبتنا تلك الليلة نعالج الوعث والماء والطين، والليلة الثالثة كذلك.

ثم جئنا آخر النهار بعد الثالثة للقرية المسماة (آتيه)، فالتمسنا عربيّاً نبيت عنده، فدعانا رجل عربيٌّ ـ والله ما سألت عن اسمه ولا اسم أبيه خوفاً من الغيبة ـ فأنزلنا في مكان يعوي منه الكلب، وأغلقه علينا من الخارج، فبتنا بليلة لا أعاد الله علينا مثلها، أشد من ليلة نابغية، ومن ليلة مهلهلية، فذكرتني تلك الليلة ليلة النابغة التي قال فيها:

كِلِيْنِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطيءِ الكَوَاكِبِ

وليلة المهلهل التي قال فيها:

أَلَيْلَتَنَا بِذي حسمٍ أَنِيري ... إذا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فلا تَحُوري

وقد وصف طولها بقوله:

كأَنَّ كواكِبَ الجَوْزاءِ عُوذٌ ... مُعَطَّفَةٌ على رُبُعٍ كَسِيرِ

كأَنَّ الجَدْيَ في مَثْناهُ رِبْقٌ ... أَسِيرٌ أَو بِمَنْزِلَةِ الأَسِيرِ

كواكِبُها زواحِفُ لاغِباتٌ ... كأَنَّ سماءَها بِيَدي مُديرِ

إلى أن قال:

وأَنْقَذَنِي بَياضُ الصُّبْحِ مِنها ... وقَدْ أَنْقِذْتُ مِنْ شَيْءٍ كَبِيرِ

وتمثَّلت قول امرىء القيس:

كأَنَّ الثُّـرَيّا عُلِّقَتْ في مَصـامِهـا بأَمْـراسِ كِتَّـانٍ إلى صُمِّ جَنْـدَلِ

وصبح تلك الليلة أحب غائب إلينا، فخرجنا من ذلك الضيق أول النهـار، وسـافـرنـا وقت الضحى من (آتيه) في السيارات المـذكورة قبل قاصدين قرية اسمها (أم حجر)، فوقفت السيارات في أرض كثيرة الطين والماء، فصار يجتمع على كل واحدة من السيارات إذا ارتطمت في الوحل قريب من مئة رجل من الراكبين يجرونها بالحبال من وحل الطين، وكلما نزعوها من ورطة ارتطمت في أخرى، فمكثنا على تلك الحال في مشقة شديدة من تتـابع المطر والبعوض وكثرة الوحل من الطين والماء أسبوعاً، فصـار قدر الزمن الذي مكثنا في المسافة بين (فورلمي) و(أبشة) ثلاث عشرة ليلة في غاية المشقة والحمى، فوصلنا قرية (أم حجر)، ومنها إلى (أبشة)، ولم نصل إحداهما إلا بعد جهد جهيد كما وصفت.

أما (أم حجر)؛ فلم نمكث فيها ساعة، وأما (أبشة)؛ فبتنا فيها ليلة واحدة، وكان نزولنا فيها عند رجل اسمه الحاج سعيد محمد، فأنزلنا في بيت، وأحسن إلينا بما يهيأ للضيف من نُزل طيب.

ثم سافرنا من الغد قبل وقت القيلولة بقليل، فلما كان آخر النهار؛ دخلنا قرية اسمها (آدرة) في الحدود بين حكومة تشاد الفرنسية والسودان المصـري، فبتنـا فيها ليلتين، فأتعبونا بتفتيش المتاع، وهم فرنساويون، وأمضوا جوازات السفر، وأرسلونا آخر النهار بعد لأي.

وسرنا آخر النهار قاصدين قرية اسمها (الجنينة) في حدود السودان من جهة الغرب، فدخلناها وقت المغرب، ونزلنا بمحطة الحكومة، ومن

الغد كان مقيلنا عند رجل اسمه علي تنى، فأحسن إلينا بما يهيأ للضيف من نُزل.

ورجعنا إلى المحطة التي نزلنا بها أولاً، وبتنا بها، ومن الغد اجتمعنا برجل اسمه الحاج مكي، فتلقانا بالبشر والترحيب، وأقمنا عنده أياماً في الإكرام والإحسان (جازاه الله خيراً).

ثم بعد ذلك دعانا جماعة موظفي الحكومة في (الجنينة)، وطلبوا منا أن نحضر مجتمعاً لهم يقولون له النادي يتذاكرون فيه، واجتمعوا علينا فيه، وسألونا عن مسائل علمية، فأجبناهم، ففرحوا بمعارفتنا معهم غاية الفرح، وشكروا لنا كثيراً، وأحسنوا إلينا إحساناً زائداً، وجاءتنا من قبلهم هدايا من البعض منهم، وتركنا ضابط البوليس ـ واسمه محمد عباس فقير ـ يجمع لنا منهم هدايا إكراماً منهم لنا، وعينوا لنا موعداً بعد صلاة العصر يأتوننا فيه للهدية والوداع، فأعجل عفيف الجبهة للسيارات قبل وقت الموعد، فذهبنا من غير لقاء ولا وداع لمعاجلة السفر قبل وقت الموعد»[1].

ومما سأله عنه أهل قرية (الجنينة) تولية المسلم على المسلم إذا كانت صادرة من غير مسلم متغلب منعقدة أم لا؟ ذكر جوابه لهم عن ذلك في نحو تسع صفحات، ثم قال:

«ومما سألونا عنه صلاة الجمعة في مسجد جديد بناه رجل من أهل البلد في جانب من جوانب البلد: هل يجوز لمن أراد صلاة الجمعة فيه أن يصليها فيه؟ أو يلزمهم أن يصلوا في الجامع الكبير الذي هو مسجد الجمعة

---

(١) «الرحلة» (ص ١٠٠ ـ ١٠٥).

العتيق الذي يصليها فيه أهل البلد، والفتوى المطلوبة في خصوص مذهب الإمام مالك (رحمه الله)»[1].

وذكر جوابه لهم في صفحة ونصف، ثم قال:

«ومما سألونا عنه: الغريب في بلد يريد التزوج فيه ونيته أنه إن أراد العود لوطنه ترك الزوجة طالقاً في محلها، هل تزوجه مع نية الفراق بعد مدة يجعل نكاحه نكاح متعة فيكون باطلاً أم لا؟»[2].

فذكر جوابه لهم مختصراً، ثم قال:

«ومما سألونا عنه معنى قول عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي:

رَأَتْ رَجُلاً ايما إذا الشَّمْسُ عارَضَتْ فَيَضْحَى وايما بالعشِيِّ فينْحَصِرْ

بعد أن طلبوني أن أملي عليهم القصيدة التي منها البيت، فأمليتها عليهم، وبينت لهم معنى البيت، بأن قلت لهم»[2].

وذكر معنى البيت، ثم قال:

«وسألونا عن أشياء غير هٰذا، أكثرها في الشعر والشعراء، فأجبناهم عنها، فازداد فرحهم وسرورهم بمعرفتهم لنا.

ثم توجهنا من قرية (جنينه) في شوال من السنة المذكورة في أول الرحلة التي هي سنة سبع وستين وثلاث مئة وألف توجهنا إلى قرية اسمها (الفاشر)، والأمطار في ذٰلك الوقت متراكمة، فحبسنا الوحل ليلتين في

---

(١) «الرحلة» (ص ١١٣).

(٢) «الرحلة» (ص ١١٥).

خلاء من الأرض، ثم وصلنا قرب القائلة محطة صغيرة اسمها (كبكابيه)، فوجدنا السمن فيها كثيراً جدّاً، ويُباع رخيصاً جدّاً، فمكثنا فيها قدر ساعة تقريباً، ورحنا منها، وحبسنا الوحل ليلتين أخريين، ثم وصلناها بعد الظهر بعد تعب كثير في السيارات المذكورة قبل، فنزلنا عند رجل اسمه الحاج أبو سفيطة، فقدم لنا نوعاً من الخبز، إدامه اللبن الرائب، وما قدرنا على سد خلة الجوع منه، واجتمع بنا قرب المغرب ضابط البوليس محمد عباس بخيت، فآوانا وأكرمنا، ومن الغد كان مقيلنا عند رجل منا قاطن بمدينة (الفاشر) اسمه سيدي محمد بن أحمدي سيدي، وأكرمنا، وفرح بنا.

وسافرنا آخر ذلك اليوم متوجهين إلى جهة (الأبيض)، فمكثنا دونه ليلتين، ومررنا بمحطات، ولم نلبث في شيء منها، منها محطة صغيرة، اسمها (أم كداده)، وقرية اسمها (النهود)، وغيرهما لم أعرف اسمه.

ونزلنا (الأبيض) أول النهار، فنزلنا عند رجل اسمه محمد خير، ومكثنا في قرية الأبيض ليلتين، وصاحبنا الذي نحن في ضيافته يرسل لنا في يومينا قرب الغروب قطعة من عصيدة الدخن عليها بعض إدام، فمرة تركناها وأكلنا من زادنا، ومرة تناولنا منها، فتذكرت قول الشاعر:

الجُوعُ يُطْرَدُ بالرَّغيفِ اليَابسِ ... فَعَلامَ تَكْثُرُ حَسْرَتي وَوَساوِسي

والمَوْتُ سَوَّى حِينَ عدّلَ قَسْمُهُ ... بينَ الخَلِيفَةِ والفَقيرِ البَائسِ

ثم ركبنا في قطار الحديد من (الأبيض) متوجهين إلى (الخرطوم)، فمكثنا دونه ليلتين، ومررنا بقرى كثيرة ما نزلنا في شيء منها ولا عرفنا فيها شيئاً إلا قرية يقال لها (وادي مدني)، سماها لنا واحد من الراكبين معنا، وقف بنا القطار فيها قليلاً ثم سار.

ثم قدمنا إلى بلد (الخرطوم) أول النهار، فنزلنا عند رجل اسمه عبدالباقي عبدالباقي، فأظهر لنا البشاشة، فبعد نزولنا بقليل جاءنا أخونا الفقيه الأديب الشيخ محمد محمود ابن الشيخ عثمان المعروف بابن عميرة الجكني الذي يقول عنه لسان الحال:

أَنا ابنُ جَلا وطَلَّاعُ الثَّنَايا ... مَتَى أَضَعُ العَمامةَ تَعْرِفُوني

فأنسنا بقدوم أخينا المذكور.

وفي ليلتنا الأولى اجتمع بنا رجل من العلماء المدرسين في المعهد الديني في (أم درمان)، اسمه الشيخ إبراهيم يعقوب، فسألني سؤالاً منطقيّاً عن القضايا الموجهة وعن بسائطها ومركباتها، فأجبته بإيضاح ما سأل عنه»[1].

وكان ذٰلك في ست صفحات، ثم قال:

«ثم من الغد دعانا علماء المعهد الديني في (أم درمان)، فوجدناه حافلاً بالعلماء والطلبة الأذكياء، تدرس فيه فنون كثيرة، منها الأصول والبلاغة والكلام والمنطق وغير ذٰلك، وحضرنا في ذٰلك المعهد الديني أياماً، وأكثر الطلبة وبعض العلماء سألونا عن مسائل من فنون شتى، فأول ما سألونا عنه في يوم قدومنا عليهم أول مرة أن قال لنا بعض الأساتذة المدرسين أن نتكلم لهم على قوله جل وعلا: ﴿ولَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأمرُ جَميعاً﴾، فكانَ جوابنا»[2].

---

(١) «الرحلة» (ص ١١٦ و١١٧).

(٢) «الرحلة» (ص ١٢٤).

وذكر الجواب في ثلاث صفحات، ثم قال:

«ثم سألونا عن وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفيها فَفَسَقوا فيها﴾ وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يأْمُرُ بالفَحْشَاءِ﴾»[1].

وذكر جوابه لهم عن ذٰلك في صفحة، ثم قال:

«ثم سألنا بعض أذكياء الطلبة بمحضر طائفة من العلماء في (أم درمان) المذكورة عن قصة الغرانيق في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقى الشَّيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثمَّ يُحْكِمُ آياتِهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾، وطلبوا منا أن نتكلم لهم على هٰذه الآية الكريمة»[2].

فأجابهم إلى ذٰلك، وذكر جوابه في تسع صفحات، ثم قالَ:

«ثم سألنا اثنان من العلماء المدرِّسين بالمعهد الديني في (أم درمان) عن تحقيق بيتين في «ألفية ابن مالك»:

إِنْ يَسْكُنِ السَّابِقُ مِنْ وَاوٍ ويَا ... واتَّصَلا ومِنْ عَروضٍ عَرِيا
فياءً الواوَ اقْلِبَنَّ مُدْغِما ... وشَذَّ مُعطى غيرَ ما قَدْ رسما»[3]

فأجابهما، وذكر الجواب في صفحتين، ثم قال:

«ثم سألنا بعض أذكياء الطلبة من أهل (أم درمان) عن المثنى من

---

(١) «الرحلة» (ص ١٢٧).

(٢) «الرحلة» (ص ١٢٨).

(٣) «الرحلة» (ص ١٣٧).

أسماء الإشارة والأسماء الموصولة نحو ذين وتين واللذين واللتين؛ هل هو معرب أم لا؟ وعلى أنه معرب؛ فكيف يسوغ ذلك مع ما تقرَّر عندهم من أن الأسماء الموصولة مبنيَّة للشبه الافتقاري، وأسماء الإشارة مبنية للشبه المعنوي»[1].

فأجابه على سؤاله، وذكر الجواب في صفحتين، ثم قال:

«ثم سألني بعض الطلبة في (أم درمان) عن معنى قول الشاعر:

وتَبْـلَى الألى يَسْتَلْئِمـونَ على الألى تَراهُنَّ يومَ الرَّوع كالحدإِ القُبْلى»[2]

فأجابه، وذكر الجواب في أكثر من صفحة، ثم قال:

«ثم جاني طالب من طلبة العلم في المعهد المذكور، وقال لي: بيِّنْ لي المعاني التي تأتي لها لفظة (ما). فزجره بعض الأساتذة، وقالوا له: لا تضيِّعوا علينا هٰذه الفرصة بمثل هٰذه الأسئلة التي لا يُحتاج لها؛ لظهورها عند صغار الطلبة، ومنعوه من السؤال؛ رغبة عنه إلى ما هو أهم منه.

ثم سألني القـاضي الشـرعي في (أم درمـان)، وهو إذ ذاك الشيخ يوسف النور، عن تحقيق القول بالموجب؛ لأنه في ذٰلك الوقت ينظر في كتـاب فوجـد فيه ذكر القول بالموجب، فطلب مني الكلام عليه بإيضاح وبيان، فكان جوابي له»[3].

وذكر الجواب في سبع صفحات، ثم قال (رحمه الله):

---

(١) «الرحلة» (ص ١٣٩).

(٢) «الرحلة» (ص ١٤٢).

(٣) «الرحلة» (ص ١٤٣).

«ثم طلب منا بعض حذاق الطلبة أن نتكلم لهم على القادحِ المسمَّى فساد الوضع والقادح المسمَّى فساد الاعتبار، وأن نبيِّنَ لهم تحقيق النسبة بينهما، فكان جوابنا أن قلنا»[1].

وذكر الجواب في ست صفحات، ثم قال (رحمه الله):

«ثم دار في المذاكرة ذكر تنقيح المَناط، فطلب منا بعض القوم أن نبيِّنَ لهم تنقيح المناط وتخريج المناط وتحقيق المناط، وأن نتكلَّم لهم على هٰذه الأقسام الثلاثة بما يكشف النقاب عنها، فكان جوابنا في إيضاح الأقسام الثلاثة»[2].

وذكر الجواب في ثمان صفحات، ثم سُئِل عن السبر والتقسيم، فأجاب، وذكر جوابه في عشر صفحات؛ قال في آخرها:

«وقد حرَّرنا هٰذه المباحث في كتابنا المنظوم وشرحه في فنِّ المنطق، ثم طلب منا بعض العلماء أن نتكلم لهم على المصالح المرسلة، وعلى دليل المالكية على الاستدلال بها، وكان جوابُنا أن قُلْنا لهُم»[3].

وذكر الجواب في ست صفحات، ثم قال (رحمه الله):

«ثم طلب منا بعض صفوف طلبة العلم بالمعهد الديني في (أم درمان) أن نلقي عليهم درساً شافياً بأسلوب واضح في أنواع المجاز والاستعارة يتبيَّن به صحة تقسيم المجاز والاستعارة ويتَّضح به حد كل قسم

---

(١) «الرحلة» (ص ١٥١).

(٢) «الرحلة» (ص ١٥٧).

(٣) «الرحلة» (ص ١٧٤ و١٧٥).

من تلك الأقسام، فكان جوابنا أنه لما كانت الاستعارة قسماً من أقسام المجاز، نتكلم أولاً على أقسام المجاز بغاية الإيضاح، ثم على أقسام الاستعارة كذلك»[1].

فتكلَّم على ذلك في سبع وخمسين صفحة، ثم قال:

«ثم سألنا بعض طلبة العلم: هل عثرنا على نصٍّ من كتاب أو سنة يفهم منه وجود دولة لليهود في آخر الزمن؟ فكان جوابنا»[2].

وذكر الجواب في ست صفحات، وقد تضمن شرحاً واضحاً للفرق بين دلالات الإشارة والاقتضاء والإيماء والتنبيه، وتضمن ذكر ما يدل على العداوة والبغضاء بين فرق اليهود بناء على طلب السائل، وبين فرق النصارى استطراداً من الشيخ (رحمه الله)، ثم قال:

«ثم سألنا بعض طلبة العلم عن الحديث الثابت في قتال المسلمين مع الترك، وطلب منا أن نبيِّن له اشتقاق (المطرَّقة) في قوله ﷺ في الحديث المذكور: «كأنَّ وجوهَهُمُ المَجانُّ المُطَرَّقة»، فكان جوابنا أن قلنا له»[3].

وذكر الجواب في صفحتين، ثم قال:

«ثم لم تزل المذاكرة دائرة بيننا وبين علماء المعهد الديني في (أم درمان) حتى جاء ذكر الضيافة والإحسان إلى الضيف، وقوله ﷺ: «مَن كان يؤمِنُ باللهِ واليوم الآخر؛ فليُكْرِمْ ضيْفَهُ»، وذكروا أن الشعراء ربَّما هجوا على

---

(١) «الرحلة» (ص ١٨١).

(٢) «الرحلة» (ص ٢٣٨).

(٣) «الرحلة» (ص ٢٤٥).

عدم القِرى، فذكرت لهم نبذاً من هِجاء الشعراء من لم يقدم إليهم الضيافة، وأنهم ربَّما هجوا على قلة المقدَّم إليهم؛ كما قال بعض الأدباء:

أَبو جَعْفَرٍ رَجُلٌ عالِمٌ ... بِما يُصْلِحُ المِعْدَةَ الفاسِدَهْ
تَخَوَّفَ تُخْمَةَ أَضْيافِهِ ... فَعَوَّدَهُمْ أَكْلَةً واحِدَهْ

ولما ذكرت لهم بهٰذه المناسبة بيتي الأديب أحمد بن عبدالله البوحسني الشنقيطي المعروف بـ(الذئب)، وقد استضاف قوماً فلم يضيفوه:

ماتَ الغَداءُ لَدَيْنا أَهْلَ ذَا الأُفُقِ ... والخَطْبُ سَهْلٌ إذا كانَ العَشاءُ بَقِي
ولَسْتُ أَحْسَبُهُ يَبْقَى وقَدْ زَعَمَتْ ... عُوَّادُهُ أَنَّه في آخِرِ الرَّمَقِ

فضحكوا، ثم سألني صديقي النحوي الكبير ذو الشمائل الطيِّبة أحد أساتذة المعهد المذكور الأستاذ الشيخ إبراهيم يعقوب، فقال لي: أأنت شاعر أم لا؟ فقلتُ: أما بالجِبلَّة والطبيعة؛ فنعم، وأما من حيث التوصل بالشعر إلى الأغراض والأكل به من الملوك والأمراء؛ فلا، فألحَّ عليَّ أن أسمعه من شيء كنتُ قلتُه من الشعر فيما مضى، فأخبرتُه أن عهدي بنسج القريض أيام الصبا، وأكثر ما جرى على لساني منه الغزل في عنفوان الشباب، وربما قلتُ مقطَّعات في طلب العلم أيام الاشتغال به، وأني لما عزمت على أن لا أقول شعراً قلتُ أبياتاً في ذٰلك مقتضاها أن مقاصد الشعراء ليست لي بمقاصد، فطلب مني الشيخ المذكور بإلحاح أن أُسمِعَه هٰذه الأبيات وبعض ما قلت في طلب العلم وطرفاً من الغزل أيام الصبا، فأسعفتُه بما طلب، ففرح بما سمع هو والحاضِرون من مشايخ المعهد فرحاً بان أثره في وجوههم، والأبيات التي قلت في أن مقاصد الشعراء ليست لي

بمقاصد هي هٰذه. . . ».

وذكر الأبيات، ثم قال:

«فهٰذه هي الأبيات التي كنتُ قلتُها في هٰذا المقصد، وقد ضممتُ إليها بعد ذٰلك أبياتاً في بحرِها ورَوِيِّها في شأن زيارة أخينا وابن عمنا باشا تاردانت، وهو محمد البيضاوي باشا، حيث زارنا في بلادنا من مسافة بعيدة جدّاً، ولم ييسر الله الاجتماع والملاقاة حتى رجع إلى محله، فضممنا الأبيات للأبيات المذكورة في شأن التأسف على فوات فرصة الملاقاة، وكتبنا الجميع إليه»[1].

ثم ذكر قصيدته التي قالها في شأن انشغاله بطلب العلم عن الزواج أيام شبابه ـ وقد سبق نقلها ـ، وذكر قصيدته التي قالها مدافعاً عن نفسه حينما اتُّهِم بأنه دسَّ شعراً لرجل يدافع به عن نفسه ممَّن هجاه، وذكر ما دار بينه وبين بعض أقرانه من الماهرين في النحو حين اعترض عليه بخطإ نحويٍّ في قصيدته، حيث ردَّ عليه، وذكر أبياتاً مما قال في الغزل، ثم قال:

«ثم سألني بعض أساتذة المعهد الديني بـ (أم درمان) ممَّن له مشاركة جيدة في فن المنطق عن كيفيَّة رد الله جلَّ وعلا على اليهود في قولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ بقوله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾؛ فإن قولَه: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ يتضمن أن موسى بشر، وأنه أُنزل عليه كتاب هو التوراة، فإذا قلت: موسى بشر، موسى أنزل

---

(١) «الرحلة» (ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨).

عليه كتاب؛ كان هٰذا على صورة قياس اقتراني من الشكل الثالث، يُنْتج: بعض البشر أنزل عليه كتاب، وهٰذه النتيجة ـ التي هي: بعض البشر أنزل عليه كتاب ـ جزئية موجبة، وقد تقرر عندهم أن الموجبة الجزئية هي نقيض السالبة الكلية، وقضية اليهود ـ التي هي قولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ ـ سالبة كلية، يتحقَّق نقضُها وإبطالُها بجزئية موجبة، هي نزول كتاب على بعض البشر الذي هو موسى؛ لإقرارهم بذٰلك؛ قال: فإن قولنا: موسى بشر، موسى أنزل عليه كتاب، هٰذا ينتج من الشكل الثالث: بعض البشر أنزل عليه كتاب؛ إنتاجاً لا شكَّ في صحته، مع أن المقدمتين شخصيتان، والمقرر عندهم في الشكل الثالث أنه يشترط لإنتاجه كلية كبراه، فكيف ينتج هٰذا الشكل الثالث وليست كبراه كلية؟ فكان جوابنا أن قلنا له»[1].

وذكر الجواب، ثم قال:

«ثم لما عزمنا على السفر من (أم درمان)؛ اجتمع بنا الأخ الفاضل ذو الأخلاق الطيبة والشمائل الحسنة السيد محمد صالح الشنقيطي رئيس اللجنة بالسودان، فأحسن إلينا، وأكرمنا غاية الإكرام، وجمع بيننا وبين السيد عبدالرحمٰن المهدي، فعزّيناه في ولد ولده كان متوفى عند ملاقاتنا، ففرح بلقائنا، وأظهر لنا البشر والإكرام، وأهدى لنا هدية سنية، وشيَّعنا محمد صالح المذكور في سيارته الخاصة، وأخذ لنا ولجميع مَن معنا تذاكر السفر في قطار الحديد، وسافرنا فيه من تلك الليلة في العشر الأواسط من

---

(١) «الرحلة» (ص ٢٥٣).

ذي القعدة من سنة سبع وستين وثلاث مئة وألف، فسرنا فيه متوجهين تلقاء (سواكن)، فبتنا دونها، وجئناها من الغد وقت المقيل، فنزلنا في خيم مبنية للحجاج، وأخذنا جوازات السفر إلى الحجاز، وما توصلنا إلى أخذها حتى تعبنا من الزحام في المركز؛ لكثرة الحجاج المزدحمين لأخذ الجوازات، وكان بواب المركز يدخل قبلنا كثيراً من أخلاط الناس من أسود وأحمر، ونحن جئنا قبلهم، فذكرني ذلك قول عصام بن عبيد الزماني:

أَدْخَلْتَ قَبْلِيَ قَوْمَاً لَمْ يَكُنْ لَهُمُ ... فِي الحَقِّ أَنْ يَدْخُلُوا الأبْوابَ قُدَّامِي

ثم بعد لأيٍ تحصَّلنا على أخذ الجوازات والتذاكر بعد أن سلمنا الرسوم المقررة، ثم مكثنا في محلِّ النظر في صحة الحجاج ثلاثة أيام، ثم ركبنا في السفينة متوجهين إلى جدة، فمكثت السفينة بنا يوماً وليلة في البحر، ثم نزلنا من الغد في جدة، فنزلنا في بيت لآل جمجوم عمومي لنزول أهل قطرنا، فمكثنا ليلتين في جدة، ولم نجتمع بأحد من أهلها، لكن اجتمعنا برجل سوداني موظف في بعض الشركات في جدة اسمه أحمد بكري، فأحسن إلينا، وحملنا إلى مكة المكرمة بواسطة رجل طيب من موظفي إدارة الحج اسمه سامي كتبي، فركبنا من جدة بعد صلاة المغرب محرمين ملبِّين تلبية النبي ﷺ: «لبَّيك اللهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وكان إحرامنا بالحج مفرداً، وإنما أحرمنا إفراداً من غير تمتُّع ولا قران؛ لأن الإفراد في مذهبنا أفضل من التمتُّع والقران، وأفضلية الإفراد ـ التي هي مذهبنا معاشر المالكية ـ قال بها مالك وأصحابه، وذلك هو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو قول عمر بن الخطاب وعثمان وعلي

وابن مسعود وابن عمر وجابر وعائشة والأوزاعي وأبي ثور وداود»[1].

ثم ذكر جواز الأنساك الثلاثة، ومَن قال بأفضيلة كل نوع، وذكر أدلة تفضيل الإفراد في اثنتي عشرة صفحة، وذكر دخوله مكة، وما قاله من الأذكار، ثم توجهه لمنى يوم التروية، ووصف حجه، ثم قال:

«ثم إنا في يوم عرفة بقرب مسجد نَمِرة مررنا مصادفة من غير قصد على خيمة من خيام الحجيج فيها الأميران الساميان اللَّذان هما أخوان، وهو الأمير السامي تركي أمير أبها السديري، والأمير السامي أخوه خالد السديري أمير تبوك، فجلسنا قليلاً في ظل الضحى من خيمتهم ننتظر رفقتنا، فآوونا، وأكرمونا غاية الإكرام، وأظهروا السرور بالمعارفة معنا، وتذاكرنا معهم مذاكرة أدبية، وسألنا الأمير خالد المذكور عن معنى قول جرير في شعره:

ومَسْحهم صُلْبَهُم رحمٰن قُرْبانا

فقلنا له: هٰذا البيت من قصيدة لجرير يهجو بها الأخطل التغلبي وقومه يعيِّرهم بدين النصرانية... وذكرنا له القصيدة، ومعنى البيت، وإعراب الكلمة، والقصيدة هي هٰذه».

وذكر القصيدة ـ وهي اثنان وسبعون بيتاً ـ وشرح البيت المذكور في ثلاث صفحات، ثم قال:

«ثم في أيامنا في مكة المكرمة، بعد قضاء مناسك الحج، دعانا العالم الشهير واللوذعي الكبير أحد أعيان علماء مكة المكرمة ومدرس

(١) «الرحلة» (ص ٢٥٤ و٢٥٥).

حرمها الشريف ذو العلوم والشمائل الطيِّبة والظرافة التامَّة، الأستاذ الشيخ علوي مالكي يومين متفرقين للغداء عنده، ففرح بنا، وأكرمنا غاية الإكرام، وأظهر السرور بالتعارف معنا (جازاه الله خيراً)، وأنسنا بحديثه لملحه وظرافته وعلمه، وكان من ظرفه وكرمه وإظهاره لنا المنزلة العليا ـ وإن كنا لسنا أهلاً لذلك ـ أنا لما قابلنا شعاع الشمس من كوة؛ تَمثَّل قولَ الشاعر:

والشَّمْسُ لا يَنْبَغِي أَنْ تُدْرِكَ القَمَرا

فتمثلنا قول الشاعر:

يُراعِي الشَّمْسَ أَنَّى قابَلَتْنا فَيَحْجُبُها ويأْذَنُ للنَّسِيمِ

وكان في مجلسنا بعض الأذكياء من طلبة العلم من أهل بلادنا، ومن جملة الحاضرين الشريفان صاحبا العلم والفضائل محمد والمصطفى ابنا سيدي محمد بن سيد جعفر، ومن جملة ما دار في المذاكرة أن بعض الناس انتقد على إمامنا مالك (رحمه الله) قوله: إن السرقة إذا شهد عليها رجل وامرأتان ثبت الغرم وانتفى القطع؛ لأن السرقة علة لكل من الغرم والقطع، فإذا ثبتت ثبتا معاً، وإذا لم تثبت لم يثبت واحد منهما، فأي وجه لقول مالك بثبوت أحدهما دون الآخر؟ وأي وجه للفرق بين مسألة السرقة هٰذه وبين شهادة الرجل والمرأتين على أداء نجوم الكتابة أو على بيع الأمة من زوجها، أو بيع الرقيق ممَّن يعتق عليه؛ فإن الرجل والمرأتين إذا شهدوا على أداء المكاتب نجوم الكتابة صحت شهادتهم؛ لأنها بمال، وإن ترتب عليها عتق المكاتب بأداء آخر نجم منها، وكذلك شهادة الرجل والمرأتين على بيع الأمة من زوجها، فهي صحيحة؛ لأنها بمال، ولو ترتب عليها فسخ النكاح، وكذلك شهادتهم على بيع العبد ممَّن يعتق عليه، فهي صحيحة، ولو ترتَّب

عليها العتق، والسرقة قالوا فيها بثبوت الغرم دون القطع، وفي كلا الموضعين شهادة بما يتعلق بالأموال والأبدان، فأي وجه للفرق بين ما ذكر؟ فقال لي السيد علوي المذكور: ما تقول في دفع هٰذا الاعتراض، فقلتُ له»[1].

وذكر الجواب في صفحتين، ثم قال:

«ثم سافرنا من مكة المكرمة بعد أن اعتمرنا من التنعيم، وطفنا وقت السفر طواف الوداع، ودعونا الله ألا يجعل ذٰلك آخر عهدنا ببيته الحرام، فنزلنا جدة في البيت الذي نزلنا فيه أول نزولنا بجدة من الباخرة، وبتنا في جدة ليلة واحدة، وسافرنا منها بعد صلاة العصر متوجهين إلى المدينة، فركبنا في سيارة ومالكها معنا فيها، وهو يحفظ القرآن العظيم، وعرض علينا في الطريق أجزاء عديدة من القرآن، ولا بأس بقراءته وحفظه، وقد ضاع علينا اسمه قبل تقييده، فوقفت بنا قليلاً بعد المغرب في محطة اسمها (ذهبان)، ثم مرت بنا على محطة اسمها (تول)، ووقفت فيها قليلاً، ثم سارت بنا، فقدمنا على البلد المعروف بـ (رابغ)، فسألتهم عن موضع يسمى (عزور)؛ هل يعرفونه؟ فأخبرني بعض أهل رابغ أنه معروف عندهم الآن، ويقولون له باللسان الدارجي: (عزوره)، وأراني حرة زعم أنها عند الموضع المذكور.

وسبب سؤالي عن (عزور) المذكور أني تذكرته بسبب ذكر عمر بن أبي ربيعة المخزومي له غير بعيد من رابغ في شعره حيث يقول:

---

(١) «الرحلة» (ص ٢٧٧ و٢٧٨).

فلمَّـا أَجَـزْنَا الميلَ مِنْ بَطْنِ رابِغٍ بَدَتْ نَارُهـا قَمْـراءَ للمُـتَـنَـوِّرِ
ولمَّـا أَضـاءَ الفَجْـرُ عَنَّـا بَدَا لَنـا ذُرَى النَّخْلِ والقَصْرُ الَّذي دُونَ عزور

ووجدنا في رابغ غالب الطعام الموجود لحم السمك، ثم ذهبنا في تلك الليلة من رابغ وبعد ظرف قليل من الزمن، صعدت بنا السيارة جبلاً عبـدت فيه الـطريق للسيارات فقال لنا صاحب السيارة هٰذا الجبل اسمه هرشى فتذكرت قول الشاعر، وتمثلت به:

حَذا بَطْنَ هرشى أَو قَفَـاهـا فإِنَّـهُ كِلا جَانِـبَـيْ هرشـى لهُـنَّ طَرِيقُ

وأخبرتهم أنه يروى عن بدوي من الأعراب أنه قرأ سورة ﴿إذا زُلْزِلَتْ﴾: (فمَن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره)، فقالوا له: قدمت المؤخر وأخرت المقدم، فقال لهم:

حَذا بَطْنَ هرشى أَو قَفَـاهـا فإِنَّـهُ كِلا جَانِـبَـيْ هرشـى لهُـنَّ طَرِيقُ

يعني: أن تقديم ﴿فمَن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وتأخيره سواء، وإنما قال ذٰلك لجهله وجفائه.

ثم عرسنا آخر الليل بين جبال كثيرة، وأخذنا هجعة لنستريح، فما استيقظنا حتى اتَّضحَ الصبح، فتوضأنا، وصلينا الرغيبة، وفرض الفجر، وركبنا، ومررنا بمحطات متعددة، وما مكثنا في شيء منها، حتى ارتفعت الشمس، وتمكَّن وقت الضحى، فجئنـا محطة تسمى (مسيجيد)، فقلنا فيها، وصلينا فيها الظهر والعصر، وركبنا منها بعد صلاة العصر، ومررنا قبل وقت المغرب بمحطة تسمى (الفريش)، وما وقفنا فيها، وصلينا المغرب في خلاء من الأرض، ولما كنا غير بعيد من ذي الحُليفة ـ وهو المعروف الآن بـ (آبـار علي) ـ؛ حصل للسيارة عائق منعها من السير حتى تمكن وقت

صلاة العشاء، ثم خلصت منه، فركبنا فيها، فقدمت بنا المدينة المنورة بعد صلاة العشـاء، ووقفت بنـا في منـاخة المدينة المعروفة، فوجدنا الحرم النبوي قد غلقت أبوابه، وانصرف الناس عنه على العادة من إغلاقه بعد صلاة العشاء إلى آخر الليل، فنزلنا عند أخينا الأستاذ الشيخ محمد عبدالله بن آد، فتلقانا بالبشر والترحيب والسرور، ولم ندرك ذلك اليوم صلاة الصبح مع الجماعة؛ لأنا لم نستيقظ من شدة تعب السفر، حتى ضاق الوقت، فصلينـا الرغيبة وفرض الصبح في محلنا؛ لضيق الوقت، ثم لما ارتفعت الشمس وحل النفل؛ ذهبنا إلى الحرم النبوي»[1].

ثم ذكر دخوله من باب الرحمة، والأذكار التي قالها عند الدخول، وختم الرحلة بذلك.

□□□□□

(١) «الرحلة» (ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢).

الفصل الثالث
جهودُه (رحمه الله) في الدعوة ونشر العلم بعد استقراره بالمملكة

□ **سبب استقراره (رحمه الله) بالمملكة:**

خرج الشيخ (رحمه الله) من بلاده لأداء فريضة الحج، وعلى نية العودة، وكان سفره برّاً، ومرَّ في رحلته ببلاد كثيرة، ونشر علمه في كثير مما مر به من البلاد كما سبق، وكان ذٰلك عام ١٣٦٧هـ.

وقد ألَّف في وصف رحلته كتاباً سيأتي ذكره في ذكر مصنَّفاته في المملكة.

وبعد وصوله إلى هٰذه البلاد؛ تجدَّدت نية بقائه، وسبب ذٰلك أنه مرَّ من غير قصد في يوم عرفة بقرب مسجد نمرة على خيمة فيها الأميران تركي السديري أمير أبها، وخالد السديري أمير تبوك.

قال الشيخ: «فجلسنا قليلاً في ظل الضحى من خيمتهم ننتظر رفقتنا، فآوونا، وأكرمونا غاية الإكرام، وأظهروا السرور بالمعارفة معنا، وتذاكرنا معهم مذاكرة أدبية»[1].

---

(١) «الرحلة» (ص ٢٧٠).

قال الشيخ عطية: «فوجدوا بحراً لا ساحل له، ومن تلك الجلسة وذاك المنـزل تعدَّلت الفكرة، بل كانت تلك الخيمة بداية منطلق لفكرة جديدة، وأوصـاه الأمير إن هو قدم المـدينـة أن يلتقي بالشيخين الشيخ عبدالله الزاحم (رحمه الله) والشيخ عبدالعزيز بن صالح (حفظه الله)، وفي المدينة التقى بهما (رحمه الله)، وكان صريحاً معهما فيما يسمع عن البـلاد، وكان الشيخ يسمع الدعاية ضد هٰذه البلاد باسم الوهّابية، وكانا حكيمين فيما يعرضان عليه ما عليه أهل هٰذه البلاد من مذهب في الفقه ومنهج في العقيدة، وكان أكثرهما مباحثة معه فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن صالح.

وأخيراً قدَّم للشيخ كتاب «المغني» كأصل للمذهب، وبعض كتب شيخ الإسلام كمنهج للعقيدة، فقرأها الشيخ، وتعدّدت اللقاءات، وطالت الجلسـات، فوجـد الشيخ مذهباً معلوماً لإمام جليل من أئمة أهل السنة وسلف الأمة أحمد بن حنبل (رحمه الله)، كما وجد منهجاً سليماً لعقيدة السلف تعتمـد الكتـاب والسنـة وما كان عليه سلف الأمة، فذهب زيف الدعايات الباطلة، وظهر معدن الحقيقة الصحيحة، وتوطّدت العلاقة بين الطرفين، وتجدّدت رغبة متبادلة في بقائه لإفادة المسلمين، ورغب (رحمه الله) في هٰذا الجوار الكريم، وكان يقول: ليس من عمل أعظم من تفسير كتـاب الله في مسجـد رسول الله ﷺ، وتمَّ ذٰلك بأمر من جلالة الملك عبدالعزيز (رحمه الله)، وكان الشيخان أقرب الناس إليه»[1].

---

(١) «الترجمة» (ص ٣٦ و٣٧).

□ **جهوده (رحمه الله) في التدريس ونشر العلم:**

وقد ختم القرآن في تفسيره بالمسجد النبوي مرتين[1]، وتوفي ولما يكمل الثالثة.

وحدثني الشيخ حماد الأنصاري أنه لازم درسه في التفسير في الحرم عامي ١٣٦٩ و١٣٧٠هـ، وكان الدرس في بدايته يومياً على مدار العام، ثم صار مقتصراً على الإجازة الصيفية من عام ١٣٧١هـ، حيث كان يدرس في كلية الشريعة واللغة بالرياض، ويأتي في الصيف إلى المدينة، واستمر كذلك إلى عام ١٣٨١هـ، حيث صار الشيخ مدرساً بالجامعة الإسلامية، وقد أخبرني الشيخ محمد ولد سيدي ولد الحبيب أنه لازم درسه بالمسجد شعبان ورمضان وشوال من عام ١٣٧٤هـ، وأول درس حضره في شعبان في تفسير قوله تعالى: ﴿وإِذ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المُؤمِنينَ مَقاعِدَ للقِتالِ﴾ من سورة آل عمران.

ومن عام ١٣٨٥هـ كان درس الشيخ مقصوراً على شهر رمضان، ويكمل في كل عام من حيث وقف في العام قبله، حدثني بذلك الشيخ محمد الخضر.

وقال الشيخ عطية في وصف منهجه في درسه: «من المعلوم أن التفسير لا ينحصر في موضوع، فهو شامل عامٌّ بشمول القرآن وعمومه، فكان المنهج أولاً بيان المفردات، ثم الإعراب والتصريف، ثم البلاغة، مع إيراد الشواهد على ما يورد، ثم يأتي إلى الأحكام إن كان موضوع الآية

---

(١) انظر: «الترجمة» (ص٤٠).

فقهـاً، فيستقصي باستنتاج الحكم وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له، ويدعم ذٰلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن؛ من عام وخاص، ومطلق ومقيَّد، وناسخ ومنسوخ، وأسباب ونزول... وغير ذٰلك، وإذا كانت الآية في قصص؛ أظهـر العبر من القصة، وبيَّن تاريخها، وقد يربط الحاضر بالماضي؛ كربط تكشُّف النساء اليوم بفتنة إبليس لحواء في الجنة ﴿يَنْزِعُ عنهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما﴾، وفتنته للجاهلية حتى طافوا بالبيت عرايا رجـالاً ونسـاءً، وها هو يستدرجهن في التكشف شيئاً فشيئاً، بدأ بكشف الوجه، ثم الرأس، ثم الذراعين... إلخ، فكان أسلوباً علميّاً وتربويّاً في آن واحد، كما كان أحكاماً وحِكماً، وكان درسه أشبه بحديقة غناء، احتوت أشهى الثمار وأجمل الأزهار، في تنسيق الغرس وجمال الجداول، تشرح الصدر، وتشفي القلب، وتروق للعين، فيستفيد منه جميع الناس، ويأخذ كل واحد ما طاب له وما وسعه، وقد يستطرد للقاعدة بمبحث كامل، كما استطرد في الرد على ابن حزم في ردِّه القياس بإتيانه بأنواعه عند قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقد طبع في نهاية «مذكرة الأصول» تعميماً للفائدة.

ولهٰذا الشمول والاستقصاء لم يكن يترك مجالاً لسؤال ولم يبق لذي حاجـة تسـاؤل... فكان نفعه (رحمه الله) في المسجد النبوي للمقيم والقادم للقاصي والداني نفعاً عظيماً»[1].

وقال الشيخ عبدالله أحمد قادري مبيناً أن لتفسير الشيخ ثلاث حالات:

---

(١) «الترجمة» (ص ٤٠ - ٤٢).

«**الحالة الأولى**: الإسهاب والتوسع، وهٰذا كان يحصل في المسجد النبوي في شهر رمضان من كل عام، حيث كان يجلس من بعد صلاة العصر، ويجتمع حوله الناس على اختلاف طبقاتهم، فيفسر القرآن الكريم إلى أذان المغرب، وقد كانت بعض الكلمات تأخذ منه محاضرة كاملة، بل محاضرتين، وكان كل الناس يستفيدون منه، كل واحد بقدر علمه وثقافته، ويستفيد عامة الناس بما يذكره من آداب متعلقة بالآيات، وله أشرطة تمثل ذٰلك في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة»[1].

ثم ذكر **الحالة الثانية**، وأنها التوسط، وعدم الإطالة أو الاقتضاب الشديد، وهٰذا دأبه في الدرس في الفصل.

والحالة الثالثة: الاقتضاب الشديد، ويلجأ إليها في آخر السنة الدراسية، عندما يرى أنه لا يمكن إكمال المنهج بأسلوب الحالة الثانية.

وقد تولَّى (رحمه الله) تدريس التفسير في دار العلوم بالمدينة عام **١٣٦٩** و**١٣٧٠**هـ[2] إلى أن انتقل إلى الرياض عام **١٣٧١**هـ لتدريس التفسير والأصول بالمعهد العلمي وكليتي الشريعة واللغة، وظل هناك عشر سنين، واستفاد منه خلق لا يُحْصَوْن كثرة في الدراسة النظامية وغيرها[3].

فمن ذٰلك أن المدرِّسين رغبوا في قراءة بعض كتب شيخ الإسلام ابن تيمية واستيعاب دقائقه، فخصَّص لهم الشيخ مجلساً في صحن المعهد

---

(١) مقدمة كتاب «معارج الصعود إلى تفسير سورة هود» (ص ١٤)، وهو من جمع الدكتور عبدالله قادري لكلام الشيخ (رحمه الله) في تفسير السورة في الفصل الدراسي.

(٢) حدثني بذٰلك الشيخ حمَّاد الأنصاري.

(٣) انظر: «الترجمة» (ص ٤٢).

بـ (دخنه) بين المغرب والعشاء[1].

ومن ذٰلك أنه بدأ يدرس الأصول لكبار الطلبة في مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم (رحمه الله)، وكان يتوافد إليه الطلاب من أطراف الرياض[2].

ومن ذٰلك أنه أقام درساً خاصّاً لنجباء الطلبة وخواصهم في بيته في الأصول، وذٰلك بعد صلاة العصر[2].

هٰذا إلى جانب طلابه من أقاربه وغيرهم الذين رافقوه للدراسة عليه وسكنوا معه بيته، ولم يكن معه أبناؤه، حيث كان يتركهم بالمدينة، وكان بيته (رحمه الله) كمدرسة لهٰؤلاء الذين رافقوه للدراسة عليه[2].

وفيه أملى شرحاً على «مراقي السعود» على الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي؛ كما سيأتي ذكره في مؤلفاته (إن شاء الله).

قال الشيخ عطية (حفظه الله): «ولقد كان لتدريسه هٰذا سواء رسميّاً في المعهد والكليتين، أو في المسجد، أو في المنزل؛ كان له أثر طيب ونتائج حسنة لا يسع متحدث التحدث عنها بقدر ما تحدثت هي عن نفسها في أعمال كافة المتخرجين من تلك المعاهد والكليتين المنتشرين في أنحاء المملكة المبرزين في أعمالهم... ولا يغالي من يقول: إن كل من تخرَّج أو يتخرَّج؛ فهو إما تلميذ له أو لتلاميذه، فهم بمثابة أبنائه وأحفاده وكفى»[3].

---

(١) انظر: «الترجمة» (ص ٤٤).

(٢) انظر: «الترجمة» (ص ٤٥).

(٣) انظر: «الترجمة» (ص ٤٥ و٤٦).

وقد بقي الشيخ (رحمه الله) بالرياض عشر سنين يعود إلى المدينة صيف كل عام، حتى فتحت الجامعة الإسلامية عام ١٣٨١هـ، وبذلك انتقل دور الشيخ (رحمه الله) في نشر العلم والتربية عليه من الإطار المحلي حيث كان في الرياض إلى الإطار العالمي، حيث إن الهدف الأساسي لإنشاء الجامعة الإسلامية تعليم غير السعوديين الذين وفدوا إلى هٰذه البلاد من شتى أقطار العالم.

واستمر الشيخ يدرِّس بالجامعة الإسلامية التفسير والأصول اثنا عشر عاماً، حيث توفي عام ١٣٩٣هـ، ودرس بها أيضاً آداب البحث والمناظرة، وتعاقب في الدراسة عليه في قاعات الدراسة في هٰذه الفترة أعدادٌ كثيرة تفرَّقوا بعد تخرجهم في بقاع شتى من الأرض.

وقد كان بجانب تدريسه بالجامعة عضواً في مجلس الجامعة، ساهم في سيرها ومناهجها، كما ساهم في إنتاجها وتعليمها»[1].

«وفي عام ١٣٨٦هـ افتتح معهد القضاء العالي بالرياض، وكانت الدراسة فيه ابتداء على نظام استقدام الأساتذة الزائرين، فكان (رحمه الله) ممَّن يذهب لإلقاء المحاضرات المطلوبة في التفسير والأصول»[1].

وفي يوم ٨/ ٧/ ١٣٩١هـ صدر أمر ملكي برقم (أ / ١٣٧) بتكوين (هيئة كبار العلماء)[2]، وبنفس التاريخ صدر أمر ملكي برقم (أ/ ١٣٨) بتعيين المشايخ الذين تتألف منهم هيئة كبار العلماء، وعددهم سبعة عشر

---

(١) انظر: «الترجمة» (ص ٤٨).

(٢) انظر: «نظام ولائحة سير العمل في هيئة كبار العلماء»، ط. مطبعة الحكومة، عام ١٣٩٤هـ، (ص ٣).

عالماً، وكان الشيخ (رحمه الله) أحدهم[1].

قال الشيخ عطية: «وقد ترأس إحدى دوراتها، فكانت له السياسة الرشيدة والنتائج الحميدة، سمعت فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن صالح (حفظه الله) ـ وهو عضو فيها ـ يقول: ما رأيت قبله أحسن إدارة منه، مع بعد نظر في الأمور، وحسن تدبُّر للعواقب»[2].

وكان (رحمه الله) مع كل ما سبق عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، لم يقلَّ نفعه فيها عن نفعه في غيرها، فقد كان مسدَّداً حيثما وجد.

ولم يقتصر نشاطه على داخل المملكة، بل تعداه إلى خارجها، ففي عام ١٣٨٥هـ سافر على رأس بعثة الجامعة إلى عشر دول إسلامية، بدأت بالسودان وانتهت بموريتانيا موطن الشيخ (رحمه الله)، وبرفقته الشيخ عطية محمد سالم والشيخ محمد أمان والسيد الأمين بن المامي الجكني الشنقيطي، واستمرت الجولة أكثر من شهرين كما حدثني بخبرها الشيخ محمد الخضر.

قال الشيخ عطية (حفظه الله): «وكان له العديد من المحاضرات والمحادثات سجلت كلها في أشرطة لا تزال محفوظة، آمل أن أوفق لنقلها وطبعها إتماماً للفائدة (إن شاء الله)»[3].

وبعد؛ فهذه هي أبرز أنشطة الشيخ (رحمه الله) في الدعوة ونشر

---

(١) المصدر السابق (ص ٧).

(٢) «الترجمة» (ص ٥٠).

(٣) «الترجمة» (ص ٤٩).

العلم، ولئن كنت أوجزتها في صفحات محدودة؛ فإن للقارىء أن يتصور أن ما يكتب في سطرين أو ثلاثـة يمكن أن يكلف جهداً متواصلاً خلال عشرين سنة أو تزيد.

وأسأل الله العظيم أن يجزي الشيخ خير ما يجزي الدعاة الصادقين والعلماء العاملين آمين.

وقد كان للشيخ ميدان آخر في نشر العلم غير ما سبق، ألا وهو ميدان التأليف، فإلى ذكر مؤلفاته (رحمه الله).

□ مصنفاته (رحمه الله) بعد وصوله إلى هٰذه البلاد:

سبق أن ذكرت مصنفاته (رحمه الله) في بلاده، وهي أربعة: نظم في أنساب العرب، ونظم في فروع مالك، ومنه نظم في الفرائض، وألفية في المنطق.

أما مصنفاته في هٰذه البلاد؛ فهي كما يلي:

أولاً: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز»:

وهي رسالة تقع في اثنتين وستين صفحة، وطبعت في الجزء العاشر من «أضواء البيان»، ألفها لما رأى جل أهل هٰذا الزمان يقولون بجواز المجاز في القـرآن، ولم يتنبَّهـوا إلى أن القول فيه بالمجاز ذريعة لنفي كثير من صفات الكمال والجلال[1].

وقد رتبه على: مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة:

---

(١) مقدمة رسالة «منع جواز المجاز» (ج ١٠) من «الأضواء».

ـ المقدمة في ذكر الخلاف في وقوع المجاز في أصل اللغة، وأنه لا يجوز في القرآن على كلا القولين.

ـ الفصل الأول: في بيان أنه لا يلزم من جواز الشيء في اللغة جوازه في القرآن، وذكر أمثلة لذلك.

ـ الفصل الثاني: في الجواب عن آيات زعموا أنها من المجاز؛ نحو: ﴿جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾... الآية.

ـ الفصل الثالث: في الأجوبة على إشكالات تتعلَّق بنفي المجاز ونفي بعض الحقائق، ويشتمل على أمور لها تعلق بالموضوع.

ـ الفصل الرابع: في تحقيق المقام في آيات الصفات مع نفي المجاز عنها.

ـ الخاتمة: في وجه مناظرة النافي لبعض الصفات بالطرق الجدلية[1].

لاصة أدلة خ على نفيه جاز]

وأدلة الشيخ على ما ذهب إليه من نفي المجاز تتلخَّص فيما يلي:

١ ـ قال الشيخ (رحمه الله): «وأوضح دليل على منعه في القرآن إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه ويكون نافيه صادقاً في نفس الأمر، فتقول لمن قال: رأيت أسداً يرمي: ليس هو بأسد، وإنما هو رجل شجاع، فيلزم على القول بأن في القرآن مجازاً: أن في القرآن ما يجوز نفيه، ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن، وهٰذا اللزوم اليقيني الواقع بين القول بالمجاز في القرآن وبين جواز نفي بعض القرآن قد

(١) «منع جواز المجاز» (ص ٤ و٥).

شوهدت في الخارج صحته، وأنه كان ذريعة إلى نفي كثير من صفات الكمال والجلال الثابتة لله في القرآن العظيم»[1].

٢ ـ افترض مناظراً يستدل بجواز المجاز في اللغة على جوازه في القرآن، وراح يردُّ عليه بكثرة وقوع الأشياء المستحسنة في اللغة عند البيانيين كاستحسان المجاز، وهي ممنوعة في القرآن بلا نزاع، وشرع يذكر أمثلة كثيرة على كلامه، وهٰذا بعد التسليم الجدلي منه (رحمه الله) بجواز المجاز في اللغة، وإلا فهو يرجح منعه فيها أصلاً[2].

٣ ـ افترض مناظراً يقول: إن ما تسمونه أسلوباً عربيّاً ونسمِّيه مجازاً يجوز نفيه على قولكم كما جاز نفيه على قولنا فيلزم المحذور قولكم كما لزم قولنا، ثم أجاب عنه بالمنع من ذٰلك[3].

ولأن هٰذه الرسالة تعرضت لنفي أمر تضافر جمهور أهل العلم من المتأخرين على إثباته؛ فقد تعرضت للنقد.

ومن أبرز الناقدين لها والذين تصدَّوا للرد على الشيخ فيما قرره فيها الدكتور عبدالعظيم المطعني في كتاب له سماه «المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع»، يقع في مجلدين، مجموع صفحاتهما سبع وأربعون ومئة وألف صفحة، خصَّص منها للرد على الشيخ في رسالته هٰذه إحدى وثلاثين صفحة[4].

---

(١) «منع جواز المجاز» (ص ٨ و٩).

(٢) من (ص ١٠ ـ ٣٢).

(٣) من (ص ٤٠ ـ ٥٣).

(٤) من (ص ١٠٠٩ ـ ١٠٤٠).

وقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام: الأول: المجوِّزون للمجاز، والثاني: المانعون منه، والثالث: نظرات جامعة في التجويز والمنع.

وقد خصَّص للرد على الشيخ (رحمه الله) المبحث الثالث من القسم الثاني، ويتلخَّص تعقُّبه على الشيخ فيما يلي:

[خلاصة رد الدكتور المطعني على الشيخ في المجاز]

١ ـ أنه لم يأت بجديد، بل تابع ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وردَّد ما ردَّدا؛ لذا كان من المسلم عند الدكتور أن يضرب عنه صفحاً لولا خشيته أن يظنَّ ظانٌّ أنه ما تركه إلا لقوة حجته، وحتى تكون الدراسة وافية أو قريبة من الوفاء بموضوعها، وتكون قد أحاطت بجميع أطراف النزاع قديمها وحديثها[1].

٢ ـ ردَّ ما نسبه الشيخ إلى أبي إسحاق الإسفراييني وأبي علي الفارسي متابعاً لابن السبكي في ذلك، وكذلك ما نسبه إلى ابن خويزمنداد من المالكية وابن القاص من الشافعية من قولهم بنفي المجاز[2].

٣ ـ نقد قول الشيخ (رحمه الله) عن منع جواز المجاز: «ويلزم قبوله كل منصف»، وقوله عنه: «وهو الحق»؛ أي: القول بالمنع[3].

٤ ـ نقد حكاية الشيخ إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه ويكون نافيه صادقاً في نفس الأمر، حيث نفى الدكتور هٰذا الإجماع عند البيانيين، وقال: «فالذين قالوا هٰذا هم الأصوليون في سردهم

---

(١) انظر: «المجاز في اللغة والقرآن» (٢ / ١٠٠٨).

(٢) انظر: «المجاز في اللغة والقرآن» (٢ / ١٠١٠).

(٣) انظر: (٢ / ١٠١١).

لأمارات المجاز، والأصوليون لا يؤخذ عنهم درس المجاز؛ لأن لهٰذا الفن رجالاً وفرساناً آخرين هم علماء البلاغة والبيان»[1]، وزعم أن الشيخ أهمل تفسير الأصوليين لهٰذه الجملة رغم اطلاعه عليه.

٥ ـ نقد قول الشيخ (رحمه الله): «ولا شيء من القرآن يجوز نفيه»؛ بأنه لم يحدِّد المراد بالنفي[2].

٦ ـ زعم أن الشيخ قال: «إن القرآن ممنوع وقوع المجاز فيه بلا نزاع»، وراح يرد عليه[3].

٧ ـ تعقَّب رد الشيخ على مقولة «كل ما جاز في اللغة جاز في القرآن»؛ بأنها لم تثبت عند مجوِّزي المجاز، وبأنها لا صلة لها بإثبات المجاز في القرآن أو نفيه عنه[4].

٨ ـ قال الدكتور: «وقد تخيل الشيخ أنّه بهٰذا الاستدلال أبو عذرة منع كثير من الفنون البلاغية من ورودها في القرآن؛ مثل: الرجوع، وحسن التعليل، وبعض أنواع المبالغة... إلخ»[2]، ثم قال بعد أن ردَّ ذٰلك: «فما الجديد الذي أتى به الشيخ؟»[5].

٩ ـ الرد على الفصل الثاني من رسالة الشيخ، والذي خصَّصه

---

(١) «المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع» (٢ / ١٠١٢).
(٢) انظر: (٢ / ١٠١٣ و١٠١٤).
(٣) انظر: (٢ / ١٠١٦).
(٤) انظر: (٢ / ١٠١٥ و١٠١٦).
(٥) انظر: (٢ / ١٠١٦).

للجواب عن آيات زعموا أنها من المجاز[1].

١٠ ـ الزعم بأن وصف الشيخ ما يطلق عليه البيانيون والأصوليون المجاز بأنه أسلوب عربي إنما يفيد لو كان القائلون بالمجاز يقولون: إنه أعجمي وليس بعربي[2].

١١ ـ ادِّعاؤه التناقض بين مذهب الشيخ الجدلي النظري الذي أنكر فيه المجاز وبين سلوكه العملي، حيث مارس فيه شيئاً من المجاز، وأنه قرأ «أضواء البيان» في أجزائه العشرة، وظفر بالكثير من التأويلات المجازية الواردة في حر كلامه[3].

هٰذه خلاصة رد الدكتور المطعني على الشيخ (رحمه الله)، ولي على بعضها تعقُّب أجمله فيما يلي:

[تعقبات على الدكتور المطعني]

التعقيب الأول: نقد الدكتور قول الشيخ (رحمه الله) عن منع المجاز في القرآن: «ويلزم قبوله كل منصف محقق»، وعن منعه في اللغة: «هو الحق»؛ بقوله:

«إن هاتين العبارتين لم يُقِم الشيخ الشنقيطي ولا أحد قبله من مانعي المجاز دليلاً واحداً صحيحاً يلزم منه الإلزام والقبول، أو يجعله حقيقاً بأنه الحق، فهما دعويان لم يؤيدهما دليل، ولو أن الشيخ الشنقيطي تتبَّع كل ما قاله الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم؛ لما سوَّلت نفسه أن يقطع بالحقية

---

(١) انظر: (٢ / ١٠١٧ ـ ١٠٢٤).

(٢) انظر: (٢ / ١٠٢٤ و١٠٢٥).

(٣) انظر: (٢ / ١٠٢٦ ـ ١٠٤٠).

والإلزام»[1].

وأقول: قال الدكتور المطعني في آخر كتابه بعد أن قرر أنه «لا حظر ولا خطر من وقوعه في القرآن إلا الآيات التي تتحدَّث عن الأسماء والصفات»[2]، وقال: «فلنحظره في كلمات الأسماء والصفات؛ لأن تأويلها مجازيّاً يؤدي إلى التعطيل، ولنطلق سراح المجاز فيما لا يؤدي فيه التأويل إلى تعطيل في أساليب اللغة كلها، وفي سائر آيات الكتاب؛ إلا ما كان منه اسماً من أسماء الله الحسنى، أو صفة من صفاته القدسية، وهٰذا هو الحق الذي يجب أن يُصار إليه؛ لوجاهة السبب المفضي إليه، ونبل الغاية الداعية إليه»[2].

ولا أرى كبير فرق بين عبارة الشيخ وعبارة الدكتور: «وهٰذا هو الحق الذي يجب أن يُصار إليه»؛ لأن نفاة المجاز يرون أن أدلة المجازيين غير صحيحة، وكذٰلك مثبتوه في الأسماء والصفات يرفضون حكم الدكتور ويرون أنه لم يُقِم عليه دليلاً صحيحاً.

التعقيب الثاني: قال الدكتور: «فقد غالى (عفا الله عنه) ـ يعني الشيخ ـ في تصوير المسألة، وقال: إن القرآن ممنوع وقوع المجاز فيه بلا نزاع، فإذا كان المنع بلا نزاع؛ فلماذا وضع هو رسالته «منع جواز المجاز...»؟ وعلى مَن يرد فيها؟ وقارىء هٰذه الدراسة يعلم علم اليقين أن علماء الأمة أطبقوا على وقوع المجاز في القرآن، ولم يشذ منهم إلا القليل، فكيف يستقيم قول الشيخ (عفا الله عنه) أن منع وقوع المجاز في

(١) «المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع» (٢ / ١٠١١).

(٢) «المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع» (٢ / ١١٤٢).

القرآن لا نزاع فيه؟!»[1]

وأقول: لم يقل الشيخ ذٰلك، بل قال: «والدليل على صدق الجزئية السالبة[2] التي نقضنا بها كليته الموجبة: كثرة وقوع الأشياء المستحسنة في اللغة عند البيانيين؛ كاستحسان المجاز، وهي ممنوعة من القرآن بلا نزاع»[3].

وهٰذا هو ما اعتمده الدكتور في عزوه للشيخ ذٰلك القول، ولا أرى له فيها متمسَّكاً، إذ لا يفهم ذٰلك من كلام الشيخ لا من قريب ولا من بعيد.

التعقيب الثالث: قال الدكتور تحت عنوان (ولكن هل سلم الشيخ من المجاز؟): «عرفنا مذهب الشيخ الشنقيطي في المجاز، وأنه من أشد أهل العصر إنكاراً له، لا في القرآن وحده، بل وفي اللغة كذٰلك... فهل يا ترى سلم الشيخ من المجـاز في حر كلامـه، فطابق مذهبُـه العملي السلوكي مذهبَه الجدلي النظري الذي تقدم، فيكون الرجل وفيّاً بمذهبه في الإنكار؟ أم أنه لم يسلم من القول بالمجاز في حر كلامه، فكان مثل الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم له مذهبان: أحدهما: جدلي نظري أنكر فيه المجاز، وثانيهما: سلوكي عملي مارس فيه شيئاً من المجاز؟

الـواقـع أن الشيخ (رحمه الله) مثل الإمامين، له نفس المذهبين

---

(١) «المجاز في اللغة والقرآن» (٢ / ١٠١٦).

(٢) قال الدكتور (٢ / ١٠١٥) موضحاً ذٰلك عندما نقله عن الشيخ: «يشير إلى قضية احتج بها هو، وهي: (بعض ما يجوز في اللغة العربية لا يجوز في القرآن)، والتي نقض بها الكلية الموجبة، وهي: (كل ما جاز في اللغة العربية؛ جاز في القرآن)».

(٣) «منع جواز المجاز» (ص ١١).

اللَّذين لهما، مع فارق واحد:

فقد استدللنا على مذهبي الإمامين بنوعين من الأدلة: أحدهما: التأويلات المجازية، وثانيهما: ورود المجاز صريحاً بلفظه ومعناه في حر كلامهما...

أما الشيخ الشنقيطي رحمه الله؛ فدليلنا على مذهبه السلوكي العملي نوع واحد، هو كثرة التأويلات المجازية في حر كلامه، فقد قرأنا كتابه «أضواء البيان» في أجزائه العشرة[1]، وظفرنا بالكثير من التأويلات المجازية الواردة في حر كلامه»[2].

ثم شرع يذكر أمثلة من «الأضواء» تدل في نظر الدكتور على أن الشيخ استعمل المجاز العقلي: المجاز اللغوي المرسل، والمجاز اللغوي الاستعاري[2].

وجواباً لكلام الدكتور أقول: يبدو أن الدكتور لم يطَّلع على ما كتبه الشيخ (رحمه الله) في «رحلة الحج...»، حيث قال:

«ثم طلب منا بعض صفوف طلبة العلم بالمعهد الديني في (أم درمان) أن نلقي عليهم درساً شافياً بأسلوب واضح في أنواع المجاز والاستعارة، يتبيَّن به صحة تقسيم المجاز والاستعارة، ويتَّضح به حد كل

---

(١) وهم الدكتور، فـ«الأضواء» التي كتبها الشيخ سبعة أجزاء فقط، أما الثامن والتاسع؛ فمن تأليف الشيخ عطية سالم، وأما العاشر؛ فليس فيه من «الأضواء» شيء، وإن كتب على غلافه «أضواء البيان»، بل فيه: «دفع إيهام الاضطراب»، و«منع جواز المجاز»، و«ترجمة الشيخ» بقلم تلميذه عطية سالم.

(٢) «المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع» (٢ / ١٠٢٥ ـ ١٠٢٦).

قسم من تلك الأقسام، فكان جوابنا أنه لما كانت الاستعارة قسماً من أقسام المجـاز؛ نتكلم أولاً على أقسام المجاز بغاية الإيضاح، ثم على أقسام الاستعارة كذلك»[1].

ثم شرع في توضيح ذلك، فسود به سبعاً وخمسين صفحة[2].

فلو ظفر الدكتور بذلك؛ لكان دليله على مذهب الشيخ السلوكي العملي نوعان؛ كدليله على مذهب ابن تيمية وابن القيم.

ولكن إذا علمنا أن فحول العلماء تتغير آراؤهم في المسألة الواحدة بتغيير الزمن؛ فإن ذلك لا يجدي شيئاً، فالمتأخر هو المعتمَد، وما قرره الشيخ في «الرحلة» كتبه عام ١٣٦٧هـ، أما ما قرَّره في رسالته؛ فقد كتبه في الرياض بعد استقراره بها.

أما ما ذكره الدكتور من الأمثلة في أربع عشرة صفحة[3]؛ فليس في شيء منهـا ما يدل على مناقضة مذهب الشيخ السلوكي العملي لمذهبه الجدلي النظري، بل لم يرد ذكر لفظ المجاز إلا في مثالين منها فقط:

أحدهما: قول الشيخ (رحمه الله): «ومن هنا قال بعض العلماء: لفظ النكـاح مشتـرك بين العقـد والجماع، وقال بعضهم: هو حقيقة في

---

(١) «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام» (ص ١٨١)، وقد طبع كتاب «الرحلة» عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، وكتـاب الدكتور فرغ منه في ٥/ ٣/ ١٤٠٦هـ، ومدة تأليفه ثلاث سنوات أو تزيد، وانظر: (٢ / ١١٤٦، ٢ / ١١٤٠)؛ أي: شرع فيه بعد صدور كتاب «الرحلة».

(٢) من (ص ١٨١) إلى (ص ٢٣٨).

(٣) من (ص ١٠٢٧ ـ ١٠٤٠).

الجماع مجاز في العقد؛ لأنه سببه، وقال بعضهم بالعكس»[1].

وعلق عليه الدكتور بقوله: «وعلى كل؛ فالمجاز هنا وارد في كلام الشيخ بلفظه ومعناه في سياق يشعِر بإقراره للمجاز، ولا تشمُّ منه أية رائحة للإنكار»[2]!

أما أنا فلا أشم من السياق أية رائحة للإقرار، وحتى تعلم إنكاره للمجاز في هٰذا المثال اقرأ ما سأنقله عن الشيخ في الشاهد التاسع من شواهد معارضتي لدعوى الدكتور.

الثاني: قوله (رحمه الله) وهو يقرِّر أن المسح قد يأتي بمعنى الغسل: «وليس من حمل المشترك على معنييه، ولا من حمل اللفظ على حقيقته ومجازه»[3].

علَّق عليه الدكتور بقوله: «فهٰذا اعتراف منه بالمجاز»[4].

ولا أرى فيه اعترافاً؛ لأن نفي الشيء لا يدلُّ على إمكان وقوعه كما هو معلوم.

أما بقية الأمثلة؛ فلم يرد فيها للمجاز ذكر، والجواب عن إلزام الدكتور الشيخ بها هو ما قاله الشيخ (رحمه الله) في رسالته، حيث قال:

---

(١) «الأضواء» (١ / ٣١٥)، وقد نقله الدكتور بمعناه وأشار إلى نفس الجزء والصفحة.

(٢) «المجاز في اللغة والقرآن» في (٢ / ١٠٣٢).

(٣) «الأضواء» (٢ / ١١٤)، وذكره الدكتور في (٢ / ١٠٤٠).

(٤) «المجاز» (٢ / ١٠٤٠).

«وكـل ما يسميه القائلون بالمجاز مجازاً؛ فهو عند من يقول بنفي المجاز أسلوب من أساليب اللغة العربية»[1].

وأمـا على سبيـل معـارضة[2] دعوى الدكتور؛ فأقول: إن مذهب الشيخ العملي لم يناقض ما قرَّره في رسالته، بل هو موافق له كل الموافقة، وإليك الشواهد من «الأضواء»:

١ ـ في تفسير قولـه تعـالى في سورة النسـاء: ﴿وتَـرْغَبـونَ أَنْ تَنْكِحُـوهُنَّ﴾: بعد أن ذكر أن التحقيق أن الحرف المحذوف هو (عن)؛ أي: ترغبون عن نكاحهن؛ لقلة مالهن وجمالهن؛ قال:

«وقال بعض العلماء: الحرف المحذوف هو (في)؛ أي: ترغبون في نكاحهن إن كن متَّصفات بالجمال وكثرة المال، مع أنكم لا تقسطون فيهن، والـذين قالوا بالمجاز واختلفوا في جواز حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معاً أجازوا ذٰلك في المجاز العقلي؛ كقولك: أغناني زيد وعطاؤه، فإسنـاد الإغناء إلى زيد حقيقة عقلية، وإسناده إلى العطاء مجاز عقليٌّ، فجاز جمعها، وكذٰلك إسناد الإفتاء إلى الله حقيقي، وإسناده إلى ما يُتْلى

---

(١) «منع جواز المجاز» (ص ٦).

(٢) قال الشيخ (رحمه الله) في «آداب البحث والمناظرة» (٢ / ٦٠): «واعلم أن المعارضة في الاصطلاح هي إقامة الخصم الدليل المنتج نقيض الدعوى التي استدل عليها خصمه وأثبتها بدليله، أو المنتج ما يساوي نقيضها، أو ما هو أخص من نقيضها؛ لأن إقامته الدَّليل المنتج أحد الأمور الثلاثة يلزمه إبطال دعوى خصمه؛ لأنه إن ثبت نقيضها أو مساوي نقيضهـا أو أخص من نقيضهـا بدليل المعـارض؛ فقد تحقَّق بطلانها؛ لاستحالة اجتماع النقيضين، واستحالة اجتماع الشيء ومساوي نقيضه، واستحالة اجتماع الشيء والأخص من نقيضه؛ كما تقدَّم إيضاحه» انتهى.

مجاز عقلي عندهم؛ لأنه سببه، فيجوز جمعهما»[1].

فتراه يقول: «والذين قالوا بالمجاز»، ويقول: «عندهم».

٢ ـ قال (رحمه الله تعالى): «وفي هٰذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف أوقع الإذاقة على اللباس في قوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ...﴾ الآية»... إلى أن قال:

«قال مقيده (عفا الله عنه): والجواب عن هٰذا السؤال ظاهر، وهو أنه أطلق اسم اللباس على ما أصابهم من الجوع والخوف؛ لأن آثار الجوع والخوف تظهر على أبدانهم وتحيط بها كاللباس، ومن حيث وجدانهم ذٰلك اللباس المعبَّر به عن آثار الجوع والخوف أوقع عليه الإذاقة، فلا حاجة إلى ما يذكره البيانيون من الاستعارات في هٰذه الآية الكريمة، وقد أوضحنا في رسالتنا التي سميناها «منع جواز المجاز في المنزل للتعبُّد والإعجاز» أنه لا يجوز لأحد أن يقول: إن في القرآن مجازاً، وأوضحنا ذٰلك بأدلته، وبيَّنَّا أن ما يسميه البيانيون مجازاً أنه أسلوب من أساليب اللغة العربية»... ثم ذكر خلاف البيانيين في الآية، ثم قال:

«وقد ألممنا بطرف قليل من كلام البيانيين هنا ليفهم الناظر مرادهم، مع أن التحقيق الذي لا شك فيه أن كل ذٰلك لا فائدة فيه ولا طائل تحته، وأن العرب تطلق الإذاقة على الذوق وعلى غيره من وجود الألم واللذة، وأنها تطلق اللباس على المعروف، وتطلقه على غيره مما فيه معنى اللباس من الاشتمال؛ كقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾»... إلى قوله:

---

(١) «الأضواء» (١ / ٤٢٢).

«وكلها أساليب عربية، ولا إشكال في أنه إذا أطلق اللباس على مؤثر مؤلم يحيط بالشخص إحاطة اللباس؛ فلا مانع من إيقاع الإذاقة على ذٰلك الألم المحيط المعبر عنه باسم اللباس والعلم عند الله تعالى»[1].

ومن الغريب أن هٰذا من الأمثلة التي استدل بها الدكتور على أن الشيخ لم يسلم من القول بالمجاز في حر كلامه[2].

٣ ـ قال الشيخ (رحمه الله تعالى): «. . . وقال الزمخشري: واللام في قوله: ﴿لِتَفْتَرُوا عَلى اللهِ الكَذِبَ﴾ من التعليل الذي لا يتضمَّن معنى الفرض اهـ. وكثير من العلماء يقولون: هي لام العاقبة، والبيانيون يزعمون أن حرف التعليل ـ كاللام ـ إذا لم تقصد به علة غائية؛ كقوله: ﴿فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً. . .﴾ الآية، وقوله هنا: ﴿لِتَفْتَرُوا على اللهِ الكَذِبَ﴾؛ أن في ذٰلك استعارة تبعية في معنى الحرف.

قال مقيده (عفا الله عنه): بل كل ذٰلك من أساليب اللغة العربية، فمن أساليبها الإتيان بحرف التعليل للدلالة على العلة الغائية؛ كقوله: ﴿وأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسَ بالقِسْطِ. . .﴾ الآية، ومن أساليبها الإتيان باللام للدِّلالة على ترتب أمر على أمر؛ كترتب المعلول على علته الغائية، وهٰذا الأخير كقوله: ﴿فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً﴾؛ لأنَّ العلة الغائية الباعثة لهم على التقاطه ليست هي أن يكون لهم عدوّاً، بل ليكون لهم قرة عين؛ كما قالت امرأة فرعون: ﴿قُرَّةُ عينٍ لي ولكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾، ولٰكن لما كان كونه عدوّاً لهم

(١) «الأضواء» (٣ / ٣٧٨ و٣٧٩ و٣٨٠).

(٢) انظر: (٢ / ١٠٣٦ ـ ١٠٣٨).

وحزناً يترتَّب على التقاطهم له كترتُّب المعلول على علته الغائية؛ عبّر فيه باللام الدالة على ترتيب المعلول على العلة، وهٰذا أسلوب عربي، فلا حاجة إلى ما يطيل به البيانيون في مثل هٰذا المبحث»[1].

٤ ـ قال (رحمه الله): «وقوله في هٰذه الآية الكريمة: ﴿حجاباً مَسْتُوراً﴾؛ قال بعض العلماء: هو من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل؛ أي: حجاباً ساتراً، وقد يقع عكسه؛ كقوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾؛ أي: مدفوق، ﴿عِيْشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ أي: مرضية، فإطلاق كل من اسم الفاعل واسم المفعول وإرادة الآخر أسلوب من أساليب اللغة العربية، والبيانيون يسمون مثل ذٰلك الإطلاق مجازاً عقليّاً»[2]... إلخ.

وهٰذا من أمثلة الدكتور على تناقض مذهبي الشيخ النظري والعملي[3]!!

٥ ـ عند قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا فيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ من سورة الكهف؛ ناقش أهل المجاز مناقشة علمية، وختمها بقوله:

«وقد بيَّنَّا في رسالتنا المسماة «منع جواز المجاز في المنزل للتعبُّد والإعجاز» أن جميع الآيات التي يزعمون أنها مجاز أن ذٰلك لا يتعيَّن في شيء منها، وبيَّنَّا أدلة ذٰلك، والعلم عند الله تعالى»[4].

فأين التناقض بين ما قرره هنا وما قرره هناك؟!

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٣٨١ ـ ٣٨٢).

(٢) «الأضواء» (٣ / ٥٩٦)، وانظر أيضاً: (٣ / ١٠٠، ٣ / ٤٨٥).

(٣) انظر: (٢ / ١٠٢٨ و١٠٢٩).

(٤) «الأضواء» (٤ / ١٧٨).

٦ ـ قولـه (رحمه الله) عند قوله تعالى من سورة مريم: ﴿واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ بعد أن نقل كلام الزمخشري عليها وأنها استعارة ما نصه:

«والظاهر عندنا ـ كما بينا مراراً ـ أن مثل هٰذا التعبير عن انتشار بياض الشيب في الرأس باشتعال الرأس شيباً أسلوب من أساليب اللغة العربية الفصحى جاء القرآن به، ومنه قول الشاعر:

ضَيَّعْتُ حَزْمِيَ في إبْعادِيَ الأمَلا ... ومـا ارْعَـوَيْتُ وشَيْباً رَأْسِيَ اشْتَعَلا

ومن هٰذا القبيل قول ابن دريد في مقصورته:

واشْـتَـعَـلَ المُبْيَضُّ في مُسْـوَدِّهِ ... مِثْـلَ اشْتِعال النَّارِ في جزل الغَضا»[1]

٧ ـ عند قوله تعالى: ﴿ولأصَلِّبَنَّكُمْ في جُذوعِ النَّخْلِ﴾ من سورة ﴿طه﴾؛ قال بعد أن بيَّن أن تعدية التصليب بـ (في) أسلوب عربي معروف ما نصه:

«ومعلوم عند علماء البلاغة أن في مثل هٰذه الآية استعارة تبعية في معنى الحرف، كما سيأتي (إن شاء الله) إيضاح كلامهم في ذٰلك ونحوه في سورة القصص، وقـد أوضحنا في كتابنا المسمى «منع جواز المجاز في المنـزل للتعبُّد والإعجاز» أن ما يسميه البلاغيون من أنواع المجاز مجازاً كلها أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها، وقد بيَّنَّا وجه عدم جواز المجاز في القرآن، وما يترتَّب على ذٰلك من المحذور»[2].

٨ ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿فكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاها وهِيَ ظَالِمَةٌ

---

(١) «الأضواء» (٤ / ٢٠٤ و٢٠٥).

(٢) «الأضواء» (٤ / ٤٧٣ و٤٧٤).

فهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُروشِها . . .﴾؛ قال ما نصه:

«وقد دلت هٰذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن على أن لفظ (القرية) يطلق تارة على نفس الأبنية، وتارة على أهلها الساكنين بها، فالإهلاك في قوله: ﴿أَهْلَكْناها﴾، والظلم في قوله: ﴿وهِيَ ظالِمَةٌ﴾؛ يرادُ به أهلها الساكنون بها، وقوله: ﴿فهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُروشِها﴾؛ يراد به الأبنية؛ كما قال في آية: ﴿واسْأَلِ القَرْيَةَ التي كُنَّا فِيها﴾، وقال في أخرى: ﴿حَتَّى إذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها﴾، وقد بيَّنَّا في رسالتنا المسماة: «منع جواز المجاز في المنزل للتعبُّد والإعجاز» أن ما يسميه البلاغيون مجاز النقص ومجاز الزيادة ليس بمجاز عند جمهور القائلين بالمجاز من الأصوليين، وأقمنا الدليل على ذٰلك»[1].

٩ ـ في أحكام قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلَّا زَانِيَةً أَو مُشْرِكَةً﴾ من سورة النور، ذكر قول الزجاج: «إن النكاح لا يُعْرَفُ في القرآن إلا بمعنى التزويج»، وردَّه من وجهين:

الأول: أن القرآن جاء فيه ذٰلك، وذكر دليله، ثم قال:

«الوجه الثاني: أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم يطلقون النكاح على الوطء، والتحقيق أن النكاح في لغتهم: الوطء؛ قال الجوهري في «صحاحه»: النكاح الوطء، وقد يكون العقد اهـ. وإنما سموا عقد التزويج نكاحاً؛ لأنه سبب النكاح؛ أي: الوطء، وإطلاق المسبب وإرادة سببه معروف في القرآن وفي كلام العرب، وهو ما يسميه القائلون بالمجاز المجاز

---

(١) «الأضواء» (٥ / ٧١٠).

المرسل؛ كما هو معلوم عندهم في محله»[1].

ثم ذكر شواهد لإطلاق العرب النكاح على الوطء، وقال في نهاية المسألة:

«. . . وإذا علمت ذلك؛ فاعلم أن النكاح مشترك بين الوطء والتزويج؛ خلافاً لمَن زعم أنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر؛ كما أشرنا له سابقاً»[2].

١٠ ـ عند قوله تعالى: ﴿لا تَدْخُلوا بُيوتاً غَيْرَ بُيوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وتُسَلِّموا عَلَى أَهْلِها﴾ من سورة النور: بيَّن أن في المراد بالاستئناس وجهين: الأول: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو ضد الاستيحاش، وقال في ضمنه:

«ولما كان الاستئناس لازماً للإذن؛ أطلق اللازم، وأريد ملزومه الذي هو الإذن، وإطلاق اللازم وإرادة الملزوم أسلوب عربي معروف، والقائلون بالمجاز يقولون: إن ذلك من المجاز المرسل. . .»[3] إلخ.

١١ ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وزَفِيراً﴾ من سورة الفرقان؛ قال (رحمه الله):

«مسألة: اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة. . .»، ثم ذكر الآية، ثم قال:

---

(١) «الأضواء» (٦ / ٧٦).

(٢) «الأضواء» (٦ / ٨٢).

(٣) «الأضواء» (٦ / ١٦٧).

«ورؤيتها إياهم من مكان بعيد تدلُّ على حدة بصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلَّم كما صرَّح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزيدٍ﴾، والأحاديث الدالة على ذٰلك كثيرة؛ كحديث محاجَّة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين ونحو ذٰلك، ويكفي في ذٰلك أن الله جل وعلا صرح في هٰذه الآية أنها تراهم، وأن لها تغيُّظاً على الكفار، وأنها تقول: ﴿هَلْ مِنْ مَزيدٍ﴾.

واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر ولا تتكلم ولا تغتاظ، وأن ذٰلك من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذٰلك خزنتها؛ كله باطل، ولا معوَّل عليه؛ لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا.

وقد أجمع مَن يعتدُّ به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه كما هو معلوم في محله»[1].

ثم ذكر أحاديث تؤيد ما قال.

١٢ ـ عند قوله تعالى: ﴿واخْفِضْ جَناحَكَ للمُؤمِنينَ﴾ من سورة الشعراء سوَّد صفحتين في معنى خفض الجناح وإضافته إلى الذل[2]، وقد وعد بذٰلك في سورة الإسراء[3] في الكلام على قوله تعالى: ﴿واخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، وذٰلك نقلاً مِن رسالته «منع جواز المجاز...».

(١) «الأضواء» (٦ / ٢٨٩).

(٢) «الأضواء» (٦ / ٣٨٥ ـ ٣٨٧).

(٣) «الأضواء» (٣ / ٤٩٧).

١٣ ـ عند قوله تعالى: ﴿فالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً﴾ مبحث في أربع صفحات للرد على أهل المجاز، صدَّره بقوله:

«اعلم أن التحقيق (إن شاء الله) أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وحَزَناً﴾ لام التعليل المعروفة بـ (لام كي)، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز. . . ثم أوضح ذلك، ثم قال:

«وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله ﴿ليكون﴾: لام العاقبة والصيرورة؛ خلاف الصواب، وأن ما يقوله البيانيون من أن اللام في قوله ﴿ليكون﴾: فيها استعارة تبعية في متعلق معنى الحرف؛ خلاف الصواب أيضاً»[1].

ثم أوضح مراد البيانيين وختمها بقوله: «وهناك مناقشات في التبعية في معنى الحرف تركناها؛ لأن غرضنا بيان مرادهم بالاستعارة التبعية في هذه الآية بإيجاز، وإذا علمت مرادهم بما ذُكر؛ فاعلم أن التحقيق (إن شاء الله) هو ما قدمنا، وقد أوضحنا في رسالتنا «منع جواز المجاز في المنزل للتعبُّد والإعجاز» أن التحقيق أن القرآن لا مجاز فيه، وأوضحنا ذلك بالأدلة الواضحة»[1].

١٤ ـ عند قوله تعالى: ﴿ويُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾ من سورة غافر؛ قال (رحمه الله): «أطلق جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة الرزق، وأراد المطر؛ لأن المطر سبب الرزق، وإطلاق المسبب وإرادة سببه لشدة الملابسة بينهما أسلوب عربي معروف، وكذلك عكسه الذي هو إطلاق

---

(١) «الأضواء» (٦ / ٤٥١ ـ ٤٥٤)، وانظر أيضاً: (٦ / ٦٠٥ و٦٠٦).

السبب وإرادة المسبب؛ كقوله:

أَكَلْتُ دَمـاً إِنْ لَمْ أَرُعْـكِ بضَـرَّةٍ بَعِيدَةِ مَهْـوَى القِـرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ»

فأطلق الدم وأراد الدية؛ لأنه سببها، وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة «منع جواز المجـاز في المنـزل للتعبد والإعجاز» أن أمثال هٰذا أساليب عربية نطقت بها العرب في لغتها، ونزل بها القرآن، وأن ما يقوله علماء البلاغة من أن في الآية ما يسمونه المجاز المرسل الذي يعدون من علاقاته السببية والمسببية لا داعي إليه ولا دليل عليه يجب الرجوع إليه»[1].

١٥ ـ عند قوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعةِ﴾ من سورة الزخرف؛ قال (رحمه الله) بعد أن بيَّن أن الضمير راجع إلى عيسى:

﴿وإطلاق علم الساعة على نفس عيسى جار على أمرين، كلاهما أسلوب عربي معروف، أحدهما: أن نزول عيسى المذكور لما كان علامة لقربها كانت تلك العلامة سبباً لعلم قربها، فأطلق في الآية المسبب وأريد السبب، وإطلاق السبب وإرادة المسبب أسلوب عربي معروف في القرآن وفي كلام العرب...».

ثم مثل بآية: ﴿وينَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً﴾... ثم قال: «ومعلوم أن البلاغيين ومن وافقهم يزعمون أن مثل ذٰلك من نوع ما يسمونه المجاز المرسل، وأن الملابسة بين السبب والمسبب من علاقات المجاز المرسل عندهم»[2].

ثم ذكر الأمر الثاني.

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٧٥ و٧٦).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٢٦٣ و٢٦٤).

١٦ ـ في آخر كلامه عن حياة عيسى في الآية السابقة؛ قال (رحمه الله): «وقد قدمنا مراراً أنا أوضحنا أن القرآن الكريم لا مجاز فيه على التحقيق في رسالتنا المسماة (منع جواز المجاز في المنزل للتعبُّد والإعجاز)»[١].

هٰذا ما وجدته في «الأضواء»[٢] مما يؤكد ثبات الشيخ (رحمه الله) على رأيه في المجاز إلى وفاته (رحمه الله)، حيث إن آخر مؤلفاته (رحمه الله) الجزء السابع من الأضواء، وقد نقلت منه آنفاً ثلاثة نماذج فيها تصريحه بذٰلك.

ولا بد أن الدكتور قد قرأ جميع النماذج التي سقتها من أكثر أجزاء «الأضواء»؛ لأنه قال: «فقد قرأنا كتابه «أضواء البيان» في أجزائه العشرة، وظفرنا بالكثير من التأويلات المجازية الواردة في حر كلامه»[٣].

التعقيب الرابع: رد الدكتور على قول الشيخ: «وكل ما يسميه القائلون بالمجاز مجازاً؛ فهو عند من يقول بنفي المجاز أسلوب من أساليب اللغة العربية»[٤]؛ بقوله:

«وهٰذا السلوك كان يكون مفيداً في النزاع لو كان القائلون بالمجاز يقولون: إن المجاز أعجمي وليس بعربي»[٥].

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٢٧٥).

(٢) وانظر أيضاً: (١/ ٤٢٢)؛ ففيها ما يُفهم منه ذٰلك، وأيضاً: (٤ / ٣٣٨).

(٣) «المجاز في اللغة والقرآن» (٢ / ١٠٢٦).

(٤) «منع جواز المجاز» (ص ٦)، وانظر: (ص ٣٥ و٣٦ و٣٨ و٤٦).

(٥) «المجاز في اللغة والقرآن» (٢ / ١٠٢٤).

والذي يظهر لي أن ذلك لا يلزم، وأن مقصود الشيخ أن نفاة المجاز يطلقـون على كل ما يسميه المجازيون مجازاً: أسلوباً من أساليب اللغة العـربية التي كلهـا حقائق غير مصروفة عما وُضِعت له أولاً؛ بدليل قوله (رحمه الله) بعد كلامه السابق متصلاً به ما نصه:

«فمن أساليبها إطلاق الأسد مثلاً على الحيوان المفترس المعروف، وأنه ينصرف إليه عند الإطلاق وعدم التقييد بما يدل على أن المراد غيره، ومن أساليبها إطلاقه على الرجل الشجاع إذا اقترن بما يدل على ذلك، ولا مانع من كون أحد الإطلاقين لا يحتاج إلى قيد، والثاني يحتاج إليه؛ لأن بعض الأساليب يتَّضح فيه المقصود، فلا يحتاج إلى قيد، وبعضها لا يتبيَّن المرادُ فيه إلا بقيد يدل عليه، وكل منهما حقيقة في محله، وقس على هٰذا جميع أنواع المجازات»[1]. . . إلخ كلامه.

ولا شك أن الـدكتـور قد قرأ قول الشيخ: «وكل منهما حقيقة في محله»، وهو يعلم أن الحقيقة عند المجازيين نقيض المجاز، فالمجازيون والشيخ على طَرفي نقيض، وليس خلافهم لفظيّاً كما يقول الدكتور[2]، ومما يدل على ذلك قوله (رحمه الله) في «مذكرة أصول الفقه»:

«وقد بيَّنَّا أنه لا ينبغي للمسلم أن يقول: إن في كتاب الله مجازاً، والتحقيق أن اللغة العربية لا مجاز فيها، وإنما هي أساليب عربية تكلمت بجميعها العرب، ولو كلفنا من قال بالوضع للمعنى الحقيقي أولاً ثم للمعنى

---

(١) «منع جواز المجاز» (ص ٦ و٧).

(٢) انظر قوله في: (٢ / ١٠٢٥ ـ ١٠٣٦).

المجازي ثانياً بالدليل على ذٰلك؛ لعجز عن ذٰلك عجزاً لا شك فيه»[1].

وبالجملة؛ فإن تعقُّب الدكتور على رسالة الشيخ فيه تجوُّزات غير قليلة في نسبة الأقوال إليه[2] وفي التشكيك في نسبته ونسبة غيره من العلماء ـ كابن السبكي ـ القول بنفي المجاز إلى بعض الأئمة؛ معتمداً في ذٰلك على ما وجده عن المنسوب إليهم من نصوص أو آثار في المجاز[3].

وأحسب أن هٰذا ليس منهجاً علميّاً في نفي نسبة الأقوال إلى مَن نُسِبت إليهم، لا سيما عندما نعلم أن الأئمة تختلف آراؤهم في المسألة الواحدة باختلاف الزمن، فالإمام أحمد قد يُنقل عنه في المسألة الواحدة سبع روايات فأقل، ومن أسباب ذٰلك اختلاف نتيجة اجتهاده في المسألة، وهناك تجوزات أخرى.

وليس المقام مقام الجواب التفصيلي عن جزئيات ردِّه، وإنما أردت بيان ما يتعلَّق بموقف الشيخ (رحمه الله) من المجاز في كتاب الله، وعدم تناقض مذهبه النظري مع مذهبه العملي التطبيقي، وأرجو أن أكون وُفِّقت لبيان ذٰلك.

وما ذهب إليه الشيخ (رحمه الله) من منع المجاز في القرآن وفي اللغة ذهب إليه ابن تيمية[4] وابن القيم[5] ومن قبلهما أبو إسحاق

---

(١) «المذكرة» (ص ٦٢).

(٢) انظر على سبيل المثال التعقيب الثاني عليه.

(٣) انظر كلامه في ذٰلك في: (٢ / ١٠١٠).

(٤) انظر: «الإيمان» (ص ٨٣ ـ ١١٢).

(٥) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة» الجزء الثاني كاملاً.

الإسفراييني وأبو علي الفارسي[1].

وقال بمنعه في القرآن دون اللغة: ابن خويزمنداد من المالكية، وابن القاص من الشافعية، والظاهرية[2].

وجمهور الخلف على القول بالمجاز في اللغة والقرآن.

وقد أحال الشيخ في «الأضواء» على هٰذه الرسالة مراراً عديدة في أجزاء متفرقة[3] مما يدلُّ على فراغه منها قبل شروعه في «الأضواء».

ثانياً: «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»:

قال في مقدمته بعد الحمد والصلاة: «أما بعد؛ فإن مقيد هٰذه الحروف (عفا الله عنه) أراد أن يبيِّن في هٰذه الرسالة ما تيسر من أوجه الجمع بين الآيات التي يُظَنُّ بها التعارض في القرآن العظيم، مرتباً لها بحسب ترتيب السور، يذكر الجمع بين الآيتين غالباً في محل الأولى منهما، وربما يذكر الجمع عند محل الأخيرة، وربما يكتفي بذكر الجمع

---

(١) «منع جواز المجاز» (ص ٦).

وقال الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص ٢٣): «وقد قيل: إن أبا علي الفارسي قائل بمثل هٰذه المقالة التي قالها الإسفرائيني، وما أظن مثل أبي علي يقول ذٰلك؛ فإنه إمام اللغة العربية الذي لا يخفى على مثله مثل هٰذا الواضح البيِّن الظاهر الجلي».

(٢) «منع جواز المجاز» (ص ٧).

وقال الشوكاني في «الإرشاد» (ص ٢٣): «وقد روي عن الظاهرية نفيه في الكتاب العزيز، وما هٰذا بأول مسائلهم التي جمدوا فيها جموداً يأباه الإنصاف وينكره الفهم ويجحده العقل، وأما ما استُدِل به لهم من أن المجاز كذب؛ لأنه ينفي فيصدق نفيه، وهو باطل؛ لأن الصادق إنما هو نفي الحقيقة؛ فلا ينافي صدق إثبات المجاز».

(٣) «الأضواء» (٣ / ٣٧٨، ٤ / ١٧٩ و٤٧٤، ٥ / ٧١٠، ٦ / ٣٨٥ و٤٥٤).

عند الأولى، وربما يحيل عليه عند محل الأخيرة، ولا سيما إذا كانت السورة ليس فيها مما يُظنُّ تعارضه إلا تلك الآية؛ فإنه لا يترك ذكرها والإحالة على الجمع المتقدم»[1].

وسبب تأليفه ما ذكره الشيخ عطية (وفقه الله) حيث قال: «وقد كان سببه سؤال عند الدرس عن مدى التوفيق بين قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤولونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ مع قوله: ﴿فيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ ولا جَانٌّ﴾، فأجاب (رحمه الله) باستفاضة، وذكر لها أمثلة عديدة، فسألته عن تأليف فيها؟ فقال: لا أعلمه، فكان رجائي منه أن يؤلف فيه لنفع المسلمين، فوعد خيراً، ثم فعل.

وقد تتبع هٰذا النوع في القرآن من أوله إلى آخره.

وهو أيضاً[2] تجربة أولى موفقة، ولو أعيدت كتابته؛ فإن في القرآن بعض مواطن من موضوع الكتاب»[3].

هٰكذا قال الشيخ عطية، ولكنه (وفقه الله) لم يدعم كلامه بالشواهد والأمثلة، ولو مثالاً واحداً.

وقد أحال الشيخ عليه في «الأضواء»، واقتبس منه مراراً تربو على

---

(١) «الأضواء» (١٠ / ٣) مقدمة «دفع إيهام الاضطراب»، وقد ألفه الشيخ (رحمه الله) في خمسة عشر يوماً، وهي ما يسمى إجازة الامتحانات من عام ١٣٧٣هـ؛ كما حدثني الشيخ عطية سالم بذٰلك.

(٢) قوله: «أيضاً»؛ لأنه قال مثل ذٰلك عن «أضواء البيان».

(٣) «الأضواء» (٩ / ٦٩٥ و٦٩٦).

ثمانين مرة في جميع أجزاء «الأضواء»[1]، مما يدلُّ على أنه فرغ من تأليفه قبل الشروع في «أضواء البيان».

وقد طبع في خمسين وثلاث مئة صفحة في أول الجزء العاشر من «الأضواء»، وطبع قبل ذلك مفرداً في نسخ محدودة نفدت، وذلك قبل عام ١٣٧٥هـ، كما سيأتي ما يدلُّ عليه في الكلام على شرحه لـ «المراقي»، ثم أعيد طبعه ولا يزال في آخر «الأضواء».

وهٰذا الكتاب موضع إجلال وتقدير أهل العلم؛ لما حواه من نفائس ودرر ونكت من مسائل العلم لا تكاد توجد مجموعة في غيره.

وعلى الرغم من نفاسة هٰذا الكتاب وعظم قيمته العلمية وإجلال أهل العلم والإيمان له وإفادتهم منه؛ إلا أنه لم يسلم من ناقدٍ؛ لأنه كما قيل: «من ألف فقد استهدف»، فقد وقفت على كتيِّب بعنوان «القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته»، تأليف الأستاذ أحمد محمد جمال، وهو من مطبوعات رابطة العالم الإسلامي ضمن سلسلة دعوة الحق، وهي تصدر مع مطلع كل شهر عربي، وصدر هٰذا الكتاب في رمضان عام ١٤٠٢هـ برقم

---

(١) انظرها في: (٢ / ٢٩٠ و٣٣٢ و٣٣٨ و٤٨٥ و٤٨٦ و٤٨٩ و١٢٧ و١٧٦، ٣ / ٨ و١٤ و٢٠ و٥٠ و٧٨ و٨٠ و١٦٢ و٢٦٤ و٢٦٧ و٣٠٨ و٣٢٩ و٣٥٩ و٤٦٣ و٤٨٤ و٦٣٠، ٤ / ٤٠ و٧٤ و١٣٧ و١٤٣ و١٦١ و٢١٥ و١٤٣ و٣٥٢ و٤٥٨ و٤٨١ و٥٠٥ و٥٢١ و٥٤٩ و٥٦٩، ٥ / ٤٤ و٦٠٥ و٦٩٤ و٧١٧ و٧١٨ و٧٣١ و٧٦٠ و٨٢١ و٨٢٢ و٨٣٠، ٦ / ٩٠ و٩٢ و٢٤٣ و٣١٠ و٣٢٢ و٣٩٩ و٤١٤ و٤٢١ و٤٣٩ و٤٤١ و٥٠٣ و٥٠٤ و٥١٦ و٥٤٥ و٦٧٥، ٧ / ١١٨ و١٥٨ و١٦١ و١٨٩ و٢٢٦ و٢٦٩ و٢٨٦ و٣٣٧ و٤٠٢ و٦٠٤ و٦٤٧ و٦٧٦ و٧٠٩ و٨٩٨).

(١٨) من السلسلة، ويقع في سبع وثمانين ومئة صفحة من الحجم المتوسط، وهو ثلاثة فصول:

الأول: في الرد والتعقُّب على ابن حزم (رحمه الله) في بعض مواضع من رسالته في الناسخ والمنسوخ في القرآن.

والثاني: في الملاحظات والتعليقات والتعقيبات على ما نشر الشيخ الشنقيطي في مجلة الجامعة الإسلامية تحت عنوان «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، وهو موضع الشاهد، وهو من (ص ٨١) إلى (ص ١٢٥) من الرسالة المذكورة.

والثالث: في التعقب على الكتاب المنسوب للعز بن عبدالسلام تحت عنوان «الفوائد في مشكل القرآن»، هٰكذا قال الأستاذ، ثم بين سبب قوله: «المنسوب»؛ في نظره.

والذي يعنينا هو الفصل الثاني، والذي قال في التعليق على آخر كلمة منه: «كتب هٰذا التعقيب في حياة الشيخ الشنقيطي، واطلع عليه (رحمه الله)».

ولي على هٰذا الرد والتعقيب الملاحظات الآتية:

الأولى: قصد المؤلف بهٰذا التعقيب الدفاع عن القرآن؛ «لئلا يفتح الباب لزلزلة أفكار الشباب، وبخاصة في عصرنا الحاضر الذي يفيض بالمبادىء الهدامة والتيارات الملحدة والإيحاءات المفسدة للعقيدة والأخلاق»[1]، ولا يخفى أن هٰذا هو قصد مؤلف الأصل المردود عليه.

ظات على
ت الأستاذ
جال على
«دفع إيهام
لراب»]

---

(١) انظر (ص ٦) من الكتيب المذكور.

الثانية: الرد عبارة عن مقالات في مجلة الحج عام ١٣٩٤هـ، ثم طبع في كتاب، والمردود عليه كتاب ألفه الشيخ عام ١٣٧٣هـ، ثم نشر في مقالات مفرقة في مجلة الجامعة الإسلامية.

الثالثة: لست بصدد التعقُّب التفصيلي على هٰذا الرد، ولكن هناك ملاحظات عامة أجملها فيما يلي:

١ ـ أنصف الأستاذ أحمد جمال حين قال في مستهل كلامه عن الشيخ: «لفضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي (رحمه الله) قدم صدق ويد طولى في تفسير القرآن الكريم، وله كتاب قيم في ذٰلك، وهو «أضواء البيان في علوم القرآن»[1]، وقد سعدت بقراءة مقالاته المتتابعة في مجلة الجامعة، تحت عنوان «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، صال فيه وجال، بعلمه الواسع وفكره الثاقب، وانتفعت بآرائه ونظرياته في التوفيق بين بعض المفهومات القرآنية وبعضها الآخر، وإني لأدعو له حسن الجزاء وجزيل المثوبة»[2].

٢ ـ ولكنه لم ينصف حين قال في تعقُّبه التاسع على الشيخ: «قلت: لا حاجة إلى هٰذا الجواب لدفع ما توهمه الشيخ ومن سبقه من اضطراب في آي الكتاب... وإذا أردنا أن نفهم كتاب الله كما ينبغي له من فهم وعقل وإدراك؛ فلنقرأ آياته ذات الموضوع الواحد جملة واحدة، ولنلاحظ السباق والسياق، فذٰلك معين على الفهم الصحيح، والعقل الرجيح، والإدراك

---

(١) هٰكذا قال الأستاذ، والمعروف أنه «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»؛ كما نصَّ على ذٰلك الشيخ في مقدِّمته.

(٢) الرسالة المذكورة (ص ٨١).

النير»[1].

ولم ينصف أيضاً حين قال في التعقب العاشر: «وليس هناك تعارض ولا اضطراب في آي الكتاب، وإنما هناك الحاجة الماسة عند من يتدبَّر القرآن إلى إدراك بلاغته بين الحقيقة والمجاز»[2].

وحين قال في التعقيب السابع عشر: «لقد شغل الشيخ صفحتين من المجلة بكلام طويل حول ما توهم من اضطراب بين الآيات». . . إلى أن قال: «فلو تدبر الشيخ قوله عز وجل: ﴿فذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾، ﴿وذَكِّرْ فإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤمِنينَ﴾؛ لتبيَّن له أن الثانية تفسر الأولى».

وحين قال في التعقُّب العشرين: «وإذن؛ لماذا يوهم الشيخ وجود اضطراب في آيات الكتاب». . . إلى أن قال: «أليس ذلك افتعالاً للاضطراب والإشكال في آيات القرآن الكريم. . . ثم محاولة دفعه بما هو واضح ومفهوم ومعلوم بالضرورة من قواعد اللغة ومبادىء البلاغة ومجازات الكلام العربي»[3].

وحين قال في نفس التعقُّب: «وبالتالي لا يجوز أن نتوهَّم أو نفتعل الاضطراب والإشكال في آيات القرآن الكريم»[4].

وحين قال في الخاتمة: «. . . وإنما اكتفيت بتقديم نماذج محدودة ومعدودة من توهم الشيخ الاختلاف والتناقض بين بعض ألفاظ القرآن

---

(١) انظر: (ص ٩٨).

(٢) انظر: (ص ١٠٠).

(٣) (ص ١١٩ و١٢٠).

(٤) (ص ١٢١).

ومعانيه، ومحاولة دفعها بما هو موجود في الآيات نفسها. . . إلخ»[1].

وحين قال: «ولقد كنت أود أن يكون الشيخ (رحمه الله) قد وجد أمامه زعمات لأشخاص معيَّنين معادين للإسلام والقرآن أو جاهلين بقواعد اللغة العربية ومبادىء بلاغتها؛ زعمات عن اضطراب أو إشكال في آيات القرآن، فردَّ عليهم، وأوضح لهم ما غمض عليهم، أو كذَّب ما افترَوْه على القرآن، إذن لكان له عذر، بل كان له شكر على دفاعه عن القرآن، أما أن يتوهم هو أو يفتعل الاضطراب في آيات الكتاب وبالتالي يوهمه للمعادين أو الجاهلين ثم يحاول دفعه؛ فهٰذا ما استنكرته وما خفت عواقبه السيئة على عقول قراء هٰذه المقالات من الشباب والطلاب وضعاف الإيمان وقليلي البحث في علوم القرآن ومجالات فهمه وتفسيره»[2].

وحين قال في التعقب الرابع عشر: «ولا حاجة بنا إلى توهُّم المنافاة في الآيات، ثم محاولة دفعها؛ فإن في ذٰلك إيحاء للعامة بأن في القرآن اضطراباً وإشكالاً»[3].

أقول لم ينصف الأستاذ في ذٰلك كله لأمور:

أ ـ لم يتوهم الشيخ، ولم يوهم غيره، ولم يفتعل الاضطراب والإشكال والاختلاف والتناقض بين بعض ألفاظ القرآن ومعانيه، ولم يقصد إلى الإيحاء للعامة بذٰلك، وكيف يتوهم وهو البحر الذي لا ساحل له في معاني القرآن؟! وكيف يوهم أو يفتعل أو يوحي بذٰلك وهو لم يؤلف الكتاب

---

(١) (ص ١٢٤).

(٢) (ص ١٢٥).

(٣) الكتاب نفسه (ص ١٠٧).

إلا مدافعاً عن كتاب الله، دافعاً لوهم الاختلاف والاضطراب فيه، أفنتهمه بنقيض ما قصد؟!

ب ـ يفهم من توجيه الأستاذ للشيخ حين قال: «وإذا أردنا أن نفهم كتاب الله...» إلى قوله: «والإدراك النير»: أن الشيخ لم يفعل ذلك!

وأقول: الشيخ (رحمه الله) قد عمل بمقتضاه حين ألف كتابه «أضواء البيان»، وأجاد في الوفاء بهذا المطلب وتطبيقه.

ج ـ الأستاذ يرى أن الشيخ لا عذر له في نشر ما نشر، فضلاً عن أن يشكر على جهده في دفع وهم الاضطراب، وذلك حين قال: «... إذن لكان له عذر، بل كان له شكر...»!

والذي أراه أنه لم يذنب حتى يعذل، بل أحسن فيجب أن يشكر، قال ﷺ: «مَن لم يشكر الناس؛ لم يشكر الله»[1]، وغاية ما في الأمر أنه ألف كتابه لطلاب العلم وحملة الشرع المناوئين عنه، فذكر فيه كل ما يمكن أن يتعلَّق به متعلِّق لإلقاء الشبه في الكتاب العزيز، ثم بيَّنَ وجه الرد لجميع ما ذكر، فأي ذنب ارتكب؟!

٣ ـ تعقَّب الأستاذ الشيخ في واحد وعشرين موضعاً، وقال في نهايتها:

«وبعد... فإني لم أستوف التعقيب على كل ما كتبه الشيخ محمد الأمين... وإنما اكتفيت بتقديم نماذج محدودة ومعدودة من توهم الشيخ

---

(١) رواه: أحمد، والترمذي، وقال الألباني في «تخريج المشكاة»: «وإسناده صحيح».

الاختلاف والتناقض بين بعض ألفاظ القرآن ومعانيه . . . إلخ»[1].

وكان الخطأ حليفه في أكثر ما أخذه على الشيخ، ولذلك أسباب؛ منها:

أ ـ سوء فهمه لكلام الشيخ الذي يعيبه.

ـ ومن ذلك أن الشيخ قال عن قوله تعالى: ﴿ومِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعْنَابِ تَتَّخِذُونَ منه سَكَراً ورِزْقاً حَسَناً﴾: «منسوخة بآية تحريم الخمر؛ أي: الامتنان الذي تضمنته يدل على إباحة الخمر».

فرد عليه الأستاذ بأن ذكر له تدرج تحريم الخمر قائلاً: «وقد فات الشيخ الشنقيطي أن تحريم الخمر ـ كتحريم الربا ـ جاء في القرآن متدرجاً على أربع مراحل»[2]، ثم سردها في ثلاث صفحات.

والحق أنه لم يفت الشيخ ذلك، بل ذكره وصدره بقوله: «ومعلوم عند العلماء أن الخمر نزلت في شأنها أربع آيات من كتاب الله»[3]، ثم ذكرها مرتبة حسب نزولها.

ورجح الأستاذ عدم النسخ لذلك، ولأن فيها الخبر بواقع الناس واتخاذهم السكر، وقال:

«وهي ـ بهذا الأسلوب الإخباري ـ لا يجوز القول بنسخها؛ لأنه أمر واقع، وحقيقة قائمة، إذ إن ثمرات النخيل والأعناب صالحة أبداً لاتخاذها

---

(١) الكتاب (ص ١٢٤).

(٢) (ص ١١١).

(٣) «دفع الإيهام» من (ج ١٠) من «الأضواء» (ص ١٧٤).

طعاماً حلالاً ولاتخاذها أيضاً شراباً حراماً بعد تخميرها»[1].

وهٰـذا سوء فهم، فالتدرج في التحريم لا يعارض أن يكون الأول منسـوخـاً، فأي جديد أتى به الأستاذ حين سوَّد صفحيتن يذكر لنا فيهما التدرج في تحريم الخمر مع أن الشيخ ذكرها.

ثم إن الشيخ لم يقل بنسخ وقوع اتخاذ السكر، فهو من أعلم الناس بأن الأخبار المحضة لا يدخلها النسخ، ولكن مراد الشيخ (رحمه الله) هو ما ذكره في «الأضواء» عند تفسير آية النحل هٰذه قائلاً:

«فإن قيل: الآية واردة بصيغة الخبر، والأخبار لا يدخلها النسخ كما تقرر في الأصول؛ فالجواب: أن النسخ وارد على ما يُفهم من الآية من إباحة الخمر، والإباحة حكم شرعيٌّ كسائر الأحكام، قابل للنسخ، فليس النسخ وارداً على نفس الخبر، بل على الإباحة المفهومة من الخبر؛ كما حقَّقه ابن العربي المالكي وغيره»[2].

ـ مثال آخر: رأى الأستاذ أن قول الشيخ (رحمه الله): «التحقيق جواز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلفت الألفاظ؛ لأن المغايرة بين الألفاظ ربما كفت في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه»[3]؛ يبطل قوله بلزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه[3].

وليس في هٰذا أي تناقض؛ فهو لم ينف لزوم المغايرة بعد أن أثبته،

---

(١) انظر: (ص ١١٤).

(٢) «الأضواء» (٣ / ٣٠٨ و٣٠٩)، وكلام الشيخ في دفع الإيهام لا يُفهم منه إلا هٰذا.

(٣) انظر: (ص ١١٧).

بل جعل المغايرة بين الألفاظ كاف في المغايرة، وهٰذا واضح.

ب ـ ومن أسبابه أيضاً أن الشيخ أحياناً يذكر عدة أجوبة عما يتوهم فيه التعارض من باب التوسُّع والتسليم الجدلي بعدم صحة بعضها على عادة العلماء في ذٰلك، فيختار الأستاذ بعضها، ويريد منع غيره[1].

ج ـ وأحياناً يأخذ الأستاذ بعض كلام الشيخ في الجمع بين الآيتين، فيرد به على البعض الآخر؛ موهماً القراء أنه من عنده، والحق أن الشيخ قد ذكره، وانظر مثالاً لذٰلك التعقب السابع عشر عند قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾[2]، والتعقُّب السادس عشر في مسألة تحريم الخمر المذكورة آنفاً[3].

د ـ ومن أسبابه أيضاً اختلاف وجهات النظر في طريقة الجمع مع أن كلا القولين محتمل، ولا مانع منه[4].

وأخيراً أقول: إن الأستاذ أصاب في بعض استدراكاته؛ دون أن أقول: إن الشيخ أخطأ فيها، ولست بذٰلك أريد تنزيه الشيخ عن الخطإ، بل إن الجمع بين ما ظاهره التعارض قد يكون بعدة أوجه، فيذكر الشيخ بعضها، ويذكر الأستاذ بعضاً آخر، ويكون ما اختاره الأستاذ أقرب في نظري دون أن أحكم بالخطإ على ما اختاره الشيخ، إذ لا مانع منه عقلاً ولا

---

(١) انظر على سبيل المثال: التعقُّب الحادي والعشرين (ص ١٢٢ ـ ١٢٤).

(٢) (ص ١١٤ و١١٥).

(٣) (ص ١١٠ ـ ١١٢).

(٤) انظر على سبيل المثال: التعقُّب الحادي عشر (ص ١٠٠)، والثاني عشر (ص ١٠٢).

والمثال على ذٰلك هو التعقب الخامس عند الجمع بين قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فيها إِلَّا مَا شاءَ اللهُ﴾ حيث استثنى بعد ذكر الخلود لأهل النار، مع الآيات التي تفيد الخلود الدائم دون استثناء، حيث ذهب الأستاذ إلى أن الاستثناء جاء لتقرير المشيئة الإلٰهية المطلقة... إلخ كلامه، وما ذهب إليه أقرب في نظري مما ذكره الشيخ ناقلاً دون ترجيح.

وأوافق الأستاذ أيضاً في استدراكه على الشيخ إدخال مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ في مادة الكتاب؛ بحجة أن الأولى توهم أن الإنسان ينكر أن ربه خلقه؛ لما تقرّر في فنِّ المعاني من أن خالي الذهن من التردد والإنكار لا يؤكّد له الكلام، والله تعالى أكّد في هٰذه الآية بستة تأكيدات هي: الأقسام الأربعة، واللام، وقد، وهٰذا التوكيد يوهم أن الإنسان منكر، والآية الثانية صريحة في أن الكفار يقرُّون بأن الله هو خالقهم.

وإن كنت أخالف الأستاذ في الأسلوب الذي انتهجه في النقد، وفي استطراده، وألتمس العذر للشيخ بأنه لم يلحظ بإدخال مثل هٰذه الإشكالات وحلها في مادة الكتاب حال طالب العلم الذي يرى تقرير بعض القضايا في علم البلاغة، ثم يرى في كتاب الله ما ظاهره أنه ينقض ما تقرَّر، فيرفع هٰذا الإشكال، وهٰذا كله جرياً على عادته (رحمه الله) في الموسوعية ولمِّ شتات العلم عند الكلام عن المسألة؛ كما هو دأب العلماء بعد تدوين العلوم ونضجها.

وعلى أية حال؛ فلا يزال الكتاب في انتشار، ولا يزال طلبة العلم ينهلون منه ويجدون فيه ما يشفي غليلهم ويحل كثيراً من الإشكالات التي ترد عليهم في كتاب الله، والعصمة لله وحده، وكما قال الشافعي (رحمه الله): «أبى الله أن يتم إلا كتابه».

ويشكر للأستاذ أحمد جمال ذوده عن حياض هٰذا الدين، ولعل الباعث له على ما كتب هو ما أُثِرَ عن السلف (رحمهم الله) من التحذير من عرض الشبه ـ ولو في سياق الرد عليها ـ خشية أن يُشْرَبَها قلوب بعض من يسمعها، وإن كان من طلاب العلم، فقد كان كثير من علماء السلف يمتنعون من سماع الشبه من أصحابها وهم مَنْ هُم في العلم والإيمان وتمام البصيرة وعدم التأثر بتلك الشبه، ولكن لئلا يقتدي بهم في سماعها من لا يستطيع الرد عليها فيضل، ولأسباب أخرى ليس هٰذا موضع بسطها[1].

ثالثاً: «مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر» للعلامة ابن قدامة (رحمه الله):

وضعها الشيخ على «الروضة»؛ تحل إشكالها، وتكشف غموضها، وتجمع شتاتها، وتفصل مجملها، وذٰلك حين أسند إليه تدريس مادة الأصول بكلية الشريعة بالرياض عند افتتاحها عام ١٣٧٤هـ، فأملى هٰذه المذكرة في السنوات الأولى من تدريسه في الرياض، وظل الطلبة يتناقلونها دون أن تطبع لهم، إلى أن تخرجت الدفعة الأولى والثانية والثالثة والرابعة، وحين افتتحت الجامعة الإسلامية عام ١٣٨٠هـ بالمدينة؛ انتقل الشيخ إلى

(١) انظر جملاً ممَّا ورد عنهم في ذٰلك في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للَّالكائي (ت ٤١٨هـ)، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان (١ / ١١٤ ـ ١٥٠).

المدينة، وتولى تدريس المادة في نفس الكتاب، وتناقل الطلبة المذكرة.

وقد شملت هٰذه المذكرة «روضة الناظر» كلها ما عدا المقدمة المنطقية التي افتتح بها المؤلف كتابه، فلم تتعرض هٰذه المذكرة لها، وقد كانت هٰذه المذكرة متناثرة الأطراف لدى الطلاب، لا تكاد توجد مجتمعة عند أحدهم.

قال الشيخ عطية محمد سالم: «وقد لمست فيها من مهام هٰذا الفن وتوجيهات قضاياه ما حملني على جمعها كلها، والعناية بها، وقد رغبت الجامعة الإسلامية في طبعها مكتملة بعد تحقيقها وتدقيقها وتصحيحها على فضيلة المؤلف (حفظه الله)[1]؛ لتكون أثراً من آثارها المجيدة، فكان ذٰلك نعمة متجددة لي بدراستها وإتقانها، وها هي بين يدي الطلاب، آمل أن يجدوا فيها أكثر ما تصبو إليه نفوسهم وتتطلع إليه أفكارهم في هٰذا الفن، مما يمكن أن تغنيهم عن غيرها، ولا يكاد يغني غيرها عنها، ولا سيما في مواطن الترجيح والمباحث العقلية، حيث يجدونها بعيدة عن تعقيد الفلسفة، وخالصة من شوائب السفسطة، ناصعة بنور الحق، على هدى الكتاب والسنة وعقيدة سلف الأمة، يدرسونها مطمئنين، ويتلقونها بيقين؛ لما لفضيلة مؤلفها (حفظه الله) من يد طولى وأثر حميد في هٰذا الفن وما يتصل به من عقائد ونصوص وأحكام وعلوم اللسان والمنطق والبيان، مما يجعل مباحثها وافية شاملة.

ا تمتاز به
ذكرة أصول
ه» وبيان
وعها]

والجدير بالذكر أن الكتاب المقرر «روضة الناظر» متأثر كثيراً بكتاب

(١) قال ذٰلك في حياته؛ لأن الشيخ عطية كتب المقدمة في ١٢/ ٥/ ١٣٩١هـ، ونحن نقول اليوم: «رحمه الله رحمة واسعة».

«المستصفى» للغزالي في أصول الشافعية، وهٰذه المذكرة متأثرة أيضاً بـ «مراقي السعود» في أصول المالكية، وبهٰذا التأثر المزدوج تكون تلك المذكرة مفيدة أصالة في المذاهب الثلاثة: الحنبلي، والشافعي، والمالكي، وفي المذهب الحنفي في مواطن الخلاف حينما تتعرض له»[1].

[قيمة «ا التوثيقية]

ومن هنا جاءت قيمتها التوثيقية في عزو الأقوال إلى أئمة المذاهب، حيث تعاقب عليها ثلاثة من أعلام المذاهب، فالغزالي علم فيه فقه الشافعي، وابن قدامة إمام في الفقه الحنبلي، والشنقيطي حجة في الفقه المالكي، فلا تكاد تجد فيها خطأ في عزو قول إلى أحد هٰذه المذاهب الثلاثة، فقد استدرك الشيخ (رحمه الله) على ابن قدامة عزوه لمذهب مالك ما ليس منه، ومن أمثلة ذٰلك استدراكه على ابن قدامة حين قال:

«فهٰذان الضربان لا نعلم خلافاً في أنه لا يجوز التمسك بهما من غير أصل»[2]؛ يقصد بالضربين: المصلحة المرسلة إن كانت من الحاجيات أو التحسينات.

حيث قال الشيخ (رحمه الله) متعقباً ما نصه: «واعلم أن مالكاً يراعي المصلحة المرسلة في الحاجيات والضروريات كما قرره علماء مذهبه؛ خلافاً لما قاله عنه المؤلف من عدم مراعاتها في الحاجيات»[3].

---

(١) مقدمة «المذكرة» التي كتبها الشيخ عطية (ص ٥ و٦)، وما سبقه من الكلام عن «المذكرة» مستفاد أيضاً من المقدمة نفسها (ص ٤ و٥).

(٢) «روضة الناظر» (١ / ٤١٣ ـ بشرحها نزهة الخاطر).

(٣) «المذكرة» (ص ١٦٩).

ومن أمثلته أيضاً قوله في مبحث الاستصلاح أيضاً ما نصه: «وما ذكره المؤلف (رحمه الله) من أن مالكاً (رحمه الله) أجاز قتل الثلث لإصلاح الثلثين، ذكره الجويني وغيره عن مالك، وهو غير صحيح، ولم يروه عن مالك أحد من أصحابه، ولم يقله مالك كما حققه العلامة محمد بن الحسن البناني في حاشيته على شرح عبدالباقي الزرقاني لـ (مختصر خليل)»[1].

ومن أمثلته أيضاً قوله (رحمه الله): «والتحقيق عن مالك أنه يوافق الجمهور في هٰذه المسألة؛ خلافاً لما ذكره عنه المؤلف»[2].

ومراده بالمسألة ورود لفظ العموم على سبب خاص؛ هل يسقط عمومه أو لا؟ حيث قال ابن قدامة: «وقال مالك وبعض الشافعية: يسقط عمومه... إلخ»[3].

ومن أمثلة توضيحها لما يوهم غير المقصود في «الروضة» قوله (رحمه الله) في مبحث الاستصلاح ما نصه:

«وبهٰذا الإيضاح يظهر لك أن ما يوهمه كلام المؤلف من شمول الاستصلاح لما دل الشرع على اعتباره غير مراد له، لكن المؤلف (رحمه الله) ترجم للاستصلاح الذي هو المصلحة المرسلة، ثم ذكر جميع أنواع المصالح من مرسلة وغيرها، فحصل الإيهام، وقد عرفت التحقيق»[4].

وقد نقحها الشيخ (رحمه الله) من المباحث الكلامية، وبسطها

يحها من
ل الكلامية]

(١) «المذكرة» (ص ١٧٠).

(٢) «المذكرة» (ص ٢١٠).

(٣) «نزهة الخاطر العاطر» (٢ / ١٤١).

(٤) «المذكرة» (ص ١٧٠).

بأسلوب قريب، ونبَّه على بعض المسائل العقدية التي وقع فيها الموفق ابن قدامة من غير قصد.

ومن أمثلة ذٰلك تعقبه له حين قال: «الأمر بالشيء نهي عن ضده من حيث المعنى، فأما الصيغة فلا»[1]، فبعد أن بيَّن الشيخ (رحمه الله) خطأ زعم المتكلمين ومَن وافقهم من الأصوليين أن الأمر بالشيء هو عين النهي عن ضده، وأنه مبنيٌّ على زعمهم الفاسد أن الأمر قسمان: نفسي ولفظي، وأن النفسي هو المعنى القائم بالذات المجرد عن الصيغة، ثم بين وجه فساده، ثم قال:

«ويوضح ذٰلك اشتراطهم في كون الأمر نهياً عن الضد أن يكون الأمر نفسياً؛ يعنون: الخطاب النفسي المجرد عن الصيغة، وجزم ببناء هٰذه المسألة على الكلام النفسي صاحب «الضياء اللامع» وغيره، وقد أشار المؤلف إلى هٰذا بقوله: «من حيث المعنى، وأما الصيغة فلا»، ولم ينتبه لأن هٰذا من المسائل التي فيها النار تحت الرماد؛ لأن أصل هٰذا الكلام مبنيٌّ على زعم باطل، وهو أن كلام الله مجرد المعنى القائم بالذات المجرد عن الحروف والألفاظ؛ لأن هٰذا القول الباطل يقتضي أن ألفاظ كلمات القرآن بحروفها لم يتكلم بها رب السماوات والأرض، وبطلان ذٰلك واضح، وسيأتي له إن شاء الله زيادة إيضاح في مباحث القرآن ومباحث الأمر»[2].

وقد وفى بوعده (رحمه الله)، فزاد المسألة إيضاحاً واستدلالاً في

---

(١) «النزهة» (١ / ١٣٣).

(٢) «المذكرة» (ص ٢٧).

مبحث تعريف كتاب الله[1]، وفي مبحث الأمر[2].

وهناك مسائل خالف فيها الشيخ الشنقيطي ابن قدامة واختار خلاف اختياره؛ مثل ترجيحه نسخ القرآن بالسنة[3]، ومثل مخالفته له في تقسيم ما لا يتم الواجب إلا به[4]، وغيرها، وهي كثيرة.

ولـه تنبيهات على قضايا مهمة يغفلها المؤلف، مع أن فهم كلامه ينبني عليها.

وله أيضاً تنبيهات على بعض التقسيمات يتكلم المؤلف عن بعضها ويترك البعض الآخر، فيتمم الشيخ كلامه عليها.

وعلى أية حال، فمن رجع إليها؛ سيجد فيها الشيء الكثير والعلم الواضح البين بحجة واضحة من كتاب الله أو سنة أو لغة أو ما يستند إليهما بعبارة سهلة واضحة، فهي نموذج لمن أراد أن يعد صياغة جديدة لكتابة علم الأصول.

الشيخ في [

ومما ينبغي لقارئها أن يتنبَّه له هو أن الشيخ لم يلتزم تفسير كلام الموفَّق تفسيراً تحليليّاً كما يفعله الأستاذ لطلابه عندما يشرح لهم متناً هو ملزم ببيانه لهم، إنما طريقته أن يستهل كل فصل بذكر طرف من كلام ابن قدامة، ثم يشرع بذكر حاصل ما ذكره في الفصل، فيلخصه، ويرتبه بعبارة واضحة، ثم يستدرك عليه إن كان ثمة استدراك، أو يرجح خلافه إن كان،

---

(١) «المذكرة» (ص ٥٤).

(٢) «المذكرة» (ص ١٨٨ و١٨٩).

(٣) «المذكرة» (ص ٨٥ ـ ٨٧).

(٤) «المذكرة» (ص ١٤).

أو يستدل له إن ترك المؤلف الاستدلال، أو يتمم التقسيم إن أخل المؤلف بتمامه، وهٰكذا. . .

أقـول: ينـبغي أن يتنبـه لذٰلـك؛ لأن بعض طلبـة العلم يأتي لـ «المذكرة» يريد منها شرح كلمة أو جملة استغلق عليه فهمها من كلام الموفق، فلا يجد ما يشفي غليله في المذكرة، فيظنه قصوراً وليس كذٰلك.

هٰذا وقد طبعت المذكرة في أربعين وثلاث مئة صفحة، وألحق بها مبحث للرد على ابن حزم في نفيه القياس، وهو درس من دروسه (رحمه الله) في المسجد النبوي في رمضان عام ١٣٨٩هـ في تفسير قوله تعالى: ﴿مَـا مَنَعَـكَ أَلَّا تَسْجُـدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، حيث فرغ من الشريط المسجل، وصحَّح عليه، ثم طبع ملحقاً بالمذكرة في عشرين صفحة.

رابعاً: «آداب البحث والمناظرة»:

قال الشيخ (رحمه الله) في مقدمته: «. . . ولما كان من المتوقَّع أن يواجه الدعاة إلى الحق دعاة إلى الباطل مضلِّلون، يجادلون لشبه فلسفية ومقدمات سوفسطائية، وكانوا لشدة تمرنهم على تلك الحجج الباطلة كثيراً ما يظهرون الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، ويفحمون كثيراً من طلبة العلم الذين لم يكن معهم سلاح من العلم يدفع باطلهم بالحق وكان من الواجب على المسلمين أن يتعلموا من العلم ما يتسنى لهم به إبـطال الباطل وإحقاق الحق على الطرق المتعارفة عند عامة الناس، حمل ذٰلك الجامعة على إنشاء كلية الدعوة وأصول الدين، ومهمتها تخريج دعاة قادرين على تبليغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وعلى إفحام وإلـزام الـدعـاة المضلِّلين ببيان ما يصحِّـح أدلتهم ويظهر بطلان حجج

خصومهم، ومن أجل ذٰلك قررت في منهج هٰذه الكلية تدريس مادة آداب البحث والمناظرة؛ لأنه هو العلم الذي يقدر به من تعلمه على بيان مواضع الغلط في حجة خصمه، وعلى تصحيح مذهبه بإقامة الدليل المقنع على صحته أو صحة ملزومه أو بطلان نقيضه ونحو ذٰلك.

ومن المعلوم أن المقدمات التي تتركب منها الأدلة التي يحتجُّ بها كل واحد من المتناظرين إنما توجَّه الحجة بها منتظمة على صورة القياس المنطقي، ومن أجل ذٰلك كان فن آدب البحث والمناظرة يتوقف فهمه كما ينبغي على فهم ما لا بد منه من فن المنطق...».

تأليف البحث]

إلى أن قال: «وكانت الجامعة قد أسندت إلينا تدريس فن آداب البحث والمناظرة، وكان لا بد من وضع مذكرة تمكن طلاب الفن من مقصودهم، فوضعنا هٰذه المذكرة، وبدأناها بإيضاح القواعد التي لا بد منها من فن المنطق لآداب البحث والمناظرة، واقتصرنا فيها على المهم الذي لا بد منه للمناظرة، وجئنا بتلك الأصول المنطقية خالصة من شوائب الشبه الفلسفية، فيها النفع الذي لا يخالطه ضرر ألبتة؛ لأنها من الذي خلصه علماء الإسلام من شوائب الفلسفة...».

إلى أن قال: «ومن المعلوم أن فن المنطق منذ ترجم من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية في أيام المأمون كانت جميع المؤلفات توجد فيها عبارات واصطلاحات منطقية لا يفهمها إلا من له إلمام به، ولا يفهم الرد على المنطقيين فيما جاؤوا به من الباطل إلا مَن له إلمام بفن المنطق، وقد يعين على رد الشبه التي جاء بها المتكلمون في أقيسة منطقية، فزعموا أن العقل يمنع بسببها كثيراً من صفات الله الثابتة في الكتاب والسنة؛ لأن أكبر

سبب لإفحام المبطل أن تكون الحجة عليه من جنس ما يحتجُّ به، وأن تكون مركبة من مقدمات على الهيئة التي يعترف الخصم المبطل بصحة إنتاجها.

ولا شك أن المنطق لو لم يترجم إلى العربية ولم يتعلَّمْه المسلمون؛ لكان دينهم وعقيدتهم في غنى عنه كما استغنى عنه سلفهم الصالح، ولكنه لما تُرجم وتعلِّم وصارت أقيسته هي الطريق الوحيدة لنفي بعض صفات الله الثابتة في الوحيين؛ كان ينبغي لعلماء المسلمين أن يتعلموه وينظروا فيه ليردوا حجج المبطلين بجنس ما استدلوا به على نفيهم لبعض الصفات؛ لأن إفحامهم بنفس أدلتهم أدعى لانقطاعهم وإلزامهم الحق. . . ».

إلى أن قال: «وبعد الانتهاء مما لا بدَّ منه من فن المنطق نذكر جملاً كافية من آداب البحث والمناظرة، تعين مَن تعلَّمها على تصحيح مذهبه وإبطال مذهب خصمه مع الآداب اللازمة لذلك، ثم نطبق ذلك في مسائل من القـوادح في أصول الفقه، ومسائل من مسائل الكلام التي نفى فيها المعطِّلون بعض الصفات، ونوضح كيفية تصحيح الحق في ذلك وإبطال الباطل؛ لأن تطبيق ذلك عمليّاً يفيد الطالب إفادة أكبر.

ويختتم الكلام بالمقارنة بين ما يسميه المتكلمون مذهب السلف ومذهب الخلف، مع إحقاق الحق وإبطال الباطل على الطرق المعهودة في المناظرة؛ ليفيد ذلك الطالب تمريناً على رد الشبه وإبطال الباطل بطريق المناظرة[1].

---

(١) «آداب البحث والمناظرة» (١ / ٣ و٤ و٥ و٧).

والكتاب مطبوع في جزئين صغيرين:

الأول: منهما مقدمات منطقية، وكان حينذاك مقرَّراً على السنة الأولى بكلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، وهو يقع في ثمانين صفحة من الحجم العادي.

والثاني: في آداب البحث والمناظرة، وكان مقرَّراً على السنة الثانية بكلية الدعوة وأصول الدين، ويقع في ست وثلاثين ومئة صفحة من الحجم العادي.

وقد تم طبع الكتاب بجزئيه عام ثمان وثمانين وثلاث مئة وألف تحت إشراف الشيخ عطية محمد سالم المشرف على مطبوعات الجامعة حينذاك.

وكان الشيخ (رحمه الله) قد فرغ من تأليف الجزء الأول منه في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاث مئة وألف بمدينة النبي ﷺ، كما ذكر ذلك في خاتمته، أما الجزء الثاني؛ ففرغ منه في اليوم الرابع عشر من شهر جمادى الأولى في العام نفسه؛ كما ذكر في خاتمة الكتاب.

خامساً: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»:

وهو آخر مؤلفاته (رحمه الله)، إذ كلها قد فرغ منها إلا «الأضواء»؛ فإنه توفي ولم يتمَّه.

أما «آداب البحث والمناظرة»؛ فقد فرغ منه قبل «الأضواء»؛ كما سبق، وإن كان قد أحال فيه على الأضواء في موضعين:

الأول: قولـه (رحمـه الله) في القسم الأول من الكتـاب «قسم المقدمات المنطقية» ما نصه: «وقد نبهنا في كتابنا «أضواء البيان» على غلط الزمخشري وأبي حيَّان في آية: ﴿وإِنْ تَدْعُهُمْ إِلى الهُدَى فلَنْ يَهْتَدُوا إِذنْ أَبداً. . .﴾[1]»[2]. . . إلخ كلامه.

وهو يدلُّ على فراغه من هٰذه الآية من سورة الكهف قبل إتمام الجزء الأول من «آداب البحث والمناظرة» كما قدمت.

الثـاني: قولـه (رحمـه الله): «وقد أوضحنا هٰذا في كتابنا «أضواء البيان» في سورة الأنعـام في الكلام على قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إِليَّ محـرَّماً. . .﴾ الآية»[3]؛ يقصد: نسخ المتواتر بأخبار الآحاد الثابت تأخرها عنه.

أمـا «منـع جواز المجـاز» و«دفـع إيهام الاضطراب»؛ فإن إحالته المتكـررة عليهما في جميع أجزاء «الأضواء» تدلُّ على فراغه منهما قبل شروعه في «الأضواء».

وأما «مذكرة الأصول»؛ فإنها طُبِعَت عام **١٣٩١**هـ، وقد شرع في إملائها على الطلبة منذ تأسست كلية الشريعة بالرياض عام **١٣٧٤**هـ، ولا شك أنه فرغ من إملائها في وقت مبكر جدّاً.

وأسأل الله أن ييسِّر لي إخراج منهجه (رحمه الله) مقارناً بمناهج من سبقه من المؤلفين في التفسير.

---

(١) الكهف: ٥٧.

(٢) «آداب البحث والمناظرة» (١ / ٤٤).

(٣) «آداب البحث والمناظرة» (١ / ٥٥) في مبحث التناقض.

كل ما سبق ذكـره من مصنفات الشيخ أشار إليها الشيخ عطية في ترجمته للشيخ (رحمه الله)، وهناك كتب لم يشر إليها في ترجمته، ولكنه ذكـرهـا في مقـدمتـه لمحـاضـرة آيات الصفـات التي ألقاها الشيخ عام ١٣٨٢هـ، وهي كما يلي:

سادساً: «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام»:

طبع عام ١٤٠٣هـ[1]، وكتب مقدمته الشيخ عطية محمد سالم، وهو يقع في مئتين وخمسين صفحة تقريباً من الحجم دون العادي قليلاً.

قال الشيخ عطية في وصف «الرحلة»: «فجاءت سلسة الأسلوب، شيقة الحديث، عذبة الألفاظ، جمعت من الطرف أطيبها، ومن الحقائق العلمية أدقها، ومن المؤانسات الشعرية أعذبها، بل ربما اشتملت على ليال نابغية وساعات ذهبية؛ شأن كل رحالة عظيم الشأن، يلقى المخاطر، ويجـازف ويغـامـر، ويقـابل كل ظرف وحال بما يناسبه من صبر وتحمل واستئناس وتجمل، فهي بحقٍّ كحديقة غناء بها غروس مورقة وزهور ناعمة وثمار يانعة، وقد تجد فيها أشواكاً بارزة وأحجاراً صلدة، وجداول باسمة ورمالاً جاثمة، فتكتمل الصورة الطبيعية التي تمتع النظر وتثير الفكر وتورث العبر، ويجد كل ذي طبع ما يلائمه وكل ذي رغبة ما يوافقه.

فهي بحق ممتعـة كل قارىء، مهما اختلفت العادات، أو تنوعت الاتجاهات، أو تعددت الاختصاصات؛ من أدب ونحو وفقه وأصول وتفسير

---

(١) وذكـر الشيخ عطية في «التـرجمة» المشار إليها آنفاً أنه مخطوط، وهو كذلك حينذاك، ثم طبع.

وعقائد ومنطق وتاريخ وبيئة وطبيعة، مما سيراه القارىء بنفسه، ويدركه بحسه»[1].

وقال الشيخ (رحمه الله) في مقدمتها ما نصه: «أما بعد؛ فليكن في علم ناظره أنا أردنا تقييد خبر رحلتنا هٰذه إلى بيت الله الحرام، ثم إلى مدينة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام؛ ليستفاد بما تضمنته من المذاكرة والأحكام وأخبار البلاد والرجال، وما تجول فيه الأدباء من المجال، والغرض الأكبر من ذٰلك تقييد ما أجبنا به عن كل سؤال علمي سئلنا عنه في جميع رحلتنا»[2] اهـ.

وقد استغرقت الإجابات أكثر من ثلاثة أرباع الكتاب.

[حصر المسائ العلمية الوا في «رحلة الح وهي خم وأربعون مسأ

والمسائل العلمية الواردة في الكتاب هي كما يلي:

١ ـ بيان الفرق بين علم الجنس واسم الجنس[3].

٢ ـ قول المتكلمين: إن الصفة النفسية لا يُدرَك بدونها الموصوف، وإن الإنسان مثلاً بدون النطق غير معروف، لم لا يعرف الإنسان بخواصه كالمشي على الاثنين مع الانتصاب وكالضحك وكتابة الكتاب[3]؟

٣ ـ شرح قول الأخضري في سلمة في كلامه على القياس الاستثنائي:

وَهُـوَ الَّـذي دَلَّ على الـنَّتيجَـهْ أَو ضِدِّهـا بالفِعْـلِ لا بالقُـوَّهْ[4]

(١) مقدمة «الرحلة» (ص ٥ و٦).

(٢) «الرحلة» (ص ٤٠).

(٣) «الرحلة» (ص ٤١).

(٤) «الرحلة» (ص ٤٧).

٤ ـ بيان كيفية استحالة تسلسل هيولى العالم، أي تأثير بعضها في بعض إلى ما لا نهاية، والبرهان الدال على أن كل ما سوى الله جل وعلا حادث[١].

٥ ـ تحقيق الفرق بين خطاب التكليف وخطاب الوضع[١].

٦ ـ الكاغد المتعامل به في نواحي البلاد التي تحت أيدي فرنسا هل يجوز سلمه في فلوس النحاس المتعامل بها أيضاً عندهم في مذهب الإمام مالك (رحمه الله) أم لا[٢]؟

٧ ـ هل يجوز نسخ النص بالإجماع[٣]؟

٨ ـ ما الحكمة في النسخ؟ هل هي التخفيف أو لا[٤]؟

٩ ـ هل يجوز الجمع بين الأختين بملك اليمين أو لا[٥]؟

١٠ ـ كيفية تركيب القياس الاقتراني[٦]

١١ ـ تحقيق النسبة التي بين الأزل والقدم في اصطلاح المتكلمين[٧].

---

(١) «الرحلة» (ص ٤٨ و٤٩).

(٢) «الرحلة» (ص ٥٣).

(٣) «الرحلة» (ص ٥٧).

(٤) «الرحلة» (ص ٥٨).

(٥) «الرحلة» (ص ٦٢).

(٦) «الرحلة» (ص ٧٠).

(٧) «الرحلة» (ص ٧١).

١٢ ـ مذهب أهل السنة في آيات الصفات وأحاديثها[١].

١٣ ـ محاورات عن أيام العرب وأشعارها وملح الأدباء ونوادرهم[٢].

١٤ ـ تفسير سورة الواقعة كاملة[٣].

١٥ ـ الفعل المبني للمفعول؛ هل هو أصل أو فرع[٣]؟

١٦ ـ امرأة غاب زوجها فسمعت في غيبته أنه مات، فظنَّت صدق الخبر، فاعتدَّت وتزوَّجت، فحملت من الزوج الثاني، ثم انكشف الغيب عن حياة الزوج الأول وعدم فراقه لزوجته؛ ما حكم ذلك في مذهب مالك (رحمه الله)[٤]؟

١٧ ـ إملاء شرح لسلم الأخضري كاملاً؛ قال عنه الشيخ: «فجاء ذلك الإملاء شرحاً وافياً، وعن غيره كافياً»[٥].

١٨ ـ تعيين ناسخ آية الوصية للوالدين والأقربين[٥].

١٩ ـ خبر الآحاد هل يفيد القطع أو لا[٦].

٢٠ ـ تولية المسلم على المسلم إذا كانت صادرة من غير مسلم متغلب منعقدة أم لا[٧]؟

---

(١) «الرحلة» (ص ٧٣).

(٢) «الرحلة» (ص ٨٧).

(٣) «الرحلة» (ص ٨٩).

(٤) «الرحلة» (ص ٩٢).

(٥) «الرحلة» (ص ٩٤).

(٦) «الرحلة» (ص ٩٧).

(٧) «الرحلة» (ص ١٠٥).

٢١ ـ حكم صلاة الجمعة في المسجد الجديد مع وجود العتيق في مذهب مالك (رحمه الله)[١].

٢٢ ـ الزواج مع نية الفراق عند السفر؛ هل هو نكاح متعة فيكون باطلاً أو لا[٢]؟

٢٣ ـ شرح بيت لعمر بن أبي ربيعة المخزومي، وإملاء القصيدة التي منها البيت[٢].

٢٤ ـ إيضاح القضايا الموجهة وبسائطها ومركباتها في علم المنطق[٣].

٢٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ولَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أَو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَو كُلِّمَ بِهِ المَوْتى بل للهِ الأَمْرُ جَميعاً﴾[٤].

٢٦ ـ بيان الجمع بين قوله تعالى: ﴿وإِذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فيها﴾، وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يأْمُرُ بالفَحْشاءِ﴾[٥].

٢٧ ـ تحقيق القول في قصة الغرانيق، وبيان سبب نزول الآية[٦].

---

(١) «الرحلة» (ص ١١٣).

(٢) «الرحلة» (ص ١١٥).

(٣) «الرحلة» (ص ١١٧).

(٤) «الرحلة» (ص ١٢٤).

(٥) «الرحلة» (ص ١٢٧).

(٦) «الرحلة» (ص ١٢٨).

٢٨ ـ تحقيق معنى بيتين في «ألفية ابن مالك»[١].

٢٩ ـ المثنى من أسماء الإشارة والأسماء الموصولة؛ هل هو معرب أو لا؟ وحل إشكال في ذلك[٢].

٣٠ ـ بيان معنى قول الشاعر:

وتَبْلَى الأُلَى يَسْتَلْئِمونَ عَلى الأُلى تَراهُنَّ يَوْمَ الرَّوْعِ كالحِدَإِ القُبْلى[٣]

٣١ ـ تحقيق القول بالموجب وبيان معناه[٤].

٣٢ ـ بيان معنى القادح المسمى فساد الوضع، والقادح المسمى فساد الاعتبار، وبيان تحقيق النسبة بينهما[٥].

٣٣ ـ بيان معنى تنقيح المناط وتخريج المناط وتحقيق المناط[٦].

٣٤ ـ بيان معنى السبر والتقسيم في اللغة وفي اصطلاح الأصوليين[٧] وفي اصطلاح المناطقة[٨].

٣٥ ـ بيان المراد بالمصالح المرسلة ودليل المالكية على الاستدلال

---

(١) «الرحلة» (ص ١٣٧).

(٢) «الرحلة» (ص ١٣٩).

(٣) «الرحلة» (ص ١٤٢).

(٤) «الرحلة» (ص ١٤٣).

(٥) «الرحلة» (ص ١٥١).

(٦) «الرحلة» (ص ١٥٧).

(٧) «الرحلة» (ص ١٦٥).

(٨) «الرحلة» (ص ١٧٢).

بها[1].

٣٦ ـ إيضاح معنى المجاز، وبيان أقسامه وأقسام الاستعارة التي هي قسم من أقسامه[2].

٣٧ ـ هل في الكتاب أو السنة نصٌّ يفهم منه وجود دولة لليهود في آخر الزمن[3].

٣٨ ـ بيان الفرق بين دلالات الإشارة والاقتضاء والإيماء والتنبيه[4].

٣٩ ـ الأدلة على العداوة والبغضاء دائماً بين فرق اليهود فيما بينهم وبين فرق النصارى[5].

٤٠ ـ بيان الحديث الثابت في قتال المسلمين مع الترك، ومعنى قوله ﷺ في الحديث المذكور: «كأن وجوههم المجانُّ المطرقة»[6].

٤١ ـ مذاكرات في الشعر والشعراء، وبعض قصائد الشيخ في أيام الصبا في طلب العلم وفي الغزل وفي العتاب وإصلاح ذات البين[7].

٤٢ ـ حل إشكال منطقي في كيفية رد الله جلَّ وعلا على اليهود في قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشرٍ من شيء﴾؛ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ

---

(١) «الرحلة» (ص ١٧٥).

(٢) «الرحلة» (ص ١٨١).

(٣) «الرحلة» (ص ٢٣٨).

(٤) «الرحلة» (ص ٢٤٠).

(٥) «الرحلة» (ص ٢٤٣).

(٦) «الرحلة» (ص ٢٤٥).

(٧) «الرحلة» (ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨).

الكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ مُوسى﴾[1].

٤٣ ـ بيان جواز أنساك الحج الثلاثة، ومن قال بأفضلية كل نوع، وأدلة تفضيل الإفراد[2].

٤٤ ـ بيان معنى بيت شعر لجرير في قصيدة يهجو بها الأخطل النصراني ويعيِّره بدين النصرانية وذكر القصيدة كاملة[3].

٤٥ ـ شهادة رجل وامرأتين في السرقة هل تثبتان القطع والغرم أو أحدهما دون الآخر[4]؟

هٰذه هي المسائل العلمية التي اشتمل عليها الكتاب.

وهناك طرف أدبية وملح تأتي في سياقه (رحمه الله) للرحلة، تذهب عن القارىء الملل، وتشدُّه لمتابعة أحداثها ووقائعها بأجمل عبارة وأسهل أسلوب.

وقد سبق ذكر سياق رحلته (رحمه الله) كاملاً في الفصل الثاني.

سابعاً: شرح على «مراقي السعود لمبتغي الرقي والصعود»:

والمتن عبارة عن «ألفية في أصول الفقه» لعبدالله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي، وقد شرح الماتن متنه هٰذا بكتاب سماه «نشر البنود على مراقي السعود»، وقد خالفه الشيخ (رحمه الله) في شرحه لمتنه في مواضع، منها

---

(١) «الرحلة» (ص ٢٥٣).

(٢) «الرحلة» (ص ٢٥٥).

(٣) «الرحلة» (ص ٢٧٠).

(٤) «الرحلة» (ص ٢٧٨).

شرحه لقوله:

والـمُـجْمِـعُ اليَوْمَ عليهِ الأرْبَعَـهْ وقَـفْـوُ غَيْرِهِ الـجَـمِيعُ مَنَـعَـهْ
حَتَّى يَجيءَ الفـاطمي المُجَـدِّدُ دينَ الـهُـدَى لأنَّـهُ مُجْـتَـهِـدُ

حيث قال الشيخ بعد أن شرح كلام الماتن وبيَّن مراده بالبيت الأول ما نصه: «هٰذا مراد المؤلف، والذي يظهر ـ والله تعالى أعلم ـ أن هٰذه الاحتمالات التي عللوا بها[1] تقليد غير الأربعة لا تصلح دليلاً على المنع مطلقاً؛ لجواز أن يحقق بعض الفتاوى تحقيقاً ظاهراً لا لبس فيه؛ كما ذكر المؤلف نظيره في اتباع مذاهب الصحابة في قوله:

ويَقْـتَـدي مَنْ عَمَّ بالـمُـجتَهِـدِ منـهُـم لدى تحـقُّـقِ الـمُـعتمَـدِ

قال المؤلِّف في الشرح: الظاهر أن مذهب مالك يتعيَّن على جل أهل المغرب، إذ لا يكاد يوجد فيهم مَن يعرف فقه غيره من المذاهب، وكذا مذهب أبي حنيفة في بلاد الروم»[2].

وقال بعد أن شرح البيت الثاني وبيَّن مراد المؤلف به ما نصه: «وهٰذا مراد المؤلف، والذي يتبادر ـ والله تعالى أعلم ـ أنه لا دليل من نقل ولا عقل على امتناع وجود مجتهد قبل المهدي؛ لأن شروط الاجتهاد التي ذكرها المؤلف وغيره ليست مستحيلة التحصيل، حتى يجـزم بعـدم حصـولهـا بالفعل، لا سيما وقد قال المؤلف:

والأرْضُ لا عَنْ قَائِـمٍ مُجْـتَـهِـدِ تَخْلو إلى تَزَلْـزُلِ القَـواعِـدِ»[3]

(١) كذا بالأصل، ولعل صوابه: «عللوا بها منع تقليد غير الأربعة»؛ بدليل ما بعده.
(٢) «شرح الشيخ للمراقي» (دفتر رقم ٧ / ص ١٤).
(٣) «شرح الشيخ للمراقي» (دفتر رقم ٧ / ص ١٥).

وقد خالفه في مواضع أخر غير هٰذين، والمقصود المثال.

[قصة تأليف «الشرح»] ومما يستدعي البيان أن الشيخ لم يقصد إلى تأليف هٰذا الشرح ابتداء، بل كان يشرح لبعض تلاميذه ـ وهو الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي (حفظه الله ووفقه) ـ «مراقي السعود»، فاشترط الشيخ أحمد على الشيخ الشارح أن يدوِّن عنه ما يشرح، فاعتذر الشيخ بضيق الوقت، فامتنع التلميذ عن أخذ الحصة اليومية، وبيَّن له أن سبب امتناعه كونه لم يأخذ إملاء على الحصة السابقة، فقال الشيخ: ألم أقل لك ليس عندي وقت؟

قال الشيخ أحمد: «فبيَّنْتُ إصراري على أخذ إملاء وإلا تركت الدرس وسافرت إلى البلاد. فقال لي: على مَن يكون ضرر تركك الدرس؛ عليَّ أم عليك؟ فقلتُ: عليك؛ لأني من بني عمومتك وابن أختك، أرسلتَ إليَّ لتعلمني[1]، فإن أنا سافرت دون حصول ذٰلك منك كان ضرر ذٰلك عليك»؛ على سبيل المزاح.

فاقتنع ـ على الرغم من ضيق وقته ـ، فكان يشرح، ثم يدون له ما شرح بخطه (رحمه الله)، وأحياناً يمليه عليه وهو يكتب.

ولكن الأمالي لم تستوعب جميع أبيات «المراقي»، بل ترك منها نحواً من مئة وأربع وستين بيتاً، وهي من قول صاحب «المراقي»:

وإِنْ يَجِي الدَّلِيلُ للخِلافِ فَقَدِّمَنَّهُ بِلا اخْتِلافِ

(١) كان الشيخ أحمد قد كتب لشيخه رسالة: إني مشتاق لفن الأصول، ولا أرى فيمن بقي من المشايخ مَن يشبع رغبتي فيه، فهل إن تكلفت السفر إليك بالمشرق؛ تعطيني من وقتك؟ فكتب إليه أن توجَّه حالاً؛ فستجدني عند ظنك.

من باب المجاز، إلى قوله:

خِطَابُ واحِـدٍ لِغَيْرِ الـحَـنْـبَـلي مِنْ غَيْرِ رَعْي النَّصِّ والقَيْس الجَلِي

وهو آخر بيت قبل مبحث التخصيص.

وقد سألت الشيخ أحمد عن السبب في ذلك، فأجاب بما حاصله: أن الشيخ كان يشرح له الدرس بعد الفجر قبل أن يذهب إلى الكلية ـ أي: كلية الشريعة بالرياض ـ، ثم إذا رجع من الكلية ظُهراً يملي عليه ما شرحه بالصباح، وكان يهيىء له سبعة مراجع في الأصول للاقتباس منها عند الحاجة، وربما عاق عائق عن كتابته للحصة، فيتولى الشيخ كتابتها بنفسه.

قال الشيخ أحمد: «وعند الوصول إلى هٰذا الموضع المذكور؛ اشتغلنا بتبييض «دفع إيهام الاضطراب» لتقديمه للمطبعة، فكانت الحصة اليومية في الشرح بعد صلاة الفجر مستمرة، أما الأمالي؛ فقد توقفت للسبب المذكور، ثم لما انتهينا من تبييض «دفع الإيهام»؛ استأنفنا الكتابة من حيث وصلنا في الشرح لا من حيث وقفنا في الكتابة».

وكذلك الدرس الأول من شرح «المراقي» لم يكتبه الشيخ ولم يمله للسبب الذي تقدم ذكره في قصة مراجعة التلميذ لشيخه في طلبه تدوين ما يشرحه له، ومقداره عشرون بيتاً، أولها قول صاحب «المراقي»:

يَقُـولُ عبـدُالـلهِ وهـو ارْتَسَمـا سِمـيً له والـعـلويُّ الـمُـنْـتَـمَـى

وآخرها قوله:

فالكُـلُّ مِنْ أهلِ المَناحِي الأرْبَعَهْ يَقُـولُ لا أَدْرِي فكُـنْ مُتَّـبِـعَـهْ

حيث بدأ الكتابة بالدرس الثاني، وهو البيت الذي يلي هٰذا مباشرة، وهو قول صاحب «المراقي»:

كلامُ رَبِّـي إنْ تَعَـلَّقَ بِمـا يَصِـحُّ فعْـلاً للمُـكَلَّفِ اعْلَمـا

وقد وعد الشيخ أحمد أن يُتمَّ كتابة شرح لهٰذه الأبيات، ويلتزم بما سمعه من الشيخ (رحمه الله) في شرحه لها.

وكأني بالشيخ (رحمه الله) لم يدر بخلده أن تكون هٰذه الأمالي في يوم من الأيام كتاباً يتداوله طلاب العلم في شتى الأقطار وبمختلف المشارب، فهو أمالي شيخ لتلميذه، يشرح بها غوامض متنٍ يدرسه عليه، وغالباً ما يراعي فيها الشيخ حال التلميذ الذي أمامه؛ فقد يُغْفِلُ بعض ما يشكل على غيره؛ نظراً لثقته بفهم الطالب لمراده.

وقد تم الفراغ منه في الثاني والعشرين من شهر الله رجب سنة خمس وسبعين وثلاث مئة وألف؛ كما هو محرَّر في آخر المخطوط، وسماه الشيخ أحمد «ورد الخدود على مراقي السعود»، ولا يزال هٰذا الشرح مخطوطاً حتى كتابة هٰذه الأسطر، والنسخة الأصلية منه عند الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي (حفظه الله)، وهي تقع في سبعة دفاتر:

١ ـ الدفتر الأول يقع في ثلاث وستين صفحة، كلها بخط الشيخ (رحمه الله).

٢ ـ الدفتر الثاني يقع في إحدى وأربعين صفحة، كلها بخط الشيخ (رحمه الله).

٣ ـ الدفتر الثالث يقع في ثلاث وستين صفحة، ثمان وثلاثون صفحة منها بخط الشيخ (رحمه الله)، وخمس وعشرون بخط تلميذه الشيخ أحمد بن أحمد الجكني الشنقيطي.

٤ ـ الدفتر الرابع يقع في ثلاث وستين صفحة، وكلها بخط تلميذه الشيخ أحمد.

٥ ـ الدفتر الخامس يقع في أربع وستين صفحة، منها نحو اثنتين وأربعين صفحة بخط تلميذه الشيخ أحمد، واثنتين وعشرين صفحة بخطه (رحمه الله).

٦ ـ الدفتر السادس، ويقع في ست وستين صفحة، منها أربعون صفحة بخط الشيخ أحمد، وست وعشرون بخط الشيخ نفسه (رحمه الله).

٧ ـ الدفتر السابع ويقع في خمس عشرة صفحة، منها صفحتان بخط الشيخ (رحمه الله)، وثلاث عشرة صفحة بخط تلميذه الشيخ أحمد (حفظه الله).

ثامناً: «شرح على سلم الأخضري من فن المنطق»:

أملاه على أحد طلابه، وهو مخطوط، هٰكذا قال الشيخ عطية في ترجمته المختصرة للشيخ المطبوعة في مقدمة محاضرة آيات الصفات، ولعله يعني ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في رحلته بقوله:

«وفي مدة إقامتنا عند الحاج الكيدي تورة[1] جاءنا رجل من أهل العلم من قبيلة تسمى (الطلابة)، اسمه محمد إبراهيم، وطلب منا أن نبيِّن له معاني سلم الأخضري في فن المنطق بدرس شاف، فأجبته، وكان

---

(١) ذكره الشيخ في «الرحلة» (ص ٩٣)، وأثنى عليه كثيراً، وهو من بلد (انيامي)، عاصمة النيجر الفرنساوية، وانظر سياق رحلته (رحمه الله).

يكتب ما أملي عليه من إيضاح معانيه ليلاً ونهاراً، وخوفاً من معاجلة السفر قبل الإتمام، حتى أتى على آخره، فجاء ذٰلك الإملاء شرحاً وافياً وعن غيره كافياً، والحمد لله رب العالمين»[1].

تاسعاً: «بيان الناسخ والمنسوخ من آي الذكر الحكيم»:

وهي رسالة مختصرة جدّاً، تقع في أربع صفحات ونصف، وهي شرح لأبيات السيوطي في «الإتقان» بيّن فيها الآيات المنسوخة في كتاب الله، وهي عشرة أبيات، وشرح الشيخ منها ثمانية أبيات يبيِّن الناسخ لكل آية أشار السيوطي إلى أنها منسوخة، أما البيتان الأولان؛ فلم يشرحهما لأنهما لا ذكر للآيات فيهما:

والبيتان هما:

قدْ أَكْثَرَ النَّاسُ في اَلمَنْسوخِ من عَدَدِ ... وأَدْخَلُوا فيهِ آياً لَيْسَ تَنْحَصِرُ

وهاكَ تَحْريرَ آيٍ لا مَزيدَ لها ... عِشْرينَ حَرَّرَها الحُذَّاقُ والكبرُ

ثم شرع في بيان الآيات مكتفياً بالإشارة الموجزة جدّاً حتى لا يكاد يفهم المقصود منها أحياناً.

وقال الشيخ عطية واصفاً رسالة الشيخ: «وهي على إيجازها واختصارها كافية شافية للطالب الدارس، أملاها عليَّ فضيلته في ذي الحجة سنة ١٣٧٣هـ، أما المدرس والباحث المدقق والمناقش للأقوال؛ فإن هناك المطولات لتتمة البحث...»[2] إلخ.

---

(١) «الرحلة» (ص ٩٤).

(٢) تتمة «الأضواء» (٩ / ٧٠٤).

عاشراً: قال الشيخ عطية: «وله (رحمه الله) مؤلفات أخرى مخطوطة في بلاده في التاريخ والفقه والمنطق»[1].

فلعله يشير بالفقه إلى الرجز الذي سبق ذكره في العقود على مذهب مالك، وبالمنطق إلى ألفية المنطق التي سبقت الإشارة إليها، أما التاريخ؛ فلا أعلم له إلا أنساب العرب «خالص الجمان في ذكر أنساب بني عدنان» التي لا وجود لها الآن.

وقد سألت الشيخ عطية (وفقه الله) عن مراده بذلك، فأجاب بنحو مما ذكرت.

حادي عشر: قال الشيخ عطية عطفاً على كلامه السابق: «كما له العديد من المذكرات الدراسية في التفسير وأصوله وأصول الفقه والمنطق والنحو والصرف»[2].

وللشيخ (رحمه الله) محاضرات عديدة في موضوعات مهمة ألقاها في مناسبات مختلفة وطبعتها الجامعة الإسلامية، وهي:

= ومما استوقفني في هذا الكلام قول الشيخ عطية: «أملاها عليَّ فضيلتُه...»، مع أنه قال في أولها: «كتبها فضيلة الوالد الشيخ الأمين (رحمه الله) على أبيات السيوطي في «الإتقان»، ونقلتها عن خطه، وقرأتها عليه» اهـ من تتمة «الأضواء» (٩ / ٦٩٩).

ففي أو ـ الرسالة قال: «... ونقلتها عن خطه، وقرأتها عليه»، وفي آخرها ـ أي: بعد خمس صفحات ـ قال: «أملاها عليَّ فضيلتُه...»، فلعله نسي، أو يُحمل على تعدُّد الوقائع، إذ لا مانع من وقوع الأمرين، والله أعلم.

(١) الترجمة الموجزة للشيخ (رحمه الله) في نهاية رسالة «المصالح المرسلة» (ص ٢٥).

(٢) الترجمة المختصرة في آخر «المصالح المرسلة» (ص ٢٥).

١ ـ منهج التشريع الإسلامي وحكمته: محاضرة ألقاها (رحمه الله) افتتاحية للموسم الثقافي للجامعة الإسلامية عام ١٣٨٤هـ، وطبعها مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية في خمس وعشرين صفحة من الحجم العادي برقم (٦٧) الطبعة الأولى.

٢ ـ المصالح المرسلة: محاضرة أملاها الشيخ (رحمه الله) وألقاها نيابة عنه الشيخ عطية محمد سالم ضمن محاضرات الموسم الثقافي للجامعة الإسلامية لعام ١٣٩٠هـ، وقد طبعتها الجامعة الإسلامية في سبع عشرة صفحة من الحجم دون المتوسط قليلاً.

٣ ـ ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضِيْتُ لكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾: محاضرة ألقاها الشيخ (رحمه الله) في المسجد النبوي بحضور محمد الخامس ملك المغرب، بيَّن فيها أن هٰذه الآية نصٌّ صريح في أن الإسلام لم يترك شيئاً يحتاج إليه الخلق في الدنيا ولا في الآخرة إلا أوضحه وبينه، وضرب لذٰلك المثل بعشر مسائل عظام عليها مدار الدنيا من المسائل التي تهمُّ العالم في الدارين ـ وفي البعض تنبيه لطيف على الكل ـ والمسائل العشر هي:

أ ـ التوحيد.

ب ـ الوعظ.

ج ـ الفرق بين العمل الصالح وغيره.

د ـ تحكيم الشرع الكريم.

هـ ـ أحوال الاجتماع بين المجتمع.

و ـ الاقتصاد.

ز ـ السياسة.

ح ـ مشكلة تسليط الكفار على المسلمين.

ط ـ مشكلة ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار في العَدَد والعُدَد.

ي ـ مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع، وبين علاج تلك المشاكل من القرآن.

وقد طبعت هٰذه المحاضرة مراراً، وإحدى طبعاتها تقع في ثمان وعشرين صفحة من الحجم الصغير.

٤ ـ منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محاضرة ألقاها (رحمه الله) بالجامعة الإسلامية بتاريخ ١٣/ ٩/ ١٣٨٢هـ، وقد طبعتها الجامعة الإسلامية ضمن مطبوعاتها برقم (٩) عام ١٤٠٠هـ، وأعيد طبعه عام ١٤٠١هـ.

٥ ـ المثل العليا في الإسلام: محاضرة ألقاها (رحمه الله) افتتاحية الموسم الثقافي لمحاضرات الجامعة عام ١٣٨٥هـ، وطبعت ضمن مطبوعات الجامعة الإسلامية.

٦ ـ حول شبهة الرقيق: وهي محاضرة ألقاها نيابة عنه الشيخ عطية محمد سالم ضمن محاضرات الموسم الثقافي بالجامعة الإسلامية، ولا تزال مخطوطة في حوزة الشيخ عطية.

٧ ـ من مصنفاته رسالة في جواب سؤال صدر من أحد أمراء بلاد شنقيط أرسله إلى الشيخ يسأل: هل الخلق مرزوق من بركته ﷺ أو له أسباب أخرى..؟ أفاض الشيخ في الجواب، وبيَّن أن الحكمة التي خلق

من أجلها العالم ورزق كلها إلٰهية ربانية لا نبوية، وهي تقع في إحدى عشرة صفحة من الورق المسطر، مخطوطة عند ابنه عبدالله.

٨ ـ رسالة في حكم الصلاة في الطائرة؛ قال في مقدمتها: «أما بعد؛ فقد طلب مني بعض فضلاء إخواننا أن أقيد لهم حروفاً تظهر بها صحة صلاة من صلى في الطائرة، فأجبناهم إلى ذٰلك...».

ثم بين وجه استنباط صحتها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ثم من كلام العلماء على طريقة المناظرة الشرعية الخالية من اللجاج والجدال، وقد سماها ابنه عبدالله «الإجابة الصادرة في صحة الصلاة في الطائرة»، وهي في حوزته أيضاً.

□□□□□

الفصل الرابع
عقيدته (رحمه الله)

إن أبرز ما يتميز به الشيخ (رحمه الله) عقيدته السلفية التي تابع فيها رجال خير القرون في جميع أبواب المعتقد، فتوّج بها علمه الواسع، وزاده الله بها نوراً على نور.

وسأذكر في هٰذا الفصل نماذج تؤكد ذٰلك ـ مع علمي باستفاضته وأنه أشهر من أن يستدل له ـ فأقول:

□ **أقسام التوحيد:**

قال الشيخ (رحمه الله): «وقد دلَّ استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهٰذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء...».

وذكر الأدلة القرآنية عليه، ثم قال:

«**الثاني**: توحيده جل وعلا في عبادته، وضابط هٰذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى (لا إلٰه إلا الله)، وهي متركبة من نفي وإثبات، فمعنى

النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت، ومعنى الإثبات منها إفراد الله جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله (عليهم الصلاة والسلام).

وأكثر آيات القرآن في هٰذا النوع من التوحيد، وهو الذي فيه المعارك بين الرسل وأممهم: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهاً واحداً إِنَّ هٰذا لَشيءٌ عُجابٌ﴾...».

وذكر الآيات الدالة على هٰذا النوع من التوحيد، وهي كثيرة، ثم قال:

«**النوع الثالث**: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته، وهٰذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

والثاني: الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكماله وجلاله؛ كما قال بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُو السَّميعُ البَصيرُ﴾، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية الاتصاف؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ولا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً...﴾»[1] إلخ كلامه.

قال الشيخ بكر أبو زيد: «هٰذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما، وقرره شيخا

(١) «الأضواء» (٣ / ٤١٠ و٤١١).

الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزَّبيدي في «تاج العروس» وشيخنا الشنقيطي في «أضواء البيان» في آخرين (رحم الله الجميع)، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطَّرد لدى أهل كل فنٍّ؛ كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهٰذا، ولم يعتب على النحاة في ذٰلك عاتب، وهٰكذا من أنواع الاستقراء»[1].

□ **قضايا توحيد الإلٰهية:**

أولاً: من يستغيث بغير الله ـ حتى في حال الشدة ـ أسوأ حالاً من المشركين:

في ضمن كلامه على قوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ فلمَّا نَجَّاكُمْ إلى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وكانَ الإنْسانُ كَفُوراً. . .﴾ الآيات من سورة الإسراء؛ قال (رحمه الله):

«تنبيه: لا يخفى على الناظر في هٰذه الآية الكريمة أن الله ذم الكفار وعاتبهم بأنهم في وقت الشدائد والأهوال خاصَّة يُخْلِصون العبادة له وحده، ولا يصرفون شيئاً من حقه لمخلوق، وفي وقت الأمن والعافية يشركون به غيرَه من حقوقه الواجبة له وحده، التي هي عبادته وحده في جميع أنواع العبادة.

ويُعْلَم من ذٰلك أن بعض جهلة المتسمِّين باسم الإسلام أسوأ حالاً من عبدة الأوثان؛ فإنهم إذا دهمتهم الشدائد، وغشيتهم الأهوال والكروب؛ التجؤوا إلى غير الله ممَّن يعتقدون فيه الصلاح، في الوقت الذي يخلص

---

(١) «التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير» (ص ٣٠).

فيه الكفار العبادة لله، مع أن الله جلَّ وعلا أوضح في غير موضع أن إجابة المضطر وإنجاءه من الكرب من حقوقه التي لا يشاركه فيها غيره».

ثم ذكر الأدلة على ذلك[1].

ثانياً: بناء المساجد على القبور:

في كلامه على قوله تعالى: ﴿ولَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الحِجْرِ المُرْسَلينَ﴾ وبيَّن حكم الصلاة في المواضع التي ورد فيها نهي، ومنها المقبرة، ذكر تنبيهاً ردَّ فيه على ما يزعمه بعض من لا علم عنده من أن الكتاب والسنة دلاَّ على اتخاذ القبور مساجد ـ يعني بالكتاب قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾، ويعني بالسنة ما ثبت في الصحيح من أن موضع مسجد النبي ﷺ كان فيه قبور المشركين[2] ـ، وبيَّن فيه أن هٰذا القول في غاية السقوط، وقائله من أجهل خلق الله[2]؛ لأن الذين غلبوا على أمرهم إما أن يكونوا كفاراً أو مسلمين، فإن كان الأول؛ فلا إشكال في أن فعلهم ليس بحجة، وإن كانوا مسلمين؛ فلا يخفى على أدنى عاقل أن قول قومٍ من المسلمين في القرون الماضية: إنهم سيفعلون كذا؛ لا يعارِض به النصوص الصحيحة الصريحة عن النبي ﷺ إلا مَن طمس الله بصيرته[2].

ثم استدل بقوله ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بخمس: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد...» الحديث، وقال:

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٦١٤).

(٢) «الأضواء» (٣ / ١٧٦).

«وبه تعلم أن من اتَّخذ القبور على المساجد ملعون في كتاب الله جلَّ وعلا وعلى لسان رسوله ﷺ، وأنه لا دليل في آية: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾»[1].

وأجاب عن الحديث بأن النبي ﷺ أمر بها فنُبِشَت وأزيل ما فيها، وساق الحديث من «صحيح البخاري»، ثم قال:

«فصار الموضع كأن لم يكن فيه قبر أصلاً؛ لإزالته بالكلية، وهو واضح كما ترى»[1].

ثالثاً: من عبد الرسول كافر، ومن كرهه كافر[2]:

في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ...﴾ الآية من سورة الحجرات؛ قال:

«وهٰذه الآية الكريمة علَّم الله فيها المؤمنين أن يعظِّموا النبي ﷺ ويحترموه ويوقِّروه، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن أن يجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض؛ أي: ينادونه باسمه: يا محمد! يا أحمد! كما ينادي بعضهم بعضاً، وإنما أُمِروا أن يخاطبوه خطاباً يليق بمقامه، ليس كخطاب بعضهم لبعض؛ كأن يقولوا: يا نبي الله! أو يا رسول الله! ونحو ذٰلك»[3].

---

(١) «الأضواء» (٣ / ١٧٧).

(٢) حدثني بهٰذه العبارة ابنُه عبدالله عنه (رحمه الله)، ولما رأيتها كالخلاصة لهٰذا المبحث؛ جعلتُها عنواناً له.

(٣) «الأضواء» (٧ / ٦١٥).

وقال: «ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعاً مزعجاً؛ كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر.

وقد شدَّد عمر (رضي الله عنه) النكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتُكما ضرباً»[1].

ثم قال: «مسألتان:

الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به أو الاستهزاء به ردَّةٌ عن الإسلام، وكفرٌ بالله، وقد قال تعالى في الذين استهزؤوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلَّت راحلته: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وآيَاتِهِ ورَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ . لا تَعْتَذِروا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمانِكُمْ﴾»[2].

ثم قال: «**المسألة الثانية**، وهي من أهم المسائل: اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميِّز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه؛ كحق النبي ﷺ؛ ليضع كل شيء في موضعه، على ضوء ما جاء به النبي ﷺ في هٰذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذٰلك؛ فاعلم أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٦١٧).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٦١٧ و٦١٨).

خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله، فالتجاء المضطرِّ الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده؛ لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذٰلك الحق لله، وإخلاصه له: هو عين طاعة الله ومرضاته وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتِّباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة له وحده جلَّ وعلا.

وقد بيَّن جلَّ وعلا في آيات كثيرة من كتابه، أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى»[1].

وذكر الآيات القرآنية الدالة على ذٰلك، ثم قال:

«فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هٰذه الآيات القرآنية، ونعتقد ما تضمَّنته، ونعمل به؛ لنكون بذٰلك مطيعين لله تعالى ولرسوله ﷺ، معظِّمين لله ولرسوله؛ لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله ﷺ هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص العبادة لله وحده»[2].

إلى أن قال: «واعلم أن الكفار في زمن النبي ﷺ كانوا يعلمون علماً يقيناً أن ما ذكر من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب من خصائص الربوبية، وكانوا إذا دهمتهم الكروب ـ كإحاطة الأمواج بهم في البحر في وقت العواصف ـ؛ يُخْلِصون الدعاء لله وحده؛ لعلمهم أن كشف ذٰلك من خصائصه، فإذا أنجاهم من الكرب؛ رجعوا إلى الإشراك».

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٦١٨).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٦٢١).

ثم ذكر الآيات القرآنية الدالة على ما ذكر، ثم قال:

«وبما ذُكِر تعلم أن ما انتشر في أقطار الدنيا من الالتجاء في أوقات الكروب والشدائد إلى غير الله جلَّ وعلا، كما يفعلون ذٰلك قرب قبر النبي ﷺ وعند قبور من يعتقدون فيهم الصلاح، زاعمين أن ذٰلك من دين الله ومحبة الرسول ﷺ وتعظيمه ومحبة الصالحين؛ كله من أعظم الباطل، وهو انتهاك لحرمات الله وحرمات رسوله؛ لأن صرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى النبي ﷺ أو غيره ممَّن يعتقد فيهم الصلاح مستوجبٌ سَخَطَ الله وسخط النبي ﷺ وسخط كل متَّبع له بالحق.

ومعلوم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) لم يأمر بذٰلك هو ولا أحد من أصحابه، وهو ممنوع في شريعة كل نبيٍّ من الأنبياء، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لي مِن دُونِ اللهِ ولٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بما كُنْتُمْ تُعَلِّمونَ الكِتابَ وبما كُنْتُمْ تَدْرُسونَ . ولا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الملائِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بالكُفْرِ بعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ﴾، بل الذي كان يأمر به ﷺ هو ما يأمره الله بالأمر به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمونَ﴾.

واعلم أن كل عاقل إذا رأى رجلاً متديِّناً ـ في زعمه ـ مدَّعياً حب النبي ﷺ وتعظيمه ـ وهو يعظم النبي ﷺ ويمدحه بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأنزل الماء من السماء وأنبت به الحدائق ذات البهجة وأنه ﷺ هو الذي جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي

وجعل بين البحرين حاجزاً إلى آخر ما تضمنته الآيات المتقدمة ـ؛ فإن ذٰلك العاقل لا يشك في أن ذٰلك المادح المعظِّم ـ في زعمه ـ من أعداء الله ورسوله المتعدين لحدود الله، وقد علمت من الآيات المحكمات[1] أنه لا فرق بين ذٰلك وبين إجابة المضطرين وكشف السوء عن المكروبين.

فعلينا معاشر المسلمين أن ننتبه من نومة الجهل، وأن نعظم ربنا بامتثال أمره واجتناب نهيه وإخلاص العبادة له، وتعظيم نبينا ﷺ باتباعه والاقتداء به في تعظيم الله والإخلاص له والاقتداء به في كل ما جاء به، وألا نخالفه ﷺ ولا نعصيه، وألا نفعل شيئاً يُشْعِر بعدم التعظيم والاحترام؛ كرفع الأصوات قرب قبره ﷺ.

وقصدنا النصيحة والشفقة لإخواننا المسلمين؛ ليعملوا بكتاب الله، ويعظموا نبيَّه ﷺ تعظيم الموافق لما جاء به ﷺ، ويتركوا ما يسميه الجهلة محبة وتعظيماً، وهو في الحقيقة احتقارٌ وازدراءٌ وانتهاكٌ لحرمات الله ورسوله ﷺ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ولاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً ولا نَصيراً . ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وهُو مُؤمِنٌ فأُولٰئكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ولا يُظْلَمونَ نَقيراً﴾.

واعلم أيضاً (رحمك الله) أنه لا فرق بين ما ذكرنا من إجابة المضطر وكشف السوء عن المكروب وبين تحصيل المَطالب التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالحصول على الأولاد والأموال وسائر أنواع الخير؛ فإن التجاء العبد

---

(١) آيات سورة النمل: ﴿آلله خير أما يشركون أمَّن خلق. . .﴾ إلخ الآيات، وكان قد ساقها قبل ذٰلك.

إلى ربه في ذٰلك أيضاً من خصائص ربوبيته جلَّ وعلا»[1].

ثم ذكر الآيات الدَّالَّة على ذٰلك، وقال في نهاية المبحث:

«تنبيه: اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يتأمَّل في معنى العبادة، وهي تشمل جميع ما أمر الله أن يُتَقَرَّب إليه به من جميع القربات، فيخلص تقرُّبه بذٰلك إلى الله، ولا يصرف شيئاً منه لغير الله كائناً ما كان.

والظاهر أن ذٰلك يشمل هيئات العبادة، فلا ينبغي للمسلِّم عليه ﷺ أن يضع يده اليمنى على اليسرى؛ كهيئة المصلي؛ لأن هيئة الصلاة داخلة في جملتها، فينبغي أن تكون خالصة لله، كما كان ﷺ هو وأصحابه يخلصون العبادات وهيئاتها لله وحده»[2].

وفي كلامه على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ الآية من سورة آل عمران، نبَّه على أن آية المحبة الصادقة لله ورسوله هي الطاعة المطلقة، وذكر أبياتاً في ذٰلك[3].

رابعاً: الشرك في الحكم:

أولى الشيخ (رحمه الله) التحذير من هٰذا النوع من الشرك اهتماماً كبيراً؛ لعموم البلوى به في سائر أقطار المسلمين إلا من رحم الله.

ففي الوقت الذي نجده يُعنى بالتحذير من شرك الغلو في الصالحين ـ كما سبق ـ وبحماية جناب التوحيد من كل ما يخدشه دقَّ أو جلَّ ـ كما

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٦٢٣ و٦٢٤ و٦٢٥).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٦٢٦).

(٣) «الأضواء» (١ / ٢٧٨).

سبق التمثيل لذلك ـ؛ نجده يُعنى بهٰذا النوع ـ أعني الشرك في الحكم ـ عناية فائقة، وهذا يدل أوضح الدلالة على نظرته الشاملة لدين الله، وفهمه العميق لجذور البلاء ومكامن الخطر، فيصرف الدواء على بصيرة من تشخيص الداء، فهو يعطي كل قضية حجمها من دين الله، فلا يبالغ فيما خطبه يسير، ولا يهون من شأن أمر خطير.

والاتصاف بهٰذه الشمولية وبهٰذا التوازن في التعامل مع قضايا هٰذا الدين صفة العلماء الراسخين الذين عقلوا عن الله مراده، فليس من العلم ـ بله الرسوخ فيه ـ أن يعتبر الطواف بالأضرحة وتقبيل تربتها مسألة ذوقية أو مجرد تعبير عن المحبة الصادقة، في حين أننا نلهج ليل نهار بالمطالبة بتحكيم الشريعة ونبذ القوانين الوضعية، كما أنه ليس من الغيرة على الدين والبصيرة في الدعوة أن نجعل كلَّ كلامنا ودعوتنا محصوراً في التحذير من الشرك في الأضرحة في حين نغفل قضايا من الدين لا تقل عنه أهمية.

وصور الاضطراب في ضبط توازن هٰذه الأمور مجتمعة كثيرة، وآية الرسوخ في العلم السير في ذٰلك كله في ضوء الشرع المطهر، وتنزيل كل أمر المنزلة التي جعلها له الشرع الحكيم، وهو ما كان عليه الشيخ (رحمه الله).

ومن كلامه في التحذير من الشرك في الحكم قوله (رحمه الله) في كلامه الطويل على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هٰذا القُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ما نصه:

«ومن هَدْي القرآن للتي هي أقوم بيانه أن كل من اتَّبع تشريعاً غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبدالله (صلوات الله وسلامه

عليه)؛ فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفرٌ بواحٌ، مخرجٌ عن الملَّة الإسلامية.

ولما قال الكفار للنبيِّ ﷺ: الشاة تصبح ميتة من قتلها؟ فقال لهم: «الله قتلها». فقالوا له: ما ذبحتم بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة تقولون: إنه حرام، فأنتم إذن أحسن من الله؟! أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ولا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَفِسْقٌ وإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾، وحَذْفُ الفاء من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾ يدل على قسم محذوف على حد قوله في «الخلاصة»:

واحْذِفْ لَدَى اجْتِماعِ شَرْطٍ وقَسَمْ جَوابَ مَا أَخَّرْتَ فَهُوَ مُلْتَزَمْ

إذ لو كانت الجملة جواباً للشرط؛ لاقترنت بالفاء، على حد قوله في «الخلاصة» أيضاً:

واقْرِنْ بِفا حَتْماً جَواباً لَوْ جُعِلْ شَرْطاً لأَنْ أَوْ غَيْرِها لَمْ يَنْجَعِلْ

فهو قسم من الله جل وعلا، أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهٰذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾؛ لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً﴾؛ أي: ما يعبدون إلا شيطاناً، وذلك باتباعهم تشريعه، وقال: ﴿وكَذٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ. . .﴾ الآية، فسماهم (شركاء)؛ لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى، وقال عن

خليله: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطانَ. . .﴾ الآية؛ أي: بطاعته في الكفر والمعاصي، ولما سأل عديُّ ابن حاتم النبيَ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْباباً. . .﴾ الآية؛ بيَّنَ ﷺ لهُ أَنَّ معنى ذلك أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحلَّ الله وتحليل ما حرَّم، والآيات بمثل هٰذا كثيرة.

والعجب ممَّن يحكم غير تشريع الله ثم يدَّعي الإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِليكَ ومَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُريدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلى الطَّاغُوتِ وقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُروا بِهِ ويُريدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعيداً﴾، وقال: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئكَ هُمُ الكَافِرونَ﴾، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُو الَّذي أَنْزَلَ إِليكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرينَ﴾»[1].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ولاَ يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً﴾؛ قال: «قرأ هٰذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن عامر، ﴿وَلا يُشْرِكُ﴾ بالياء المثناة التحتية، وضم الكاف على الخبر، ولا نافية، والمعنى: ولا يشرك الله جل وعلا أحداً في حكمه، بل الحكم له وحده جل وعلا، لا حكم لغيره ألبتة، فالحلال ما أحلَّه تعالى، والحرام ما حرَّمه، والدين ما شرعه، والقضاء ما قضاه. وقرأه ابن عامر من السبعة، ﴿ولا تُشْرِكْ﴾؛ بضم التاء المثناة الفوقية وسكون الكاف بصيغة النهي؛ أي: لا تشرك يا نبي الله ـ أو لا تشرك أيها المخاطب ـ أحداً في حكم الله جلَّ وعلا، بل أخلص الحكم لله من شوائب شرك غيره في الحكم.

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٤٣٩ و٤٤٠ و٤٤١).

وحكمه جلَّ وعلا المذكور في قوله: ﴿ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً﴾ شامل لكل ما يقضيه جلَّ وعلا، ويدخل في ذلك التشريع دخولاً أوليّاً.

وما تضمنته هٰذه الآية الكريمة من كون الحكم لله وحده لا شريك له فيه على كلتا القراءتين جاء مبيَّناً في آيات أخر؛ كقوله تعالى: ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ عليهِ تَوَكَّلْتُ. . .﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شَيْءٍ فحُكْمُهُ إِلى اللهِ. . .﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤمِنُوا فالحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبيرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وإِليهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الحَمْدُ في الأولى والآخِرَةِ ولهُ الحُكْمُ وإِليهِ تُرْجَعُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُو الَّذي أَنْزَلَ إِليكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً﴾. . . إلى غير ذٰلك من الآيات.

ويفهم من هٰذه الآيات ـ كقوله: ﴿ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ أَحَداً﴾ ـ أنَّ مُتَّبِعِي أحكامِ المشرِّعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله، وهٰذا المفهوم جاء مبيَّناً في آيات أُخر».

ثم ذكر الآيات التي سبق نقلها قريباً، ثم قال:

«وبهٰذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جلَّ وعلا على ألسنة رسله (صلى الله عليهم وسلم) أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي

مثلهم»[1].

ثم قال: «تنبيه: اعلم أنه يجب التفصيل بين النظام الوضعي الذي يقتضي تحكيمه الكفر بخالق السماوات والأرض، وبين النظام الذي لا يقتضي ذٰلك، وإيضاح ذٰلك أن النظام قسمان: إداري وشرعي.

أما الإداري الذي يُراد به ضبط الأمور وإتقانها على وجه غير مخالف للشرع؛ فهٰذا لا مانع منه، ولا مخالف فيه من الصحابة فمن بعدهم...».

وذكر أمثلة لذٰلك، ثم قال:

«وأما النظام الشرعي المخالف لتشريع خالق السماوات والأرض؛ فتحكيمه كفر بخالق السماوات والأرض؛ كدعوى أن تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ليس بإنصاف، وأنهما يلزم استواؤهما في الميراث، وكدعوى أن تعدُّد الزوجات ظلم، وأن الطلاق ظلم للمرأة، وأن الرجم والقطع ونحوهما أعمال وحشية لا يسوغ فعلها بالإنسان... ونحو ذٰلك.

فتحكيم هٰذا النوع من النظام في أنفس المجتمع وأموالهم وأعراضهم وأنسابهم وعقولهم وأديانهم: كفر بخالق السماوات والأرض، وتمرد على نظام السماء الذي وضعه مَن خلق الخلائق كلها، وهو أعلم بمصالحها سبحانه وتعالى عن أن يكون معه مشرع آخر علوّاً كبيراً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وحَلالاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلى اللهِ

(١) «الأضواء» (٤ / ٨٢ و٨٣ و٨٤).

تَفْتَرونَ﴾، ﴿وَلا تَقُولوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هٰذا حَلالٌ وهٰذا حَرامٌ لِتَفْتَروا عَلى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذينَ يَفْتَرونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾»[1].

وقد تكلم (رحمه الله) كلاماً طويلاً على هٰذا النوع من الشرك في تفسير قوله تعالى: ﴿وما اخْتَلَفْتُمْ فيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلى اللهِ﴾ من سورة الشورى في إحدى عشرة صفحة[2]، ذكر في ست منها صفات من يستحق أن يكون الحكم له، وفي خمس كفر من حكَّم غير شرع الله بأدلة سبق ذكر أكثرها، وهو واضح في بيان مقصوده (رحمه الله).

□ توحيد الأسماء والصفات:

يسلك الشيخ (رحمه الله) مسلك أهل السنة والجماعة سلف الأمة وأئمتها المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط، وخلاصته إثبات بلا تمثيل، ونفي بلا تعطيل.

قال الشيخ (رحمه الله) في كلامه على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلى العَرْشِ . . .﴾ من سورة الأعراف ما نصه:

«هٰذه الآية الكريمة وأمثالها من آيات الصفات ـ كقوله ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْديهِم﴾ ونحو ذٰلك ـ أَشكلتْ على كثير من الناس إشكالاً ضلَّ بسببه خلق لا يحصى كثرة، فصار قوم إلى التعطيل، وقوم إلى التشبيه، سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً عن ذٰلك كله، والله جلَّ وعلا أوضح هٰذا غاية الإيضاح، ولم

---

(١) «الأضواء» (٤ / ٨٤ و٨٥).

(٢) «الأضواء» (٧ / ١٦٢ ـ ١٧٣).

يترك فيه أي لبس ولا إشكال، وحاصل تحرير ذٰلك أنه جلَّ وعلا بيَّن أن الحق في آيات الصفات متركب من أمرين:

أحدهما: تنزيه الله جلَّ وعلا عن مشابهة الحوادث في صفاتهم سبحانه وتعالى عن ذٰلك علوّاً كبيراً.

والثاني: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله، ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾.

فمَن نفى عن الله وصفاً أثبتَهُ لنفسهِ في كتابه العزيز، أو أثبته له رسوله ﷺ، زاعماً أن ذٰلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جلَّ وعلا؛ فقد جعل نفسه أعلم من الله ورسوله بما يليق بالله جل وعلا، سبحانك هٰذا بهتان عظيم، ومن اعتقد أن وصف الله يشابه صفات الخلق؛ فهو مشبه ملحد ضالٌّ، ومن أثبت لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ مع تنزيهه جلَّ وعلا عن مشابهة الخلق؛ فهو مؤمن جامع بين الإيمان بصفات الكمال والجلال والتنزيه عن مشابهة الخلق، سالم من ورطة التشبيه والتعطيل.

والآية التي أوضح الله بها هٰذا هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾، فنفى عن نفسهِ جلَّ وعلا مماثلة الحوادث بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأثبت لنفسه صفات الكمال والجلال بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾، فصرَّح في هٰذه الآية الكريمة بنفي المماثلة مع الاتصاف بصفات الكمال والجلال»[1].

---

(١) «الأضواء» (٢ / ٣٠٤ و٣٠٥).

ورد على المتكلِّمين الذين قسموا صفاته جلَّ وعلا إلى ستة أقسام: نفسية، وسلبية، وصفة معنى، وصفة معنوية، وصفة فعلية، وصفة جامعة، حيث قال:

«وسنبيِّنُ لك أن جميع الصفات على تقسيمهم لها جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها، وهم في بعض ذٰلك يقرُّون بأن الخالق موصوف بها، وأنها جاء في القرآن أيضاً وصف المخلوق بها، ولكن وصف الخالق مناف لوصف المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق، ويلزمهم ضرورة فيما أنكروا مثل ما أقروا به؛ لأن الكل من باب واحد؛ لأن جميع صفات الله جلَّ وعلا من باب واحد؛ لأن المتصف بها لا يشبهه شيء من الحوادث، فمن ذٰلك الصفات السبع المعروفة عندهم بصفات المعاني، وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام...».

ثم شرع يذكر وصف الله سبحانه نفسه بها ووَصْفَه بعضَ خلقه بها في كتابه، وبيَّن ذٰلك أيضاً في جميع أقسام صفاته جلَّ وعلا عند المتكلمين.

وبالجملة؛ فالشيخ (رحمه الله) يسلك مسلك السابقين الأولين في الإثبات والنفي، وقد أفصح عن منهجه، وردَّ على المخالفين بتوسع في الموضع المشار إليه قريباً في ثمان عشرة صفحة[1]، وفي أربع وثلاثين صفحة في كلامه الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ﴾ من

---

(١) «الأضواء» (٢ / ٣٠٤ - ٣٢١).

سورة محمد[1].

وأحب أن أنقل نماذج تبيِّن التزامه بهٰذا المنهج من مواضع متفرقة من «الأضواء»، فمن ذٰلك:

١ ـ في قوله تعالى: ﴿هل يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ من سورة الأنعام؛ قال (رحمه الله):

«ومثل هٰذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يُمرُّ كما جاء، ويُؤمَن بها، ويُعْتَقَد أنه حق، وأنه لا يشبه صفات المخلوقين»[2].

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ من سورة الأعراف؛ قال (رحمه الله):

«تنبيه: في هٰذه الآية الكريمة الرد الصريح على المعتزلة النافين صفات المعاني، القائلين: إنه عالم بذاته لا بصفة قامت بذاته هي العلم، وهٰكذا في قولهم: قادر، مريد، حي، سميع، بصير، متكلم؛ فإنه أثبت لنفسه صفة العلم بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ الآية، وهي أدلة قرآنية صريحة في بطلان مذهبهم الذي لا يشك عاقل في بطلانه وتناقضه»[3].

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿ومَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ قالَ (رحمه الله):

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٤٤٣ ـ ٤٧٧).

(٢) «الأضواء» (٢ / ٢٨٤).

(٣) «الأضواء» (٢ / ٢٩١).

«واعلم أن الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتهكت حرماته، تظهر آثارها في المغضوب عليهم، نعوذ بالله من غضبه جلَّ وعلا، ونحن معاشر المسلمين نمرُّها كما جاءت، فنصدِّق ربَّنا في كل ما وصف به نفسه، ولا نكذِّب بشيء من ذٰلك، مع تنزيهنا التام له جلَّ وعلا عن مشابهة المخلوقين سبحانه وتعالى عن ذٰلك علوّاً كبيراً»[1].

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ من سورة القصص؛ قال (رحمه الله):

«والوجه من الصفات التي يجب الإيمان بها، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق»[2].

٥ ـ في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ من سورة الصافات؛ قال (رحمه الله):

«وقرأ حمزة والكسائي: ﴿بل عَجِبْتُ﴾؛ بضم التاء، وهي تاء المتكلم، وهو الله جلَّ وعلا... وبذٰلك تعلم أن هٰذه الآية الكريمة على قراءة حمزة والكسائي فيها إثبات العَجَب لله تعالى، فهي إذاً من آيات الصفات على هٰذه القراءة، وقد أوضحْنا طريق الحق التي هي مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها في سورة الأعراف...»[3] إلخ.

٦ ـ في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

---

(١) «الأضواء» (٤ / ٤٨٨).

(٢) «الأضواء» (٦ / ٤٥٧).

(٣) «الأضواء» (٦ / ٦٨٠).

مُحْسِنونَ﴾؛ قال (رحمه الله):

«وهٰـذه المعيَّة خاصـة بعبـادة المؤمنين، وهي بالإعـانـة والنصـر والتوفيق، وكرَّر هٰذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿إِنَّني معكُما أَسْمَعُ وأَرى﴾، وقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾، وقوله: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾... إلى غير ذٰلك من الآيات.

وأما المعية العامة لجميع الخلق؛ فهي بالإحاطة التامة والعلم ونفوذ القـدرة وكون الجميع في قبضته جلَّ وعلا، فالكائنات في يده جلَّ وعلا أصغر من حبة خردل، وهٰذه هي المذكورة أيضاً في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ولا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ولا أَدْنَى مِنْ ذٰلـكَ ولا أَكْثَـرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ...﴾ الآية، وقوله: ﴿وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ...﴾ الآية، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وما كُنَّا غَائِبِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ في شأْنٍ وما تَتْلو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ولا تَعْمَلُونَ مِن عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذ تُفِيْضُونَ فيهِ...﴾ الآية، إلى غير ذٰلك من الآيات.

فهو جل وعلا مستو على عرشه كما قال، على الكيفية اللائقة بكماله وجلاله، وهو محيط بخلقه كلهم في قبضة يده، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين[1].

٧ ـ وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿والسَّماءَ بَنَيْنَاها بأَيْدٍ﴾ بيَّنَ أن هٰذه الآية ليست من آيات الصفات المعروفة بهٰذا الاسم، وأن معناها القوة،

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٣٨٩ و٣٩٠).

وبيَّن اشتقاقها وميزانها الصرفي؛ مفرقاً في ذٰلك بينها وبين (أيد) التي هي جمع (يد)، فهٰذه على وزن أفْعُل، والمذكورة في الآية على وزن (فَعْل)[1].

وكلامه (رحمه الله) في تقرير هٰذا النوع من التوحيد طويل في «الأضواء»، وقد أشرت إلى جميع مواضعه، وله فيه رسالة مستقلة سبق ذكرها في مؤلفاته، وله جواب عن سؤال وجِّهَ إليه في رحلته للحج سبق ذكره والإحالة عليه في سياق رحلته (رحمه الله).

□ **مسائل عقدية أخرى:**

أولاً: مسائل الإيمان:

صرَّح الشيخ في أكثر من موضع من «الأضواء» بأن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص، ورد على من خالف ذٰلك، فمن ذٰلك:

١ ـ قوله (رحمه الله) في كلامه على قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ ولا الإِيْمانُ﴾ من سورة الشورى بعد أن بيَّن أن المراد بالكتاب هو تفاصيل هٰذا الدين الإسلامي ما نصه:

«ومعلوم أن الحق الذي لا شك فيه الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شاملٌ للقول والعمل مع الاعتقاد، وذٰلك ثابت في أحاديث صحيحة كثيرة، منها حديث وفد عبدالقيس المشهور، ومنها حديث: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً...» الحديث، فسمى فيه قيام رمضان إيماناً، وحديث «الإيمان بضع وسبعون شعبة»، وفي بعض رواياته:

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٦٦٩).

«بضع وستون شعبة: أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»، والأحاديث بمثل ذلك كثيرة، ويكفي في ذلك ما أورده البيهقي في «شعب الإيمان»، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة وأوقاتها ولا صوم رمضان وما يجوز فيه وما لا يجوز ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة ولا ما تجب فيه ولا قدر النصاب وقدر الواجب فيه ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهٰذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ولا الإِيْمانَ﴾»[1].

٢ ـ في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأعْرابُ آمَنّا. . .﴾ الآية من سورة الحجرات؛ قال (رحمه الله):

«وقد قدمنا مراراً أن مسمَّى الإيمان الشرعي الصحيح والإسلام الشرعي الصحيح هو استسلام القلب بالاعتقاد واللسان بالإقرار والجوارح بالعمل، فمؤدَّاهما واحد. . .»[2] إلخ كلامه.

٣ ـ عند قوله تعالى: ﴿وزِدْناهُم هُدىً﴾ في سورة الكهف ذكر الآيات الدالَّة على زيادة الإيمان، ثم قال (رحمه الله):

«وهٰذه الآيات المذكورة نصوص صريحة في أن الإيمان يزيد، مفهوم منها أنه ينقص أيضاً؛ كما استدلَّ بها البخاري (رحمه الله) على ذلك، وهي تدلُّ عليه دلالة صريحة لا شك فيها، فلا وجه معها للاختلاف في زيادة الإيمان ونقصه كما ترى»[3].

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٢٠١).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٦٣٦).

(٣) «الأضواء» (٤ / ٢٩).

٤ ـ في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيْماناً وتَسْلِيماً﴾ من سورة الأحزاب؛ قال (رحمه الله):

«وهو صريح في أن الإيمان يزيد، وقد صرَّح الله بذلك في آيات من كتابه، فلا وجه للاختلاف فيه مع تصريح الله جلَّ وعلا به في كتابه في آيات متعددة؛ كقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيْماناً مَعَ إِيْمانِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْماناً﴾... إلى غير ذلك من الآيات»[1].

ثانياً: مسألة القدر:

بيَّن الشيخ (رحمه الله) معتقده في القدر في ثنايا ردِّه على الفرق الضالة فيه:

١ ـ فقد ردَّ على الجبرية عند كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً﴾ الآية من سورة الكهف، حيث قال:

«فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون؛ لأن الله جعل الأكنَّة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم، فهم مجبورون، فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟! فالجواب: أن الله جلَّ وعلا بيَّن في آيات كثيرة من كتابه العظيم أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ـ كالختم والطبع والغشاوة والأكنة ونحو ذلك ـ إنما جعلها عليهم جزاء وفاقاً لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل

---

(١) «الأضواء» (٦ / ٥٧٤).

باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنَّة ونحو ذٰلك جزاءً على كفرهم.

فمن الآيات الدالَّة على ذٰلك قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بسبب كفرهم، وهو نصٌّ قرآنيٌّ صريحٌ في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلوبَهُمْ﴾، وهو دليلٌ أيضاً واضحٌ على أن سبب إزاغة الله قلوبهم هو زيغهم السابق، وقوله: ﴿ذٰلك بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً...﴾ الآية، وقوله: ﴿ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قُلوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾... إلى غير ذٰلك من الآيات الدالَّة على أن الطبع على القلوب ومنعها من فهم ما ينفع عقابٌ من الله على الكفر السابق على ذٰلك، وهٰذا الذي ذكرنا هو وجه ردِّ شبهة الجبرية التي يتمسَّكون بها في هٰذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم»[1].

٢ ـ ورد على القدرية ـ نفاة القدر ـ في سبعة مواضع من «الأضواء» منها:

أ ـ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً﴾ من سورة الإسراء، حيث بيَّن أن فيها الردَّ الواضح عليهم، وقال:

«سبحانه وتعالى علوّاً كبيراً أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ

---

(١) «الأضواء» (٤ / ١٤٤ و١٤٥).

اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلى الهُدَى﴾»[1].

ب ـ حين ذكر قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهِ فَهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ من سورة الكهف، وذكر الآيات الموضحة لها من كتاب الله؛ قال:

«ويؤخذ من هٰذه الآيات وأمثالها في القرآن بطلان مذهب القدرية أن العبد مستقلٌّ بعمله من خير أو شر، وأن ذٰلك ليس بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد»[2].

ج ـ في قوله تعالى حاكياً عن عيسى (عليه السلام): ﴿قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ...﴾ إلى قوله: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾؛ نقل قول الإمام مالك (رحمه الله):

«ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى (عليه السلام) بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت»[3].

د ـ عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ومَا يَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾ من سورة الفرقان؛ قال:

«واعلم أن ما ذكره الزمخشري في هٰذه الآية وأطنب فيه من أن الله لا يضلُّ أحداً: مذهبُ المعتزلة، وهو مذهبٌ باطلٌ، وبطلانه في غاية الوضوح من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإياك أن تغترَّ به»[4].

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٥٩٧).

(٢) «الأضواء» (٤ / ٤٠).

(٣) «الأضواء» (٤ / ٢٧٥).

(٤) «الأضواء» (٦ / ٣٠٠).

هـ ـ عند قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا واتَّبَعَ هَوَاهُ وكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ من سورة الكهف بنحوٍ ممَّا سبق.

و ـ ضمن كلامه على قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كانَ للرَّحمٰنِ وَلَدٌ فأَنا أَوَّلُ العَابِدينَ﴾ من سورة الزخرف بعد أن ذكر قول الزمخشري ضارباً المثل للآية: «ونظيره أن يقول العدلي للمجبر: إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه عذاباً سرمداً؛ فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله»[1]، حيث قال في نهاية رده عليه:

«فالإيمان بالقدر خيره وشرِّه الذي هو من عقائد المسلمين جعله الزمخشري يقتضي أن الله شيطان سبحان الله وتعالى عما يقوله الزمخشري علوّاً كبيراً، وجزى الزمخشري بما هو أهله»[2].

ز ـ وقد بسط مسألة القضاء والقدر، وأوضح مذهب أهل السنة الذي هو وسط بين الجبرية والقدرية في كلامه على قوله تعالى: ﴿وقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْناهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصونَ﴾ في ست صفحات[3]، فأغنت الإحالة عليها عن نقلها هنا.

ثالثاً: مسألة رؤية الله في الآخرة:

في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيكَ قالَ لَنْ تَرَانِي﴾ من سورة الأعراف؛ قال (رحمه الله):

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٣٠٠).

(٢) «الأضواء» (٧ / ٣٠٤).

(٣) «الأضواء» (٧ / ٢٢٠ ـ ٢٢٦).

«واستدلال المعتزلة النافين لرؤية الله بالأبصار يوم القيامة بهٰذه الآية على مذهبهم باطل.

وقد جاءت آيات تدلُّ على أن نفي الرؤية المذكور إنما هو في الدُّنيا، وأما في الآخرة؛ فإن المؤمنين يرونه جلَّ وعلا بأبصارهم؛ كما صرَّح به تعالى في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلى رَبِّها نَاظِرَةٌ﴾، وقوله في الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾؛ فإنه يفهم من مفهوم مخالفته أن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه جلَّ وعلا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيَادَةٌ﴾: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، وذٰلك هو أحد القولين في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنا مَزِيْدٌ﴾.

وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم.

وتحقيق المقام في المسألة أن رؤية الله جلَّ وعلا بالأبصار جائزة عقلاً في الدُّنيا والآخرة، ومن أعظم الأدلَّة على جوازها عقلاً في دار الدنيا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِليكَ﴾؛ لأن موسى لا يخفى عليه الجائز والمستحيل في حق الله تعالى، وأما شرعاً؛ فهي جائزة وواقعة في الآخرة؛ كما دلَّت عليه الآيات المذكورة، وتواترت به الأحاديث الصحاح، وأما في الدُّنيا؛ فممنوعة شرعاً كما تدلُّ عليه آية الأعراف هٰذه، وحديث: إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا»[1].

---

(١) «الأضواء» (٢ / ٣٣٢)، وقريب منه ما في (٥ / ٦٣٤، ٦ / ٣٠٤).

رابعاً: تأثير السحر في الرسول ﷺ:

أثبت ذٰلك الشيخ، وأنه لا يستلزم نقصاً ولا مُحالاً شرعيّاً حتى تُردَّ بهِ الروايات الصَّحيحة؛ لأنه من نوع الأمراض البشرية؛ كالأمراض المؤثرة في الأجسام، ولم يؤثر ألبتة في ما يتعلق بالتبليغ[1]، ورد (رحمه الله) على مَن منع ذٰلك، وبحث المسألة في ثلاث صفحات[2].

خامساً: المعدوم ليس بشيء خلافاً للمعتزلة:

صرح الشيخ بذٰلك ورد على المعتزلة عند كلامه على قوله تعالى من سورة مريم: ﴿وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾، حيث قال (رحمه الله):

«وقوله تعالى في هٰذه الآية الكريمة: ﴿ولَمْ تَكُ شَيْئاً﴾؛ دليل على أن المعدوم ليس بشيء، ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾.

وهٰذا هو الصواب؛ خلافاً للمعتزلة القائلين: إن المعدوم الممكن وجوده شيء؛ مستدلين لذٰلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكونُ﴾؛ قالوا: قد سماه الله شيئاً قبل أن يقول له: كن فيكون، وهو يدل على أنه شيء قبل وجوده...

والتحقيق هو ما دلَّت عليه هٰذه الآية وأمثالها في القرآن من أن المعدوم ليس بشيء، والجواب عن استدلالهم بالآية أن ذٰلك المعدوم لما

---

(١) «الأضواء» (٤ / ٤٦٨).

(٢) «الأضواء» (٤ / ٤٦٨ - ٤٧١).

تعلَّقت الإرادة بإيجاده؛ صار تحقُّق وقوعه كوقوعه بالفعل؛ كقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فلا تَسْتَعْجِلوهُ﴾، وقوله: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ﴾، وقوله: ﴿وأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها ووُضِعَ الكِتابُ وجِيءَ بالنبِيِّينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿وسِيقَ الَّذينَ كَفَروا. . .﴾ الآية، وقوله: ﴿وسِيقَ الَّذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ. . .﴾ الآية، وأمثال ذٰلك؛ كل هٰذه الأفعال الماضية الدالَّة على الوقوع بالفعل فيما مضى أطلقت مراداً بها المستقبل؛ لأن تحقُّق وقوع ما ذكر صيَّره كالواقع بالفعل، وكذٰلك تسميته شيئاً قبل وجوده لتحقُّق وجوده بإرادة الله تعالى»[1].

سادساً: الاستدلال بالإلهام والخواطر والرد على الصوفية والجبرية في ذٰلك:

في كلامه (رحمه الله) على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ بعد أن بيَّن أن الرحمة والعلم اللدُنِّي اللذين امتنَّ الله بهما على الخضر عن طريق النبوة والوحي مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ أي: وإنما فعلته عن أمر الله، وأمر الله وإنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي؛ قال (رحمه الله):

«فإن قيل: قد يكون ذٰلك عن طريق الإلهام؟ فالجواب أن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء؛ لعدم العصمة، وعدم الدليل على الاستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الاستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام في

---

(١) «الأضواء» (٤ / ٢١٧ و٢١٨)، وأحال عليه في (٦ / ٦٦٧).

حق الملهَم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الاحتجاج بالإلهام في حق الملهَم وغيره؛ جاعلين الإلهام كالوحي المسموع، مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسلامِ﴾، وبخبر: «اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمِنِ فإنَّهُ ينْظُرُ بنُورِ اللهِ»؛ كلُّه باطل، لا يعوَّل عليه، لعدم اعتضاده بدليل، وغير المعصوم لا ثقة بخواطره؛ لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضُمِنت الهداية في اتباع الشرع، ولم تُضْمَن في اتباع الخواطر والإلهامات، والإلهام في الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر في حجة عقلية يختص الله به من يشاء من خلقه، أما ما يلهَمه الأنبياء مما يلقيه الله في قلوبهم؛ فليس كإلهام غيرهم؛ لأنهم معصومون؛ بخلاف غيرهم؛ قال في «مراقي السعود» في كتاب الاستدلال:

ويُنْبَذُ الإِلْهامُ في العَراءِ ... أَعْنِي بِهِ إِلْهَامَ الاوْلِياءِ
وقَدْ رَآهُ بَعْضُ مَنْ تَصَوَّفا ... وعِصْمَةُ النَّبِيِّ تُوجِبُ اقْتِفا

وبالجملة؛ فلا يخفى على مَن له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرَّب إليه به من فعل وترك إلا عن طريق الوحي، فمَن ادَّعى أنه غنيٌّ في الوصول إلى ما يرضي ربه عن الرسل وما جاؤوا به، ولو في مسألة واحدة؛ فلا شك في زندقته، والآيات والأحاديث الدالَّة على هٰذا لا تُحصى.

قال تعالى: ﴿ومَا كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، ولم يقل: حتى نلقي في القلوب إلهاماً، وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ لِئلاَّ يَكُونَ للنَّاسِ عَلى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بعَذابٍ مِنْ

قَبْلِهِ لَقَالوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ. . .﴾ الآية، والآيات والأحاديث بمثل هٰذا كثيرة جدّاً.

وبذٰلك تعلم أن ما يدَّعيه كثير من الجهلة المدَّعين التصوُّف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى: زندقة وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره»[1].

ثم نقل كلاماً للقرطبي في هٰذا المعنى، ثم قال (رحمه الله):

«وما يستدل به بعض الجهلة ممَّن يدَّعي التصوُّف على اعتبار الإلهام من ظواهر بعض النصوص؛ كحديث: «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك»؛ لا دليل فيه ألبتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممَّن يعتدُّ به أن المفتي الذي تُتلقَّى الأحكام الشرعية من قِبَله القلب، بل معنى الحديث التحذير من الشبه؛ لأن الحرام بيِّن والحلال بيِّن، وبينهما أمور مشتبهة لا يعلمها كل الناس، فقد يفتيك المفتي بحِلِّيَّة شيء وأنت تعلم من طريق أخرى أنه يحتمل أن يكون حراماً، وذٰلك باستناد إلى الشرع؛ فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشبهة، والحديث كقوله: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وقوله ﷺ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس» رواه مسلم من حديث النواس بن سمعان (رضي الله عنه). . .».

---

(١) «الأضواء» (٤ / ١٥٩ و١٦٠).

وذكر أحاديث في نفس المعنى، وبيَّن المراد منها، ثم قال:

«ومما يدلُّ على ما ذكرنا من كلام أهل الصوفية المشهود لهم بالخير والدين والصلاح قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري (رحمه الله): «مذهبنا هٰذا مقيَّد بالكتاب والسنة»، نقله عنه غير واحد ممَّن ترجمه (رحمه الله)؛ كابن كثير، وابن خلِّكان، وغيرهما، ولا شك أن كلامه المذكور هو الحق، فلا أمر ولا نهي إلا على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام»[1].

سابعاً: الرد على بعض الزنادقة في معنى قوله تعالى: ﴿واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾:

قال (رحمه الله) بعد أن بيَّن معنى الآية ما نصه:

«التنبيه الثاني: اعلم أن ما يفسر به هٰذه الآية الكريمة بعض الزنادقة الكفرة المدَّعين للتصوف من أن معنى اليقين المعرفة بالله جلَّ وعلا، وأن الآية تدلُّ على أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدرجة المعبَّر عنها باليقين أنه تسقط عنه العبادات والتكاليف؛ لأن ذٰلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة؛ أن تفسير الآية بهٰذا كفر بالله وزندقة وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهٰذا النوع لا يسمى في الاصطلاح تأويلاً، بل يسمى لعباً كما قدمنا في آل عمران، ومعلوم أن الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم هم وأصحابهم) هم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع ذٰلك أكثر الناس عبادة لله جلَّ وعلا،

---

(١) «الأضواء» (٤ / ١٦١ و١٦٢).

وأشدهم خوفاً منه وطمعاً في رحمته، وقد قال جل وعلا: ﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلماءُ﴾، والعلم عند الله تعالى»[1].

ثامناً: مسائل متفرقة:

وهناك مسائل تُبحث في كتب العقيدة، وقد يكون الخلاف في بعضها دائراً بين أهل السنة؛ لأنها مما يقبل فيها الخلاف، وسأكتفي بالإشارة إلى مواضعها، فمن ذٰلك:

١ ـ **صحة خلافة الخلفاء الراشدين**: استدل لها بقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. . .﴾ الآيات من سورة الحج[2]، ولا خلاف في ذٰلك عند أهل السنة.

٢ ـ **نزول عيسى**: بحث المسألة بحثاً مطوَّلاً في اثنتي عشرة صفحة، ورد على من أنكره، عند قوله تعالى: ﴿وإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَةِ﴾ من سورة الزخرف[3]، ولا خلاف فيه عند أهل السنة.

٣ ـ **عصمة الأنبياء**: بحث المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى﴾ من سورة طه[4].

٤ ـ **حكم أهل الفترة**: بحث المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسولاً﴾ من سورة الإسراء بحثاً مطوَّلاً يقع في ثلاث

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٢٠٧).

(٢) «الأضواء» (٥ / ٧٠٤).

(٣) «الأضواء» (٧ / ٢٦٣ ـ ٢٧٥).

(٤) «الأضواء» (٤ / ٥٣٦ ـ ٥٣٨)، وانظر: (٤ / ٥٢٢).

عشرة صفحة[1]، ناقش فيها الأدلة، وجمع بين ما ظاهره التعارض منها، ورجَّح أنهم يمتحنون يوم القيامة بأن يأمرهم الله بدخول النار، فمَن دخلها؛ فهو في الجنة، وهو الذي سيطيع لو جاءته الرسل، ومن تردَّد وأبى؛ دخل النار، وهو الذي سيكذب لو جاءته الرسل، والمسألة فيها خلاف داخل دائرة أهل السنة.

٥ ـ **الفرق بين النبي والرسول**: قال (رحمه الله): «وآية الحج هٰذه تبيِّن أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبي هو مَن أوحي إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه؛ غير صحيح؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ولا نَبِيٍّ . . .﴾ الآية يدل على أن كلًّا منهما مرسلٌ، وأنهما مع ذٰلك بينهما تغايرٌ.

واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة؛ كما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿يَحْكُمُ بِها النَّبِيُّونَ الَّذينَ أَسْلَموا﴾ الآية»[2].

والمسألة فيها خلاف داخل أهل السنة.

---

(١) «الأضواء» (٣ / ٤٧١ ـ ٤٨٤).

(٢) «الأضواء» (٥ / ٧٣٥).

٦ ـ **التشاؤم**: حذر منه عند كلامه على قوله تعالى: ﴿فأَرْسَلْنا عليهِمْ رِيحاً صَرْصراً في أَيَّامٍ نَحِساتٍ﴾ من سورة فصلت حين ردَّ على مَن زعم أن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء[1].

٧ ـ **الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل**: صرح بذلك مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وهُزِّي إليكِ بجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ من سورة مريم[2] وغيرها من الأدلة.

٨ ـ **تعريف الكبيرة وعدد الكبائر**: بحث المسألة عند كلامه على قوله تعالى: ﴿والَّذينَ يَجْتَنِبونَ كَبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ﴾ من سورة الشورى[3]، والمسألة فيها فيها خلاف داخل أهل السنة.

٩ ـ **مؤمنو الجنِّ يدخلون الجنة**: قرَّر الشيخ (رحمه الله) ذلك عند قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنا أَجِيْبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ﴾[4] الآية؛ مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ولِمَنْ خَافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ وغيرها من الأدلَّة، وهي موضع خلاف عند علماء أهل السنة.

١٠ ـ **انتفاع الميت بعمل غيره**: بحث المسألة عند قوله تعالى: ﴿وأَنْ لَيْسَ للإنسانِ إلَّا مَا سَعَى﴾، حيث بيَّن أنها تدلُّ على أنه لا يستحقُّ أجراً إلا على سعيه بنفسه، ولم تتعرَّض لانتفاعه بسعي غيره بنفي ولا إثبات، وقوله تعالى: ﴿والَّذينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بإيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ

---

(١) «الأضواء» (٧ / ١٢٣ ـ ١٢٥).

(٢) «الأضواء» (٤ / ٢٥٠).

(٣) «الأضواء» (٧ / ١٩٩ و٢٠٠).

(٤) «الأضواء» (٧ / ٤٠١ ـ ٤٠٧).

ذُرِّيَّتَهُمْ وما أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على أنه قد انتفع بسعي غيره[1]. . . إلخ كلامه، والمسألة موضع خلاف داخل أهل السنة.

١١ ـ **موت الخضر (عليه السلام)**: قرر الشيخ (رحمه الله) ذٰلك، وأثبته بالأدلة الواضحة، وناقش أدلة القائلين بحياته، وفنَّد ما ينسج حوله من قصص وخرافات في أربع عشرة صفحة في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ من سورة الكهف[2].

وأكتفي بهٰذه الجولة في «الأضواء»، والتي أرجو أن تكون أدت المقصود، وكشفت لنا عن جانب الوسطية الذي تميز به الشيخ (رحمه الله) في سائر شؤونه، والذي هو منهج أهل السنة والجماعة في كل الأمور.

□□□□□

---

(١) «الأضواء» (٧ / ٧٠٨ ـ ٧١٠).

(٢) «الأضواء» (٤ / ١٦٣ ـ ١٧٧).

الفصلُ الخامسُ
مَآثِرُهُ ومَراثيهِ

المبحث الأول
وفاتُهُ ومراثيهِ

□ **وفاتُه:**

حدثني الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي ـ وهو غاسل الشيخ (رحمه الله) ـ؛ قال:

«لما جاء الشيخ (رحمه الله) للسعي يوم الحج الأكبر؛ سعى شوطاً واحداً على قدميه، ثم أُخِذَت له العربة، فحصل معه ضيق في التنفس من ذلك الشوط الذي طافه على قدميه، وتوفي في اليوم السابع عشر من ذي الحجة من عام ثلاث وتسعين وثلاث مئة وألف للهجرة ضحى يوم الخميس[1]، وغسلته في بيته بمكة بشارع المنصور» اهـ.

---

(١) وهو أمر مستفيض لدى طلابه وكل من يعرفه (رحمه الله).

وانظر: «حلية طالب العلم» (ص ١٢)، و«ترجمة الشيخ عطية سالم له» (ص ٧)، و«المعين والزاد» (ص ١٠٤).

وصلى عليه سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز في الحرم المكي مع من حضر من المسلمين بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم.

وفي ليلة الأحد أقيمت عليه صلاة الغائب بالمسجد النبوي، وصلى عليه الشيخ عبدالعزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي بعد صلاة العشاء مباشرة[1].

ودُفن بمقبرة المعلاة[2] بريع الحجون بمكة (حرسها الله آمين).

وقال الشيخ أحمد المذكور آنفاً: «ومن الغريب أن أحد الإخوة وهو أحد أقاربه حاج معه في سيارته، فرأى ليلة جُمَع أن الرسول ﷺ توفي، وأنه جاءه فوجده مسجىً عليه ثوب، فرفع الثوب، فوجد أن الميت نبي ولكنه ليس محمداً ﷺ، فقبَّله في جبينه، فلما حكى الرؤيا على الشيخ؛ سأله: وما يدريك أنه ليس بمحمد؟ قال: إنه لم تتوفر فيه الصفات الثابتة بالسنة التي نعرفها. فتكدَّر وجه الشيخ. فقال الرجل: أظنه أضغاث أحلام. فقال الشيخ: لا؛ بل هي رؤيا، ولكن يقضي الله خيراً.

□ **مراثيه:**

وقد رثاه عدد كبير من طلابه ومحبِّيه، أذكر منهم:

١ ـ تلميذه وابن عمه الشيخ أحمد بن أحمد الجكني الشنقيطي في قصيدة من ستة وعشرين بيتاً يقول فيها[3]:

---

(١) «الترجمة» (ص ٧)، و«المعين والزاد» (ص ١٠٤)؛ بتصرف لا يخل بالمعنى.

(٢) انظر: «الترجمة» (ص ٧)، و«المعين والزاد» (ص ١٠٤)، وذكر ذلك لي الشيخ أحمد المذكور وهو مستفيض.

(٣) أخذتها من كاتبها الشيخ أحمد حفظه الله.

مَوْتُ الإِمَامِ الحَبْرِ مِنْ جَاكَاني ... رُزْءٌ أَلَمَّ بأُمَّةِ العَدْنَاني

يا لَلْمُصِيبَةِ للبَرِيَّةِ أَنَّها ... فَقَدَتْ عَظيمَ مَناهِلِ العِرْفانِ

شَيْخاً أَضاءَ مِنَ العَقيدَةِ نَيِّراً ... أَرْسَاهُ فوْقَ دَعائِمِ البُرْهانِ

أَعْشَى سَناهُ كُلَّ جَهْمٍ مُلْحِدٍ ... نَبَذَ الكِتابَ لِمَنْطِقِ اليُونَانِ

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... حاوٍ لِكُلِّ تَراجِمِ الفُرْقانِ

أَوَمَا حَضَرْتَ هُنَيَّةً لدُروسِهِ ... وسَمِعْتَ هٰذا العالِمَ الرَّبَّاني

ورأَيْتَ كَيْفَ اللهُ فاوَتَ خَلْقَهُ ... هٰذا أَراهُ مَدَارِكَ الإِيْمانِ

إلى أن قال:

أَبْكِي الأمينَ ولَيْتَني مِنْ عِلْمِهِ ... مَا عِشْتُ فُزْتُ بِنَيْلِ كُلِّ بَيانِ

أَبْكِي الأمينَ مُحَمَّداً وا إِنَّني ... أَبْكِي الأمينَ لِشِرْعَةِ القُرْآنِ

مَنْ ذَا يَلُومُكَ إِنْ بَكَيْتَ مُفَوَّهاً ... سَمْحَ الخَليقَةِ مِنْ بَني الإِنْسانِ

كَفَّ اللِّسانَ عَنِ المناكِرِ مُطْلَقاً ... بَرّاً جَزاهُ اللهُ بالرِّضْوانِ

هَلاَّ يَلُومُ تُماضِراً في صَخْرِها ... هَلاَّ يَلُومُ مُتَمِّماً هٰذانِ

أَنْتَ الحَرِيُّ بِأَنْ تَفُوقَ بُكاهُما ... أَوَما رُزِئْتَ بِفائِقِ الأَقْرانِ

مَنْ كَانَ يُقْرِيكَ العُلومَ بأَسْرِها ... تَوْحِيدَها بالحَقِّ والبُرْهانِ

مَنْ كانَ يُقْرِيكَ الكِتابَ مُبَيِّناً ... كيفَ اختلافُ مَذاهِبِ الأَدْيانِ

فالفِقْهُ كانَ الطَّوْدَ في أَحكامِهِ ... عَنْ مَالِكٍ وكَذٰلِكَ الشَّيْبانِي

وعَنِ الفَقيهِ الشَّافِعِيِّ مُحَمَّدٍ ... والفارِسِيِّ العالِمِ النُّعْمَانِي

والنَّحْوُ كَانَ الفَذَّ في إِتقانِهِ ... في الصَّرْفِ كانَ الطَّوْدَ كَالبُنْيانِ

أَمّا البَلاغَةُ فَهْوَ فيها سَيِّدٌ ... قَدْ فاقَ عَبْدَ القاهِرِ الجُرْجانِي

أَرْجُو الَّذي جَمَعَ العَزيزَ بأَهْلِهِ ... مِنَّا عليهِ بِنِعْمَةِ الإِحسانِ

أَنْ يَحْتَفِي بِلقائِنَا في جَنَّةٍ ... مَشْحُونَةٍ بالحُورِ والوِلْدانِ
يا رَبِّ بَرِّدْ قَبْرَهُ مُتَفَضِّلاً ... وامْنُنْ عليهِ بنِعْمَةِ الرِّضْوانِ
ثمَّ الصَّلاةُ عَلى النبيِّ محمَّدٍ ... خَيْرِ البَرِيَّةِ مِنْ بَنِي عَدْنانِ

٢ ـ الشيخ محمد بن عبدالله بن أحمد مزيد الجكني الشنقيطي:

رثاه بقصيدة تقع في واحد وعشرين بيتاً يقول فيها:

نَعَى الأمينَ نُعاةٌ قَدْ نَعَوْا عَلَما ... بَحْراً خِضَمّاً بِمَوْجِ العِلْمِ مُلْتَطِما
أَبْكَتْهُ أَجْيالُ عِلْمٍ حِينَ عُدَّ لَهُ ... رَيْعُ الحَجُونِ مَصيراً بَعْدَما خُتِما
مَا كَانَ يَرْغَبُ في السُّكْنى بذِي بَلَدٍ ... غيرِ المَدينَةِ طابَتْ مَسْكَن الكرما
فَبَنَى بها وببيتِ اللهِ دارَ سَكَنْ ... فالخَيْرُ فيما أَرادَ اللهُ مُنْحَتِما
رُزْءٌ أَلَمَّ فَعَمَّ العالَمينَ وقَدْ ... أَتَى لِيَثْلِمَ دِينَ اللهِ فانْثَلَما
مَوْتٌ أَتَانَا لِيُنْسِينَا مَصائِبَنا ... فَقْدانُ مَنْ أَفْهَمَ الجُهَّالَ والعُلَما
أَدْهَى المَصائِبِ ما بالدِّينِ قَدْ نَزَلَتْ ... والمُسْلِمونَ عُموماً لاقَوُا الألَما
علْماً وحِلْماً فَقَدْنا بَعْدَهُ وبِهِ ... تَبْكِي السَّماءُ وتَبْكِي الأَرْضُ فَقْدَهُما
دَعا إلى اللهِ بالقُرآنِ إِخْوَتَهُ ... وحَثَّهُمْ عُمُراً بِجَعْلِهِ حَكَما

إلى أن قال:

مَنْ للنَّوازِلِ مِثْلُ الشَّيْخِ إِنْ نَزَلَتْ ... أَوْ للحَوادِثِ إِنْ أَدْمَتْ بنا كَلْما
أَضْواؤهُ كَشَفَتْ أَبْعَادَ مَطْلَبِهِ ... والدَّفْعُ يَدْفَعُ ما في الوَحْيِ قَدْ وُهِما
إِنَّ النُّصوصَ لها جُرْحٌ بِهِ أَثَرٌ ... قَدْ كَانَ يَلأَمُهُ بالعِلْمِ فالتَأَمَا
مَعْروفُهُ عَرَفَتْ مِنْهُ الأَرامِلُ ما ... يُغْنِي عَنِ الذِّكْرِ والمِسْكِينُ والُهُما
عَزَّ العُلومَ وطُلَّابَ العُلومِ ومَنْ ... يَعْرِضْ سُؤالَ عُلومٍ أَو أُصولَهُما
فاللهَ أَسْأَلُهُ رَبِّي لِيَجْزِيَهُ ... خَيْراً بأَفْضَلَ مَا يَجْزِي بِهِ العُلَما

واجْعَلْ لَنا خَلَفاً مِنْ نَجْلِهِ أَبداً ... تَهْدِي بِهِم أُمَماً مِنْ بَعْدِها أُمَما
لَوْ باعَنِي شاعِرٌ مِنْ شِعْرِهِ قِطَعاً ... يَرْثِي بِها شَيْخَنا أَجْزَلْتُهُ نِعَما
جُهْدُ المُقِلِّ لَهُ وَجْهٌ يُصانُ بِهِ ... إِذ ذاكَ حيثُ يكونُ الحَقُّ مُلْتَزَما
صَلَّى الإِلٰهُ عَلى المُخْتارِ مِنْ مُضَرٍ ... ما جَلْجَلَ البَحْرُ في أَمواجِهِ وَطَما
وآلِ أَحمَدَ والأَصْحابِ قاطِبَةً ... عَدَّ الحَصى والنقى والسدر والسلما

وله في رثائه قصيدة أخرى يقول فيها[1]:

هُوَ المَوْتُ أَمْرٌ في انْتِظارِكَ كَانا ... لِقاؤُكُما حَتْمٌ وحِينُكَ حَانا
ورُزؤُكَ عَمَّ العالَمينَ مُصابُهُ ... وعَمَّقَ جُرْحَ الأَقْرَبينَ جكانا
نُعيتَ لَنا أَعْنِي الأَمينَ مُحَمَّدا ... فهَيَّجْتَ أَحْزاناً تَهُدُّ كَيانا
فمَنْ يَحْتَسِبْ في اللهِ مَوْتَكَ صابِرا ... أَلا إِنَّما اللهُ المُعينُ أَعانا
لَمَوْتِكَ وَقْعٌ مُؤلِمٌ بَيْدَ أَنَّه ... قَضاءٌ وإِنَّا بالقَضاءِ رِضانا
رُميتَ بِسَهْمٍ والمُصابُ قُلوبُنا ... فأَدْمَى وَما أَدْماهُ كانَ حَشانا
دُفِنْتَ ولٰكِنْ في سُوَيْدا قُلوبِنا ... وفارَقْتَ لٰكِنْ لَمْ تُفارِقْ حِجانا
فَشَخْصُكَ في الأَذْهانِ ما زالَ ماثِلا ... وصَوْتُكَ في الوُجْدانِ يَبْقى الزَّمانا
وعِنْدَ سَماعِ الصَّوتِ عَنْكَ مُسَجَّلا ... تَعُودُ بِنا الذِّكْرى إِلى رَمضانا
فَمِنْ جَلَساتِ النُّورِ في عَشَياتِهِ ... تَلوحُ خَيالاتٌ تَبُثُّ شَجانا
فَصَوْتُكَ مَسْموعٌ ونَشْهَدُ صُورةً ... كَأَنَّكَ في دَرْسٍ نَراكَ عَيانا
وتَلْتَبِسُ الرُّؤيا خَيالاً بِواقِعٍ ... لِتُصْبِحَ حُلْماً مِنْ لَذيذِ رُؤانا
ونَعْجَبُ مِنْ شَأْنِ الرُّؤى حالَ يقظةٍ ... وللنَّفْسُ عندَ اللبسِ أَعْجَبُ شانا

---

(١) موجودة في كتاب «المعين والزاد في الدعوة والإرشاد»، جمع وتأليف: سيد الأمين بن المامي الجكني الشنقيطي (ص ١٠٨).

فتَسْبَحُ في بَحْرِ الخَيالِ هُنَيَّةً ... لِيَذْهَبَ في دُنْيا الخَيالِ أَسانا
ويَصْطَدِمُ الحُلْمُ اللَّذيذُ بواقِعٍ ... فتُمْسِكُ بالجُرْحِ الأليمِ يَدانا
فيا رَبِّ إنَّ الخَطْبَ فوقَ احتمالِنا ... وأَنْتَ إلٰهي حَسْبُنا وكَفانا
أَمينُ كِتابِ اللهِ باعِثُ نُورِهِ ... فنَعْيُكَ نَعْيٌ للفَضيلةِ كانا
ومَوْتُكَ بَتْرٌ للبَيانِ فما أَرى ... إلى الحَشْرِ للمَبْتُورِ مِنْهُ بَيانا
فمَا الوَقْفُ عندَ الحشرِ إلَّا لحِكْمَةٍ ... تُشيرُ إلى الحَشْرِ البَعيدِ مَكانا[1]
فمَنْ كانَ أَعْطاكَ البَيانَ تَفَضُّلا ... يُحَقِّقُ بالرِّضوانِ عَنْكَ رَجانا
ويَرْحَمُنا إذ نَلْتَقي بعْدَ فُرْقَةٍ ... ويَجْعَلُ في أَعْلى الجِنانِ لِقانا

وله في رثائه قصيدة ثالثة يقول فيها[2]:

نُعِيَ الهُدى فعَلا القُلوبَ سَوادُ ... وتَفَطَّرَتْ لِمُصابِها الأكْبادُ
أَلَمٌ يُعَذِّبُ كُلَّ قَلْبٍ في الوَرى ... وأَسىً مَرارَةُ كَرْبِهِ تَزْدادُ
كَيْفَ الهَنا والنَّفْسُ يَمْلَؤها الأسَى ... ومِنَ الأسَى مَلأ الجُفونَ سُهادُ
خَطْبٌ يَجِلُّ عَنِ البُكا وفَجيعَةٌ ... هَدَّتْ رَواسِي الأَرْضِ أَو لَتَكادُ
كُلُّ الوَرى في مَأْتَمٍ لَمَّا نَعَى ... النَّاعِي الأمينَ نَواطِقٌ وَجَمادُ
بَكَتِ المَثانِي تَرْجُمانَ بَيانِها ... حامِيمُها تَبْكِي عليهِ وصادُ
وكَذا المَعانِي كالمَثانِي ثَواكِلا ... أُمَّاتُها تَبْكِي وتَبْكِي الضَّادُ
هٰذا البيانُ وهٰذهِ أَضواؤهُ ... عَزَّتْ لِغَيْرِ الشَّيْخِ لا تَنْقادُ
قُلْ للَّذي يَرْتاضُها لا تَحْسَبَنْ ... أَنَّ البَيانَ صَحيفَةٌ ومِدادُ
جَهِلُوا ولا عَجَبٌ فتِلْكَ حَقيقَةٌ ... أَنَّ البَيانَ بَصيرةٌ وفُؤادُ

---

(١) آخر سورة فسرها الشيخ في «الأضواء» المجادلة، ولم يبدأ بسورة الحشر.

(٢) منقولة من كتاب «المعين والزاد» (ص ١٠٥ و١٠٦ و١٠٧).

وإذا الحقيقةُ وهيَ تَهْتِفُ بالوَرى ... عَلَناً وفي أَعْماقِنا إنْشادُ

مَا مَاتَ مَنْ تَحْيا القُلوبُ بعِلْمِهِ ... وبهِ الهُدى رَغْمَ الرَّدَا يَزْدَادُ

تَرَكَ الحَقائِقَ لَيْلَها كَنَهارِها ... ولَها بآفاقِ النُّهَى أَبْعادُ

لَمَّا بَدَتْ سُحْبُ الضَّلالِ وجَلَّلَتْ ... أُفُقَ السَّماءِ وجَلْجَلَ الأَرْعادُ

أَلِفَ الكَرَى تَحْتَ الثَّرَى كَيْ لا يَرى ... آياً تُضامُ بباطلٍ وتُبادُ

يا أَرْضُ هلاَّ تَحْتَوي في حَيِّزٍ ... بِنْتَ السَّما فَتَضُمَّها أَلْحادُ

عَجَباً أيا أُمَّاهُ هَلْ وَارَيْتِ مَنْ ... وَسِعَ الخَلائِقَ عَاصَروا أَوْ بَادُوا[1]

أَمْ هَلْ سَمِعْتِ بِخَرْدَلٍ يَحْوي فَضا ... ءً يَنْتَهي إذ تَنْتَهي الآبادُ

مَا أَنْتَ عِنْدَ العِلْمِ إلاَّ كَوْكَبٌ ... بِفَضاءِ كَوْنٍ للعِبادِ مِهادُ

قالَتْ سَلُوا عَنِّي تُخَبِّرُكُمْ يُقَيِّـ ... ـدُ عِلْمَها الآباءُ والأَجْدادُ

وامْشُوا عليَّ لِتَنْظُروا آثارَ مَنْ ... بانُوا ومَا أَبْقَتْ ثَمودُ وعَادُ

أَنا لَمْ أَسَعْ مَعْنىً ولٰكِن في إذا ... فَنِيَتْ تُغَيِّبُ هٰذِهِ الأَجْسادُ

أَمّا العلومُ فلا يَحِلُّ بساحِها ... عَدَمٌ ولا يعرِ الوُجودَ فَسادُ

يا مَنْ كَسا بالعِلْمِ طُلاَّبَ العُلا ... قِيَماً بها نالوا الكمالَ وسادُوا

تَبّاً لَمَنْ أَعْشى سَناكَ قُلوبَهُمْ ... لَمْ أُرْكِسوا أُولَيِّكَ الحُسَّادُ

فُتِنُوا لِضَعْفٍ في بَصائِرِهِم خَفا ... فيشٌ لِمِثْلِ سَناكَ لَمْ يَعْتَادُوا

لَمَّا رَأَوْكَ مُوَسَّداً قالوا انْتَهى ... هُوَ مَيْنُهُم ما لِلعلومِ نَفادُ

فلَئِنْ نُزِعْتَ وأَنْتَ لُبُّ العَصْرِ مِنْ ... أَلْبَابِنا ولَكَ القُلوبُ مِهادُ

ولَئِنْ تَخَطَّتْكَ المَنايَا مُلْحَداً ... مَيْتاً ولَمْ يُورِ الحَياةَ زِنادُ

ما زالَ عِلْمُكَ بالحَقائِقِ باقِيا ... يَحْمِي الشَّريعَةَ ما طَغَى الإلْحادُ

---

(١) فيه غلوٌّ فيما أرى.

يَبْقَى كَمَا تَبْقى الحَقيقةُ نَفْسُها ... مَهْما تَظاهَرَ حَاسِدُوكَ وكَادُوا
يا مُبْدِعاً معنى البَيانِ ومُبْدِياً ... عَجَباً ومَنْ خُتِمَتْ بِهِ الأمجادُ
إنَّ المَعانِيَ بَعْدَما أَلَّفْتَها ... وتَآلَفَتْ لِيَصيدَها المُصْطَادُ
يُخْشَى بفَقْدِكَ أَنْ تَعودَ شَوارِدا ... بَدَداً فما يَدْرونَ كَيْفَ تُصادُ
يا شيخَنا بل يا ضياءَ قلوبِنا ... كنتَ الحياةَ فشقَّ منكَ بعادُ
نَفْسٌ يَشِعُّ النُّورُ فِي جَنباتِها ... فيَفيضُ مِنها العِلْمُ والإرْشادُ
وشَفَى الإلٰهَ بها القُلوبَ مِنَ العَمى ... فالحَقُّ بادٍ والضَّلالُ يُبادُ
عَفَّتْ فَما عَلِقَتْ مِنَ الدُّنْيا وقَدْ ... خُطِبَتْ فأَغْلَى الخَاطِبونَ وزادُوا
سَلَكَتْ سَبيلَ الصَّالِحِينَ لِكَيْ تُتَمِّـ ... ـرَ مَا بَنَوْا للعَالَمينَ وشَادُوا
بُهدى الكتابِ هَدَتْ فَبانَ كَم اهْتَدَتْ ... فَسَبيلُها أَبداً هُدىً ورَشادُ
أَدَّتْ رِسالَتَها وعادَتْ بالرِّضا ... وكَذا النُّفوسُ الرَّاضِياتُ تُعادُ
دَفَنَ الأمينَ أَعِزَّةٌ لَوْ أَنَّهُم ... عَلِمُوا النُّفوسَ فِدى الأمينِ لَجَادُوا
بَدْرٌ أَضاءَ جَلا الحَقيقَةَ للوَرَى ... فبِهِ اسْتَفادَ ذَوو الهُدى وأَفادُوا
ومَنارُ فَضْلٍ يُهْتَدى بمنارِهِ ... سَعِدَتْ بِهِ الدُّنيا تُقىً وسَدادُ
أَسَفي على قَمَرٍ هَوى مِنْ أُفقِهِ ... ومَنارِ فَضْلٍ أَلْحَدُوهُ وعَادُوا
شَمْسٌ تُغَيَّبُ في الثَّرى وضِياؤها ... لِذَوي النُّهى الآصالُ والآرادُ
فأَجَلْتُ فكري عندَها مُتسائلاً ... والأمْرُ يَبْدو مَا لَهُ إيرادُ
أَيْنَ الضُّحى بَعْدَ المَغيبِ مِنَ الدُّجى ... وإذا المَغيبُ بما الظلامُ يُذادُ
والشَّمْسُ شَرْطٌ في النَّهارِ فَلا يُرى ... بَعْدَ المَغيبِ نَهارُها المُعْتادُ
فإذا بها آياتُ حَقٍّ أَشْرَقَتْ ... أَنْوارُها فتَبَدَّدَ الإلْحادُ
يا راحِلاً فرِحَتْ بِهِ (المعلا) كما ... لبِسَ الحِدادَ لِفَقْدِهِ أَجْيادُ

كَمْ راغِبٍ حَقَّقْتَ مِن رَغَباتِهِ ... حَتَّى وَلَوْ فَوْقَ المُرادِ أَرادُوا
إِذ كُنْتَ للعِرْفانِ أَعْذَبَ مَنْهَلٍ ... في ساحِهِ يَتَزاحَمُ الوُرَّادُ
عَذْبٌ مِن العِرْفانِ فاضَ مَعينُهُ ... نَعْماءُ جادَ بِها عليكَ جَوادُ
وَحْيٌ مِنَ الفُصْحى حِجاكَ سماؤهُ ... إِذ أَرْضُهُ قَلْبٌ يَعي وفُؤادُ
وَبَراهِنُ الحَقِّ التي مُلِّكْتَها ... بِلُزومِها يَتَقَوَّمُ المُنْآدُ
حُجَجٌ سَبيلُ الحَقِّ بَعْدَكَ بيِّنٌ ... مِنْهُنَّ مَمْحُوقٌ بِهِنَّ الجَادُ
نُظِمَ الكمالُ فكُنْتَ ذاتَكَ نَظْمُهُ ... عَقْدٌ يظاهِرُ في العُلا وقِلادُ
عقدٌ بِهِ جيدُ الزَّمانِ مُطَوَّقٌ ... وحُلى لأبناءِ الزَّمانِ تُجادُ
كَمْ حَمَّلَ المَوْلى الكريمُ بكَ الوَرى ... مِنَناً تَنُوءُ بحَمْلِها الأجيادُ
هِبَةُ الإِلٰهِ لأَرْضِنا وحْيٌ تُضا ... ءُ بِهِ المُنى وسِراجُنا الوقَّادُ
كُنَّا بِعِزِّكَ في البِلادِ أَعِزَّةً ... ولَنا الصَّفاءُ وأَنْتَ والإِسعادُ
واليَوْمَ عُدْتَ مُشَيَّعاً لِجِوارِ مَنْ ... بِجِوارِهِ للصَّالِحينَ مَعادُ
يَا رَبِّ مَنْ أَكْرَمْتَهُ ووَهَبْتَهُ ... للخَلْقِ أَنْتَ أَخَذْتَ وهُوَ رَشادُ
عَبْدٌ قَضى فيكَ الحياةَ وكانَ مِنْ ... مَنْ زَادُهُ التَّقْوى ونِعْمَ الزَّادُ
أَعْلِ المَقامَ وعَلِّ مِنْ دَرَجاتِهِ ... يَاذَا الوِدادِ يَنَلْهُ مِنْكَ وِدَادُ
وأَثِبْ لَنا رِفْقاً بِنا خَلَفاً لَهُ ... فالخَلْقُ مُحْتاجٌ وأَنْتَ جَوادُ
يارَبِّ صَلِّ على النَّبِيِّ وآلِهِ ... والمُمْسِكينَ بِهَدْيِهِ ما حَادُوا

٣ ـ الشيخ محمد بن مدين الشنقيطي، وهو شاعر كبير، رثاه في قصيدة في ثلاثة عشر بيتاً، منها قوله:

اللهُ أَكْبَرُ مَاتَ العِلْمُ والوَرَعُ ... يَا لَيْتَ مَا قَدْ مَضى مِنْ ذاكَ يُرْتَجَعُ
يَبْكي الكِتابُ كِتابُ اللهِ غَيْبَتَهُ ... كَذا المَدارِسُ والآدابُ والجُمَعُ

مُفَسِّرُ الذِّكْرِ الحَكيمِ ومَا ... مِنَ الحديثِ إلى المُخْتارِ يَرْتَفعُ
أَخْلاقُهُ الشَّهْدُ مَمْزوجاً بماءِ صَفا ... ومَا يُغَيِّرُ طَبْعاً زانَهُ طَبعُ
فَهُوَ الإمامُ الَّذي مَنْ غَيْرُهُ تَبَعٌ ... لَهُ وهَلْ يَسْتَوي المَتْبوعُ والتَّبَعُ

إلى أن قال:

حَدِّثْ بِما شِئْتَ مِنْ حِلْمٍ ومِنْ كَرَمٍ ... وانْشُرْ مَآثِرَهُ فالبابُ مُتَّسِعُ

إلخ القصيدة.

٤ ـ الشيخ محمد الأمين بن مختار الجكني الملقب بـ (التعدي) ابن عم الشيخ (رحمه الله) في قصيدة من ثمانية عشر بيتاً، منها قوله:

هُوَ المَوْتُ لا يَنْفَكُّ يَفْجَعُ مَعْشرا ... بِكَوْكَبِهِ الدُّرِّيِّ بَيْنَ الكَواكِبِ

وقوله:

فتىً لَمْ يَرَ الرَّاؤونَ شَرْواهُ بعدَهُ ... ولا أَنْجَبَتْ شرواهُ بيضُ الكَواعِبِ

وقوله:

إذا ما بَدى في الدَّرْسِ تَحْسَبُ فَيْضَهُ ... على النَّاسِ صَوْبَ المُدْجِناتِ السَّحائِبِ
يُرَوِّي البَرايا مِن روايا عُلومِهِ ... بِنَقْلٍ صَحيحٍ عَنْ فُحولِ المَذاهِبِ
وتَفْسيرِهِ مِنْ حِفْظِهِ كُلَّ آيَةٍ ... بأَخْتٍ لَها أَعْظِمْ بِهِ مِنْ مَواهِبِ
إذا رَجَفَ اليَمُّ الخِضَمُّ بِمَنْزِعٍ ... مِنَ العِلْمِ أَبْدى فيهِ كُلَّ العَجائِبِ
عَجيبٌ غَريبٌ في البَرايا وإنَّما ... غَرائِبُهُ في العِلْمِ فَوْقَ الغَرائِبِ
فمَنْ يَأْتِنا أَيَّامَ فَجْعَتِنا بِهِ ... يُشاهِدْ عَويلَ المُعْوِلاتِ النَّوادِبِ
فإنْ نَبْكِهِ لَمْ نَبْكِ إلَّا فَتى الوَرى ... وإنْ نَصْطَبِرْ نُؤجَرْ بأَدْهى المَصائِبِ

٥ ـ الشيخ عبدالرحمٰن المنير الأستاذ بالمعهد العلمي بالمدينة النبوية، رثاه بقصيدة تقع في ثلاثين بيتاً؛ يقول فيها:

صروفُ اللَّيالي لا يَقَرُّ قَرينُها ... أَذٰلكَ للضَّرَّاءِ أَمْ ذاكَ دِينُها؟

لَيَحْزُنُها أَنْ تَلْحَظَ الرَّكْبَ شادِيا ... ويُطْرِبُها في الخافِقَيْنِ حَزينُها

كأَنَّ رِقابَ العالَمينَ رَهينةً ... مَتى طُلِبَتْ بالكُرْهِ لَبَّى ضَمينُها

فمَا وَهَبَتْ إلاَّ وضَنَّتْ بسَبْيِها ... وما أَنْبَأَتْ إلاَّ الحَديثُ شُجونها

أَما كانَ للأقدارِ يَجْتَثُّ فَأْسُها ... ضعِيفَةَ سِدْرٍ مَا أَظَلَّتْ غُصونُها

أَتَانِي مِنَ الأَنْباءِ مَا سَدَّ مَسْمَعي ... فكادَتْ لها رُوحِي يُجَنُّ جُنُونُها

وما كُنْتُ أَدْري لَيْتَنِي عِنْدَ حُفْرَةٍ ... عَشِيَّةَ سَوَّاها حَصاها وطِينُها

فأَجْعَلُ مَثْوى اللَّحْدِ أَشْرَفَ رَبْوةٍ ... لِئلاَّ تُهيلَ الذَّارياتُ غُصونَها

مِنَ الشَّيْخِ إِنْ فاضَتْ على الخَدِّ دَمْعَتي ... أُكَفْكِفُها صَبْراً ويَأْبَى هَتُونُها

ومَنْ ذا الَّذي يَسْطيعُ إخفاءَ حُزْنِهِ ... وقَدْ أَغْرَقَتْ سَفْحَ الخُدودِ عُيونُها

يُعَزُّونَني إذ حَلَّ في الأَرْضِ ثاوِياً ... بأَنَّ الرَّسولَ البَرَّ فعلاً دَفينُها

مُصابٌ جَليلٌ والقُلوبُ رقيقةٌ ... عَلى إِخْوةٍ في اللهِ ما عيبُ لينِها

أَحارُ بِما كَظَّ الجوانِحَ فارْتَمى ... شَآبيبَ وَدْقٍ والعُيونُ شُؤونُها

فرى مُهْجَتي هَوْلُ المُصابِ فتُرْجِمَتْ ... مآقٍ كأَشْواكِ النَّقيعِ جُفونُها

إِمامٌ تَوَلَّى مِنْ تَوَقُّدِ ذِهْنِهِ ... حُصونَ المَثاني وهُو بابٌ يَصونُها

أَدانَ لَها النَّفْسَ اللَّجوجَ بحِكْمَةٍ ... ومَا خَيْرُ نَفْسٍ دينُها لا يَدينُها

يَقولُ أَهِنْها إنَّ في العَيْشِ فُسحةً ... مَخافَةَ مِنْ بَعْدِ المَماتِ يُهينُها

بروح على الإيمانِ تَسْتَعْذِبُ الأذى ... إذا أُوذِيَتْ في اللهِ زادَ يَقينُها

أَشادَتْ جَميلاً ثُمَّ للهِ هاجَرَتْ ... إلى حيثُ سُلطانُ الإلٰهِ يُعينُها

فيا لَكَ مِنْ حُرٍّ يَلَذُّ بَيانُـهُ ... عَلى روضَـةِ القُـرآنِ زانَتْ فُنـونُها
طَموحٌ عَلا العَلْياءَ مِنْ فَضْلِ خيمهِ ... بتَـوَّاقَـةٍ مَا أَقْعَـدَتْهـا ظُنُـونُهـا
هَوَتْ أُمُّـهُ إِنَّ الـيَنـابيعَ قولُـه ... وأَكْـثَـرُ مِمَّـا قالَ فاضَ مَعينُهـا
أَقـولُ لِنـادي الحَيِّ مَا فيكَ نَدوةٌ ... إِذا ما خَبـا عِلْمٌ ووَلَّى أَمينُهـا
مَتَى ما المَنايا أَكْرَمَ القَومِ أَهْلَكَتْ ... فَسِيَّانَ فيهِمْ ضَبْحُهـا وصفـونُهـا
شَعـوبُ اسْتَفيقي إِنَّنـا فِي موارِدٍ ... أَلَـمَّ بهـا خَطْبٌ فَخَـفَّ فَطينُهـا
وكُـفِّي عَنِ التِّسيارِ أَدْمَيْتِ أَكْبُـدا ... فَمـا بَعْـدَ شَيْخِي حاجـةٌ تَسْتَبينَها
بَكَيْنـاهُ والأَصْحابُ يُحْيي دُروسَها ... بِكُـلِّ مَزينٍ والأَمـينُ يَزينُـهـا
وأَنَّـدُبُـهُ يُذْكـي المَعـالِمَ هادِيا ... ذوي إِمْـرةٍ في عهْـدِهِ لا تَخـونُها
سأَدْعـو لقبرٍ حَلَّهُ الـدِّينُ والحِجا ... عليهِ الغَـوادِي ما يَكُفُّ مُزونُهـا
تَرَقَّـبْتُـهُ مِنْ حَجِّ مَكَّـةَ سالِمـا ... فَشَحَّتْ بهِ معـلاتُهـا وحَجُـونُهـا

٦ ـ الشيخ أحمد بن محمد عبدالله بن آدّ الشنقيطي رثاه بقصيدة تقع في اثني عشر بيتاً يقول فيها:

أَعَيْنَيَّ جُودا بالـدُّمـوعِ السَّواكِبِ ... لِمَنْ ضوؤُهُ قدْ فاقَ ضَوْءَ الكَواكِبِ
أَعَـيْنَيَّ جُودَا لا تَقـولا لي انْتَهي ... فلَسْـتُ بُعَيْدَ اليومِ منكُمْ بِطالِبِ
دُمـوعـاً ولا حُزْنـاً لأنْـدُبَ بعْـدَما ... نَدَبْتُ خِيارَ النَّاسِ ماشٍ وراكِبِ
لَهُ الفَضْلُ في التَّفسيرِ إِنْ رُمْتَ باحِثاً ... وفي الفِقْهِ والتَّوحيدِ مِنْ كُلِّ جانِبِ
خَليليَّ هٰذا عالِمُ العُرْبِ قَدْ سَما ... بهِ العِلْمُ في شَتَّى العُلومِ الأَطايِبِ
ففي النَّحْوِ أُستاذٌ وفي الشِّعْرِ حُجَّةٌ ... وفي الجُـودِ بَحْـرٌ يُرْتَجى للنَّوائِبِ
يَجُودُ بما في الكَفِّ إِنْ جاءَ طالِبٌ ... وإِنْ جاءَ مُحتاجٌ حَظِي بِالمطالِبِ
حَواهُ ثَرى المعلا فيا حُسْنَ مَا حَوى ... إِمـامٌ لهُ في الـدِّينِ أَوْلى المراتِبِ

فمَـوْتُـهُ لَمْ يُبْكي قَريبـاً مُؤمِّـلا ولٰكِنَّـهُ أَبْكَى شُيوخَ المَضـارِبِ
ففي الصِّين طُلَّابٌ لفَقْدِهِ أَصْبَحوا يَرَوْنَ سهيلَ العِلْمِ رأْسَ الصَّعائِبِ
وعِلْمُـهُ لَمْ يَكْفِيهِ أَنْ زارَ شَرْقَهُم ولٰكِنَّـهُ قَدْ زَارَ أَقْصى المَغـارِبِ
وصَـلِّ على المُختـارِ رَبِّي بذِكْرِنا لمَنْ ضَوؤهُ قَدْ فاقَ ضوءَ الكَواكِبِ

كما رثاه (رحمه الله) كل من:

١ ـ محمد أحمد بن عبدالقادر الغلاوي الشنقيطي في أربعة عشر بيتاً.

٢ ـ عبدالله بن بونة في ثلاثة عشر بيتاً.

٣ ـ أحمد بن إسماعيل اليماني في أحد عشر بيتاً.

ولا أريد الإطـالة بذكر مراثيهم، والأخيرة أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، وأما الأوليان فهما أرجوزتان.

٤ ـ سفر بن عبدالرحمٰن الحوالي، ولم أعثر على قصيدته.

وله (رحمه الله) ثلاثة من الولد: عبدالله، والمختار، وبنت ثالثة.

أمـا الدكتور عبدالله؛ فهو رئيس قسم التفسير بالجامعة الإسلامية سابقاً، وهو الآن عميد كلية القرآن، وهو رجل كريم السجايا، طيِّب الطبع، وقـد زرتـه قبيل المغرب من يوم الاثنين، وكان إذ ذاك صائماً، فبالغ في الإكرام، وذكَّرني فعله مع ما أسمع عن والده بقول الشاعر:

بأَبِـهِ اقْتَـدَى عَدِيٌّ في الكَـرَمْ ومَـنْ يُشـابِـهْ أَبَـهُ فَمـا ظَلَمْ

أسأل الله العلي القدير أن يُعلي قدره ويزيده علماً وإيماناً ووقاراً.

وأما الدكتور المختار؛ فهو أستاذ في قسم أصول الفقه بالجامعة الإسلامية.

ولم يتزوج الشيخ (رحمه الله) بكراً قط، مع أنه تزوج أربع نسوة، توفيت الأولى في حياتـه، وكذا الثانية، أما الثالثة ففارقها، وتزوج الرابعة وتوفي عنها.

□□□□□

المبحث الثاني
سَمْتُه وأَخلاقُه (رحمه الله)

إن عظمة ما يتحلَّى به الشيخ (رحمه الله) من أخلاق وشمائل وطيب معاشرة وخشية من الله لا يقلُّ عن عظمة ما يحمله من علم، بل هما يمثلان في شخصيته خطَّان متوازيان، يذكرنا تلازمهما في الشيخ (رحمه الله) بما كان عليه علماء سلفنا الصالح من جمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

وكان الإمام أحمد (رحمه الله) يقول عن معروف: «أصل العلم خشية الله»[1].

وكان السلف يقولون: «العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه»[2]، وهم العلماء الربَّانيُّون العاملون بالعمل النافع الداعون إليه.

□ عنايته بالعلم النافع:

وللشيخ (رحمه الله) في هٰذا العلم القِدْح المعلَّى والنصيب الأوفى تعلُّماً وعملاً وتعليماً له ودعوة إليه.

قال الشيخ عطية (وفقه الله): «وكان اهتمامه بالعلم وبالعلم وحده، وكل العلوم عنده آلة ووسيلة، وعلم الكتاب وحده غاية»[3].

---

(١) «بيان فضل علم السلف عن علم الخلف» لابن رجب (ص ٥١).

(٢) المصدر السابق (ص ٥٠).

(٣) «الترجمة» (ص ٦٢) في آخر (ج ١٠) من «الأضواء».

وحدثني ابنه عبدالله؛ قال: «قال لي أبي: لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة، وأخبرني الشيخ عطية أن والدي قال له: كل آية قال فيها الأقدمون شيئاً فهو عندي».

وكان يلهج دائماً بالوصية بالنظر في كتاب الله وتدبره، حدثني ابنه عبدالله؛ قال: «سألت أبي: ما الذي يطرد وساوس الشيطان؟ فقال: التدبُّر في كتاب الله».

وبهٰذه الوصية افتتح كتابه، وبها ختمه، حيث قال في مقدمة كتابه بعد أن ذكر فضل القرآن ووعد الله لمتَّبعه ووعيده للمعرض عنه ما نصه:

«ومع هٰذا كله؛ فإن أكثر المنتسبين للإسلام اليوم في أقطار الدنيا معرضون عن التدبُّر في آياته، غير مكترثين بقول من خلقهم: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلوبٍ أَقْفالُها﴾[1]...».

إلى أن قال: «وإياك ثم إياك أن يزهِّدك في كتاب الله تعالى كثرة الزاهدين فيه، ولا كثرة المحتقرين لمن يعمل به ويدعو إليه، واعلم أن العاقل الكيِّس لا يكترث بانتقاد المجانين...».

إلى أن قال: «أما بعد؛ فإنا لما عرفنا إعراض أكثر المتسمين باسم المسلمين اليوم عن كتاب ربهم، ونبذهم له وراء ظهورهم، وعدم رغبتهم في وعده، وعدم خوفهم من وعيده؛ علمنا أن ذٰلك مما يُعَيِّن على مَن أعطاه الله علماً بكتابه أن يجعل همّته في خدمته من بيان معانيه وإظهار محاسنه وإزالة الإشكال عما أشكل منه وبيان أحكامه والدعوة إلى العمل به وترك

---

(١) محمد: ٢٤.

كل ما يخالفه.

واعلم أن السنة كلها تندرج في آية واحدة من بحره الزاخر، وهي قوله تعالى: ﴿ومَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فخُذوهُ ومَا نَهاكُمْ عَنْهُ فانْتهُوا﴾[1]. . . » إلخ كلامه (رحمه الله)[2].

وأكد (رحمه الله) هٰذا المعنى في الجزء السابع من «الأضواء» عند كلامه الطويل على قوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرْآنَ أَمْ عَلى قُلوبٍ أَقْفالُها﴾ من سورة محمد.

وقد قال لي ابنه عبدالله: «آخر ما عليه أبي (رحمه الله) كلامه على هٰذه الآية من سورة محمد» اهـ.

ولا زال يوصي بذٰلك ويحث عليه حتى لقي الله (رحمه الله رحمة واسعة).

أخبرني ابنه عبدالله أنه كان يقول للحجاج والزوَّار من البلاد: «أنا المالكي لا أنتم»؛ يقصد أخذه بالدليل متَّبعاً في ذٰلك مالكاً (رحمه الله) وغيره من أئمة السلف[3].

وفي منى في آخر حجة حجها (رحمه الله) في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة أخذ بعض تلاميذه يسائله في قضايا من العلم، فقال بإلحاح: «أدرسوا عليَّ البخاري ومسلماً»، واتفقوا معه في ذٰلك اليوم على

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) «الأضواء» (١ / ٤ و٥).

(٣) وحدثني بهٰذه القصة تلميذه الشيخ محمد الخضر الناجي.

دراستهما عليه بعد رجوعهم، ولكن منيته (رحمه الله) حالت دون تحقيق مراده، كافأه الله بنيته آمين.

وأخبرني ابنه عبدالله أنه كان يجلس في المجلس، فيأتي الضيف ولا يشعر به حتى ينبِّهه ابنه إلى قدوم الضيف، وذلك لانشغال فكره بتجميع شواهد آية من كتاب الله، وذلك زمن تأليفه «أضواء البيان»، وأخبرني بنحو ذلك تلميذه الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي.

وحدثني ابنه عبدالله؛ قال: «حدثني أبي أنه كان يقرأ في البلاد زمان طلبه العلم في «مختصر خليل» في أول كتاب النكاح، حتى وصل إلى قول خليل: «في عشرة ندبه ولو ببيع سلطان لفلس»؛ قال لي: أقرأنيها شيخي بعد العصر، وكانت دراسته جرديَّة، بحيث يقرأ كل ما قيل في الباب؛ قال: فأخذت شراح خليل وحواشيه على هٰذه المسألة، وجلست أراجعها حتى جاء الليل، ثم أوقدت النار أطالع في ضوئها إلى الصبح، ولم أنم، ولم أصلِّ غير الفريضة، فوجدت أن للشراح في قول خليل قولين، ولو كنت أبحث في الكتاب والسنة لأتيت للأمة بالعجب»[1].

---

(١) أورد هٰذه القصة الشيخ عطية سالم في «ترجمته» للشيخ رحمه الله دون ذكر المسألةِ وقولةِ الشيخ التي في آخرها، حيث قال في (ص ٣١) في تعليقه على قول الشيخ رحمه الله عن نفسه:

ولي شغل بأبكار عذارى ... كأن وجوهها ضوء الصباح
أبيتُ مفكِّراً فيها فتضحي ... لفَهْم الفدم خافضة الجناح

ما نصه: «نعم؛ إنه كان يبيت في طلب العلم مفكِّراً وباحثاً، حتى يذلل الصعاب، وقد طابق القول العمل؛ حدثني (رحمه الله) قال: جئت للشيخ في قراءتي عليه، فشرح لي كما كان يشرح، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت، ولم يرو لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا =

وهٰذا دأب العلماء الربانيين، وأشد ما يتضح ذٰلك من منهجهم في آخر عمرهم، فهٰذا الإمام الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية (عليه رحمة الله) ينقل عنه تلميذه ابن عبدالهادي أنه قال لما حبس في آخر عمره وكان قد قرأ القرآن في السجن أكثر من ثمانين مرة:

«قد فتح الله عليَّ في هٰذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنَّوْنها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن أو نحو هٰذا»[1].

ووجه الشبه بين قولي هٰذين الإمامين العظيمين ظاهر، وهو الندم على عدم قضاء ذٰلك الوقت في كتاب الله، مع أن ما قاما به في الذب عن كتاب الله والدعوة إليه وبه لا يقوم بمثله إلا أقل القليل من أهل العلم والإيمان، ولكنهما (رحمهما الله) بلغا الشبر الثالث من العلم، فقد قيل:

«العلم ثلاثة أشبار، من دخل في الشبر الأول تكبر، ومن دخل في

= أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهراً، فأخذت الكتب والمراجع، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتى المغرب، فلم أنته أيضاً، فأوقد لي خادمي أعواداً من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطلاب، وواصلت المطالعة، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضوء، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي ووجدت هٰذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم، فتركت المطالعة ونمت، وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرسي في ذٰلك اليوم؛ اكتفاءً بما حصلت عليه، واستراحة من عناء سهر البارحة؛ فقد بات مفكراً فيها، فأضحت لفهم الفدم خافضة الجناح».

(١) «العقود الدريَّة في مناقب ابن تيمية» لابن عبدالهادي (ص ٢٢).

الشبر الثاني تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث علم أنه ما يعلم»[1].

ولا غرو والحالة هٰذه أن يعجب المتأخر منهما بالمتقدم، فيقول: «ما رأيت أحداً أعمق فهماً وأوسع اطِّلاعاً من هٰذا الرجل»؛ يعني: ابن تيمية، تشابهت قلوبهم فتعارفت فتآلفت، واتحد مشربهم فتوافقت رغباتهم وأمانيهم، فرحمهما الله رحمة واسعة.

□ **تجافيه (رحمه الله) عن الفتوى:**

ومن آخر ما كان عليه الشيخ (رحمه الله) التجافي الشديد والحذر من الفتوى في غير مواقع النصوص، وتوقفه وعدم جزمه بالترجيح في المسائل التي ليس فيها نصوص واضحة من الكتاب والسنة، وحرصه الشديد على التمييز لطالب العلم بين مواقع النصوص وغيرها من المسائل الاجتهادية.

قال الشيخ عطية في ترجمته ما نصه: «ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا، وإذا اضطر؛ يقول: لا أتحمل في ذمتي شيئاً، العلماء يقولون كذا وكذا.

وسألته مرة عن ذٰلك، فقال: إن الإنسان في عافية ما لم يبتل، والسؤال ابتلاء؛ لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟ فما لم يكن عليه نصٌّ قاطع من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ؛ وجب التحفُّظ فيه. ويتمثل بقول الشاعر:

---

(١) «حلية طالب العلم» لبكر أبو زيد (ص ٥٧)، وعزاه لـ «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٦٥).

إذا مَا قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْماً فَقُلْ بِهِ ... ولا تَقُلِ الشَّيْءَ الَّذي أَنْتَ جَاهِلُهْ
فمَنْ كانَ يَهْوَى أَنْ يُرَى مُتَصَدِّراً ... ويكْرَهُ «لا أَدْرِي» أُصِيْبَتْ مَقاتِلُهْ[1]

وقد أخبرني ابنه عبدالله، وكذلك تلميذه الشيخ محمد الخضر بن الناجي الشنقيطي؛ كل منهما على انفراد؛ قال:

«جاءه وفد من الكويت في أواخر حياته (رحمه الله)، فسألوه في مسائل، فقال: أجيبكم بكتاب الله، ثم جلس مستوفزاً، وقال: الله أعلم، ﴿ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، لا أعلم فيها عن الله ولا عن رسوله ﷺ شيئاً، وكلام الناس لا أضعه في ذمتي، فلما ألحُّوا عليه؛ قال: فلان قال كذا، وفلان قال كذا، وأنا لا أقول شيئاً»[2].

وفي شوال أوْ ذي القعدة من عام ثلاث وتسعين وثلاث مئة وألف وهي السنة التي توفي في آخرها بعد أن رجع من جلسة هيئة كبار العلماء بالرياض، وكان قد نوقش فيها السعي في الدور الثاني بين الصفا والمروة؛ يقول ابنه عبدالله:

«وجدته جالساً في البيت منفرداً، فلما دخلت عليه؛ قال: الحمد لله الذي نحن رائحون عن هٰذا الزمن»، وكان له (رحمه الله) رأي في مسألة السعي بالدور الثاني بالمسعى.

---

(١) «الترجمة» (ص ٦٣ و٦٤).

(٢) هٰذه القصة تذكِّرنا بقصة الوفد الذي قدم على الإمام مالك من العراق، فسألوه عن مسائل؟ فأجابهم عن أكثرها بـ «لا أدري»، وهٰكذا تتَّفق مواقف أهل العلم والإيمان (رحم الله الجميع رحمة واسعة).

□ **زهده في الدنيا وورعه:**

ومن أبرز ما كان عليه الشيخ (رحمه الله) الزهد في الدنيا والتقلُّل منهـا، والأخبار عنه (رحمه الله) في تثبيت ذٰلك متواترة، أذكر طرفاً منها ليتخـذ منها طلاب العلم قدوة لهم في هٰذا الزمان الذي فتن فيه كثيرون بالدنيا، تضاف إلى قدوات الزمان الأول الذين زخر بهم تاريخنا الإسلامي:

١ ـ فمن ذٰلك قوله (رحمه الله): «الذي يفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة؛ لأباح الله منها سد الخلة». وهٰذه ألفاظه.

٢ ـ كان (رحمه الله) يأخذ من راتبه مصروف الشهر، ويوزع الباقي.

قال ابنـه عبدالله: «وكنت أتولى التوزيع على ضعاف طلبة العلم والعجائز والأرامل من القريبات، وكان يقول: والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتباً من الجامعة، ولكنني مضطرٌّ لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف».

٣ ـ قال ابنـه عبـدالله: «كـان يحذرني من الدنيا كثيراً، ويقول: الكفاف منها يكفي، وإن الشيطان ربَّما سوَّل للإنسان جمعها ليتصدق بها، وهو تلبيس».

٤ ـ ما كان يُقْرِض الناس، فلما كلمه ابنه عبدالله في ذٰلك؛ قال: «إن كنتُ محتاجاً إلى ما عندي؛ فلا أعطيه، وإن كنت غير محتاج؛ فأعطيه من غير قرض»، فإن ردَّها إليه؛ يقول له: جزاك الله خيراً، ولا يقبلها.

٥ ـ حدثني ابنه عبدالله؛ قال: «تزوجت في حياته، وسكنت في

بيت مستقل، فكان يعطيني جزءاً من راتبه لا يكفيني، ويعطي غيرنا كثيراً، فقلتُ: أنا ولده وطالب علم ولا يعطينا ما يكفي ويعطي الأباعد كثيراً؟! فسمعتُه مرة يقول: أنا مختار وعبدالله[1] لا أعطيهم مالاً؛ لأن الفلوس تخرب الرجال[2]، وكان إذا كانت نفسه غير راضية عن شخص لا يردُّ له طلباً».

٦ ـ كان (رحمه الله) يقول: «الريال الواحد والألف سواء، المهم أن يكون صرفها سليماً».

فلم يكن (رحمه الله) ينظر إلى الكثرة والقلة، بل إلى ما صُرِفت فيه.

٧ ـ أهدى له الأمير عبدالله بن عبدالرحمٰن آل سعود شقيق الملك عبدالعزيز بيتاً في الطائف، فردَّه، ولم يقبله، فسئل عن ذٰلك؟ فقال:

«الذي بناه يحتاجه لنفسه، أما أنا فلم أبنِه ولا أحتاجه، وعندي بيت في المدينة يكفيني».

وقد رأيت بيتَه في باب الكومة بالمدينة، وهو بناء شعبي؛ أي: سقفه من خشب، لا من حديد، يقع في دورين، في كل دور أربع غرف، وكان الأسفل منهما يغص بطلبة العلم من المغتربين وغيرهم.

---

(١) هما ابنا الشيخ (رحمه الله).

(٢) رحمه الله رحمة واسعة، فكلامه نابع من مشكاة النبوة؛ حيث قال ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على مَن كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم» متفق عليه، وقال: «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال» أخرجه الترمذي وصحَّحه الألباني، انظر: «صحيح سنن الترمذي» (٢ / ٢٧٣) (رقم ١٩٠٥).

وكان (رحمه الله) يشرب ماء الزير، ولا يشرب من الثلاجة إلا قليلاً، ويجلس على الحصير، ويأخذ أوراقه في الدهليز ويطالع.

٨ ـ كان الأمير المذكور آنفاً قد عمد البنك الأهلي بالمدينة أن إذا طلب الشيخ منهم أي مبلغ يعطونه، فلم يطلب، ولم يأخذ شيئاً إطلاقاً.

٩ ـ لم تبع كتبه في حياته، وكان يقول: «علم نتعب عليه ويباع وأنا حي؟ لا يمكن هٰذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس[1] ويوزع للناس مجاناً، وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضاً إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس».

١٠ ـ حدثني الدكتور بكر أبو زيد، وهو من أبرز تلاميذه، ولم يأخذ عنه علم النسب في جزيرة العرب سواه؛ قال:

«كان الشيخ (رحمه الله) لا يلتفت إلى نفسه في أمور المظهر، حتى إن نعله ربما تكون ذات لونين، أحدهما أحمر والآخر أخضر».

١١ ـ قال الشيخ بكر أبو زيد في كتابه «حلية طالب العلم» ما نصه:

«وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله تعالى) متقلِّلاً من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: لقد جئت من البلاد (شنقيط) ومعي كنز قلَّ أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب؛ لعرفتُ الطريق إليها؛ فإني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية، فرحمه الله تعالى

---

(١) وكان الذي قام بذٰلك في حياته هو محمد عوض بن لادن (رحمه الله).

رحمة واسعة آمين»[1].

١٢ ـ من ورعه (رحمه الله) ما حدثني تلميذه الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي؛ قال:

«راجعت الشيخ (رحمه الله) في ترك الحج في السنة التي توفي فيها نظراً لسوء صحته، فقال: دع عنك المحاولة، سفري إلى لندن أريد الشفاء بها لا بد أن أكفر عنه بحج».

١٣ ـ قال الشيخ عطية محمد سالم في ترجمته: «والواقع أن الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئاً، فلم يكن يهتم لها، ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ولا مرتباً ولا ترفيعاً لمرتبة ولا حصولاً على مكافأة أو علاوة، ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه[2]، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين، وكنت أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة[3]، ومات ولم يخلف درهماً ولا ديناراً، وكان مستغنياً بعفته وقناعته، بل إن حقه الخاص ليتركه تعفُّفاً عنه كما فعل في مؤلفاته ـ وهي

---

(١) «حلية طالب العلم» (ص ١٢).

(٢) ليس هٰذا على إطلاقه؛ فقد رد البيت الذي أهداه له الأمير عبدالله بن عبدالرحمٰن، ولم يأخذ من البنك الأهلي شيئاً، مع أن الأمير قد عمدهم بإعطائه ما يريد، وقد سبق ذكر هاتين الحادثتين، ولعل قصد الشيخ عطية أن ما جاءه من المرتبات والترفيعات والمكافآت والعلاوات من قبل عمله أخذه ولكن سبيله كما ذكر الشيخ عطية في تتمة كلامه.

(٣) هٰذا لا يعارض ما ذكرته سابقاً من أن ابنه عبدالله كان يتولى التوزيع، إذ يحمل على تعدد الوقائع، فالشيخ عطية يتولاَّها في الرياض وابنه في المدينة، ولا مانع من تعدُّد مَن يتولاَّها في البلد الواحد أيضاً.

فريدة في نوعها ـ لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم[1]، وسمعته يقول: لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم يكفيني مدى الحياة، وأخشى عليه الضياع. فقلت له: وما هو؟ قال: القناعة[2]، وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجُـوعُ يُطْرَدُ بالـرَّغِيفِ اليابِسِ فعَلامَ تَكْثُرُ حَسْرَتي ووَسَاوِسِي»[3]

□ بكاؤه من خشية الله:

وكـان (رحمـه الله) كثير البكـاء من خشية الله، سمعت الشيخ عبـدالرحيم الطحان (وفقه الله) في محاضرة له ألقاها بعنوان (البكاء من خشية الله رب الأرض والسماء)[4]؛ قال ما نصه:

«وأذكر أنني حضرت موعظة للشيخ المبارك محمد الأمين الشنقيطي (عليه رحمة الله) في المدينة المنورة في رمضان في تفسير قول الرحمٰن: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرْضِ بَعْدَ إصْلاحِها﴾، فما قطع المحاضرة إلا بالبكاء». اهـ كلامه بلفظه.

وقد سمعت الكثير من تسجيل دروسه (رحمه الله)، وفي كثير منها

---

(١) سبقت الإشارة إلى ذلك من كلام ابنه عبدالله.

(٢) قال مثل ذلك للشيخ بكر أبو زيد كما سبق، ولعله قالها بحضرة الشيخين بكر وعطية.

(٣) «ترجمة الشيخ عطية له» في «آخر الأضواء» (١٠ / ٦١)، وقد تمثل بهٰذا البيت عند نزولهم في بلدة (الأبيض) عند رجل اسمه محمد خير، وانظر خبره في: «الرحلة».

(٤) المحـاضرة مسجلة في شريط متداول بين طلبة العلم، ويباع في المكتبات السمعية، وقد حصلت عليه من مكتبة الأمانة العامة للتوعية الإسلامية بالحج.

يختلط البكاء بالكلام، فيغالب نفسه لإتمام الدرس.

وحدثني ابنه عبدالله؛ قال: «كنت أقرأ عليه القرآن في مكة، فإذا هو يبكي، وقال: يا ولدي! في كتاب الله آية تفرحني كثيراً. فقلتُ: هل الآية آية سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا. . .﴾ الآية؟ فقال: لا، بل هي قوله تعالى: ﴿ويَجْزِي الَّذينَ أَحْسَنُوا بالحُسْنَى. الَّـذينَ يَجْتَنِبـونَ كَبـائرَ الإِثْمِ والفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾، ونحن تجنَّبنا كبائر الإثم، وإن شاء الله نترك ما استطعنا من صغارها».

□ **سَمْتُه ودلُّه (رحمه الله):**

ومن أبرز ملامح شخصيته (رحمه الله) ذٰلك الوقار، والتؤدة، وحسن السمت، والاقتصـاد في أقـواله وأفعاله، وتجافيه الشديد عن الوقوع في أعـراض النـاس، وعـدم السماح بذٰلك في مجلسه مهما كان المتكلم، والنهي الشديد عن اللغو واللغط في مجالسه (رحمه الله).

حدثني الشيخ بكر أبو زيد (حفظه الله)؛ قال: «لو مر في جمع من الناس وأنت لا تعرفه؛ لقلتَ: هٰذا عالم كبير؛ لما تلمحه فيه من النبوغ والألمعية، ولما عليه من جلالة العلم ووقار العلماء».

وحـدثني ابنه عبدالله عنه أنه قال في معرض التحذير من أعراض الناس: «قتل الأولاد وأخذ الأموال أهون من أخذ الحسنات لشايب كبير»؛ يعني: نفسه (رحمه الله)، وهو تحذير من الغيبة.

وحـدثني أيضـاً: «أن رجلاً كبيراً اغتاب أحداً عنده، فنهاه، فقال المغتاب: أنا المتكلم لا أنت. فرد عليه الشيخ بقوله: أنا شايب بين جنبي

سورة البقرة، تسكت بأدب أو تخرج».

وحدثني عنه أيضاً أنه كان يقول: «لا يتكلم في أنساب الناس إلا أحد رجلين: رجل به حسدٌ يريد أن ينقص الناس عن نفسه، أو رجل قليل النسب يريد أن يلحق الناس به».

ومما يؤكد شدة تجافيه وبعده عن الغيبة قوله (رحمه الله) في شأن الرجل العربي الذي استضافهم في قرية (آتيه): «فالتمسنا عربيّاً نبيت عنده، فدعانا رجل عربي، والله ما سألت عن اسمه ولا اسم أبيه خوفاً من الغيبة، فأنزلنا في مكان يعوي منه الكلب، وأغلقه علينا من الخارج، فبتنا ليلة لا أعاد الله علينا مثلها...»[1] إلخ كلامه.

وقال الشيخ عطية (وفقه الله) ما نصه: «ولم يكن يغتاب أحداً أو يسمح بغيبة أحد في مجلسه، وكثيراً ما يقول لإخوانه (تكايسوا)؛ أي: من الكياسة والتحفُّظ من خطر الغيبة، ويقول: إذا كان الإنسان يعلم أن كل ما يتكلم به يأتي في صحيفته؛ فلا يأتي فيها إلا الشيء الطيب»[2].

وقال أيضاً: «أما مكارم أخلاقه ومراعاة شعور جلسائه؛ فهذا فوق حد الاستطاعة، فمذ صحبته لم أسمع منه مقالاً لأي إنسان ـ ولو مخطئاً عليه ـ يكون فيه جرح لشعوره، وما كان يعاتب إنساناً في شيء يمكن تداركه، وكان كثير التغاضي عن كثير من الأمور في حق نفسه، وحينما كنت أسائله في ذلك يقول:

---

(١) «رحلة الحج» (ص ١٠٣).

(٢) «الترجمة» (ص ٦٣).

لَيْسَ الـغَـبِـيُّ بِسَـيِّدٍ في قَوْمِـهِ لٰكِـنَّ سَيِّدَ قَوْمِـهِ الـمُتَغـابِي»[1]

ومما يؤكد هٰذا المعنى قول الشيخ (رحمه الله): «ومما كتب عني الشيخ إبـراهيم المذكور[2] قصيدة كنت قلتها في عنفوان شبابي في شأن رجلين من قبيلتنـا وقعت بينهمـا شحناء، فهجا أحدهما الآخر، ولحنه، وادعى الهاجي عليَّ أني دسست للمهجو شعراً ينتقم به منه، فغضبت من تزويره عليَّ؛ لأني ـ ولله الحمد والمنة ـ لست ممَّن يهجو، وما كافأت أحداً بسوء وما أخذت أخاً بزلة؛ تحدُّثاً بنعمة الله تعالى، فكيف أدخل بين رجلين نزغ الشيطان بينهما فحمل أحدهما على هجو الآخر إلا بالإصلاح بينهما؟!».

ثم ذكر سبب الهجاء، واسم الهاجي والمهجو، والقصيدة التي فيها الهجاء، ثم ذكر قصيدته في رد الدعوى التي لا تليق، وهي في ثلاثين بيتاً، ومما قاله فيها:

وتَـمْـنَـعُـنِـي مِنْ ذَاكَ نَفْسٌ عَزيزَةٌ غَلَا سِعْرُها في السُّوقِ يَوْمَ كَسادِهِ
تَهابُ الخَنا والنَّقْصَ في كُلِّ مَوْطِنٍ وقَـلْـبٌ يُقَـوِّيهـا بِشَـدَّةِ آدِهِ

وفيها:

---

(١) «الترجمة» (ص ٦٢ و٦٣).

(٢) ذكره الشيخ قبل صحيفتين من كلامه هٰذا بقوله: «ثم سألني صديقي النحوي الكبير ذو الشمـائـل الـطيبـة أحد أساتذة المعهد المذكور ـ وهو المعهد الديني بأم درمان بالسـودان ـ الأستـاذ الشيخ إبـراهيم يعقوب، فقال لي: أأنت شاعر أم لا؟»، فقال: أمـا بالجبلة والطبيعة؛ فنعم، وأما من حيث التوصُّل بالشعر إلى الأغراض والأكل به من الملوك والأمراء؛ فلا، فألحَّ عليه أن يسمعه شيئاً من شعره، فأسمعه وكتب عنه.

ولَسْتُ بِمَنْ يُغْـريهِ مَنْ جَاءَ مُغْرياً ولا مَنْ يُعادي الدَّهْرَ مَنْ لَمْ يُعادِهِ

وفيها:

وإنِّي لأكْسُـو الخِلَّ حُلَّةَ سُنْدُسٍ إذا مَا كَسـانِـي مِنْ ثِيابِ حِدادِهِ
وكَـائِنْ يَغِيْظُ المَـرْءَ ظَنُّ حَبيبِـهِ بِهِ السُّوءَ بعض الظن إثم فعادِهِ[1]

وقال الشيخ عطية أيضاً: «وإذا كان علماء الأخلاق يعنونون لأصول الأخلاق والفضائل بالمروءة؛ فإن المروءة كانت شعاره ودثاره، وكانت هي التي تحكمه في جميع تصرفاته، سواء في نفسه أو مع إخوانه وطلابه أو مع غيرهم من عرفهم أو لم يعرفهم»[2].

ومما يصلح مثالاً لما ذكر الشيخ عطية ـ والأمثلة كثيرة ـ ما حدَّثني ابنه عبدالله؛ قال:

«كنتُ أذهب إلى الحرم لصلاة الظهر فيه في حر الصيف مع الوالد في السيارة، وأرجع ماشياً؛ لأن سيارته قد امتلأت بالطلبة والجيران، ويقول لي: عيب تنزل أحداً ركب، اذهب ماشياً» اهـ.

وحدثني أيضاً أن زوجته الأخيرة لا زالت تبكي إلى الآن كلما ذكرته، وكان يعاملها كأنها ضيف في البيت، ويقول:

«هٰذه ضيفة، كلمة تخرجها من البيت» اهـ.

وكـان (رحمـه الله) على جانب كبير من التـواضـع والإزراء على

---

(١) «رحلة الحج إلى بيت الله الحرام» (ص ٢٤٩ ـ ٢٥٢).
(٢) «الترجمة» (ص ٦٠).

النفس، يظهر لك ذٰلك في أدعيته، انظر إلى قوله مثلاً:

«ونرجوا من الله الكريم ـ على ما فينا ـ أن نكون داخلين في قوله ﷺ الثابت في «صحيح البخاري» من حديث أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه): خيرُكُم مَن تعلَّم القرآن وعلَّمه...»[1] إلخ.

ويذكرني قوله هٰذا بقول بكر بن عبدالله المزني وهو واقف بعرفه: «لولا أني فيهم؛ لقلت: قد غفر لهم».

علَّق الذهبي على ذٰلك قائلاً: «قلتُ: كذٰلك ينبغي للعبد أن يزري على نفسه ويهضمها»[2].

وكثيراً ما يلقَّن طلاب العلم ذٰلك الخلق متمثلاً قول الشاعر:

الـعِـلْمُ حَرْبٌ للفَـتَـى المُتَعـالِي كالسَّيْلِ حَرْبٌ للمَكـانِ العَـالي

وقـال الشيخ عطية ما نصـه: «أمـا النـاحية الشخصية في تقـويمه الشخصي لسلوكه وأخلاقه وآدابه وكرمه وعفته وزهده وترفُّع نفسه وما إلى ذٰلك؛ فهٰذا ما يستحق أن يفرد بحديث...».

إلى أن قال: «ومـا كان (رحمه الله) يحبُّ أن يذكر عنه شيء في ذٰلـك، ولكن على سبيل الإجمـال، لو أن للفضـائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال في الرجال عنوان يجمعها لكان هو أحق به»[3].

وقال في ختام ترجمته: «وفي الجملة؛ فقد كان (رحمه الله) خير

---

(١) «الأضواء» (١ / ٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٥٣٤).

(٣) «الترجمة» (ص ٦٠).

قدوة وأحسنها في جميع مجالات الحياة[1]، فكان العالم العامل، ولا أزكي على الله أحداً»[2] اهـ.

وقد قال ﷺ: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»[3].

---

(١) مقصود الشيخ عطية: ممَّن شاهدهم وعاشرهم، وإلا؛ فصاحب هٰذا الوصف على الإطلاق هو رسول الله ﷺ، أو يكون قصده أنه قدوة خيِّرة حسنة.

(٢) «الترجمة» (ص ٦٤).

(٣) أخرجه الترمذي عن عبدالله بن سرجس في (البر، باب ما جاء في التأني والعجلة، رقم ٢٠١١)، وقال الترمذي: «هٰذا حديث حسن غريب»، وقال: «وفي الباب عن ابن عباس».

وأخرجه: أحمد في «المسند» (١ / ٢٩٦) عن ابن عباس مرفوعاً، ومالك في «الموطإ» بلاغاً (٢ / ٩٥٤ و٩٥٥)، وأبو داود في (الأدب، باب في الوقار، رقم ٤٧٧٦)؛ بلفظ: «القصد والتؤدة وحسن السمت جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة» في «الموطإ»، وبلفظ: «إن الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوَّة» في «سنن أبي داود».

وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢ / ١٩٥) (رقم ١٦٣٥ و٢٠٩٥)، وكذا الأرناؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (١١ / ٦٨٩ و٦٩٠).

وقال ابن الأثير في «جامع الأصول»: «الهدي والسمت والدل: حالة الرجل وهيئته ومذهبه».

وقال: «والاقتصاد: سلوك الأمر في القصد والدخول فيه برفق...».

إلى أن قال: «ومعنى قوله: «الهدي الصالح...» إلى قوله: «من النبوة»: أن هٰذه الخلال من شمائل الأنبياء، ومن جملة الخصال المعدودة من خصالهم، وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، فاقتدوا بهم فيها وتابعوهم، وليس معنى الحديث أن النبوّة تتجزأ، ولا أن من جمع هٰذه الخلال؛ كان فيه جزء من النبوة؛ فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هي كرامة من الله. ويجوز أن يكون أراد بالنبوة ها هنا ما جاءت به النبوة ودعا إليه الأنبياء. ويجوز =

وقد جمع الله للشيخ ذٰلك على وجه يعد من أكمل الوجوه وأتمها، ومصداق ذٰلك في ما ذكرنا عنه في هٰذا الفصل وبقية فصول الترجمة، وفيما تجده مبثوثاً في كتبه (رحمه الله).

ومما يكثر التمثل به قول القائل:

فلا تَغْلُ في شَيْءٍ مِنَ الأمْرِ واقْتَصِدْ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمُورِ ذَميمُ

فكان بحق نموذجاً لعلماء السلف في عصر كثر فيه المتاجرون بالعلم إقبالاً على الدنيا واغتراراً بزخرفها وانشغالاً بالمناصب والجاه حتى ضحَّى بعضهم بدينه وعلمه في سبيلها، ووصل الحال ببعضهم أن أفتى بمنع أذان الفجر بمكبرات الصوت في بلد إسلامي لئلا يزعج النصارى! وأفتى البعض بجواز الربا! وأفتى البعض بجواز رقص المرأة عارية إلا مما يستر سوأتها أمام النساء! بل وصل الحال ببعض المتملِّقين أن يقول لبعض من ابتلي المسلمون بولايته عليهم ولا يقيم حدود الله ويحارب الدعاة إلى الله: لو كان لي من الأمر شيء لجعلتك في منزلة مَن لا يسأل عما يفعل! والأمثلة على ذٰلك كثيرة جدّاً، يصعب حصرها، بل يصعب ذكر نموذج لكل شعبة من شعب الزيغ عند كثيرين ممَّن لبِسوا ثوب العلم زوراً ومتاجرة...

ففي أجواء كهٰذه؛ يَسُود فيها الجاهل، ويتكلم فيها الرويبضة، وتنكس فيها أعلام السنة، وترفع أعلام البدع والشهوات؛ لا نلام إن أسهبنا في ذكر نماذج من حياة رجال سلكوا الجادَّة علماً وعملاً ودعوةً وخُلقاً وسلوكاً، فكانوا بحق بقية السلف الصالح في كل ذٰلك.

= أن يكون المعنى: إن من اجتمع له هٰذه الخلال؛ لَقِيَه الناس بالتعظيم والتوقير، وألبسه الله لباس التقوى الذي يُلبِسُه أنبياءه، فكأنها جزء من النبوة».

وأنا أعلم أن حال الشيخ أكثر بكثير مما دوَّنته في هٰذا الفصل، ولولا خشية الإطالة؛ لكتبت كل ما علمت مما أشرت إليه في هٰذا الفصل، ولكن ما ذكـر يكفي إن شاء الله في الدلالة على ما كان عليه (رحمه الله) من ذٰلك، لا سيما مَن قرأ كتبه.

بقيت أمـور ربما يكون لها صلة بهٰذا الفصل من قريب منها: أنه (رحمه الله) كان قناصاً من الطراز الأول، لا يكاد يخطىء إذا رمى، حدثني بذٰلك ابنه عبدالله، وقال:

«توفي وعنده بندقيتان، إحدهما من نوع شوزن، والأخرى من نوع ساكتون، وكان يخرج كل جمعة للصيد في ضواحي المدينة خارج الحرم، ولا يصيد فيه، ولا يأخذ السواك منه» اهـ كلامه.

وكأني بالشيخ (رحمه الله) يخرج مستحضراً قوله ﷺ: «ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان رامياً»[1]، وقوله: «ألا إن القوة الرمي»[2]؛ ممتثلاً هٰذا الأمـر، حتى أجاد تلك الإجادة، فرحمه الله ما أتبعه لسنن السلف وأشبه حاله بحالهم!

□□□□□

(١) أخرجه البخاري في «الجهاد» عن سلمة بن الأكوع.

(٢) أخرجه مسلم وغيره.

المبحث الثالث
تلاميذُه وأقوال علماء عصره فيه

□ **تلاميذُه:**

تلاميذُه (رحمه الله) كثر، لا يحصيهم كتاب حافظ، ويكفي لنعرف كثرتهم أن نعلم أنه انشغل بالتعليم عامي ١٣٦٩هـ و١٣٧٠هـ في دار العلوم، وفي الحرم المدني، ثم انتقل إلى الرياض عام ١٣٧١هـ، وظل يدرس في المعهد وكليتي الشريعة واللغة التفسيرَ والأصولَ من عام ١٣٧١هـ إلى عام ١٣٨١هـ، ثم انتقل إلى المدينة حين افتتحت الجامعة الإسلامية وظل يدرس فيها وفي الحرم النبوي إلى وفاته (رحمه الله) عام ١٣٩٣هـ، وحين كان في الرياض كان يأتي للمدينة في الصيف، ويدرس التفسير بالحرم النبوي، ولما انتقل إلى المدينة كان درسه مستمرّاً طول العام، ومن عام ١٣٨٥هـ انقطع درسه في الحرم إلا في رمضان، فصار لا يدرس التفسير إلا في شهر رمضان من بعد العصر إلى قبيل الغروب، وقد ختم القرآن في تفسيره هٰذا نحواً من ثلاث مرار.

فانظر كَمْ من الخلق نهل من علمه في دار العلوم وفي الحرم المدني وفي المعهد العلمي وكليتي الشريعة واللغة حيث درس فيها ما لا يقل عن خمس عشرة دفعة من الطلاب، وفي الجامعة الإسلامية حيث درس فيها ما لا يقل عن ثلاث عشرة دفعة من الطلاب، ثم أضف إلى ذٰلك مَن درسوا عليه في غير المدارس النظامية، ومن تتلمذوا عليه في بلاده قبل مجيئه إلى المملكة، حيث كان (رحمه الله) مدرسة متنقلة في سائر الفنون، يجتمع لك عدد ضخم يصعب حصره.

وحين عرض عليه الشيخ عطية سالم (وفقه الله) التفرغ للتأليف وترك التدريس بالجامعة؛ أجاب الشيخ (رحمه الله) بقوله:

«هٰؤلاء التلاميذ فيران قمرة، يأخذون العلم منا، وينشرونه في الآفاق»؛ شبههم بالفئران في الليلة المقمرة، حيث يتجهون إلى نواحي كثيرة متعددة.

وهٰذا من بعد نظره (رحمه الله)، فقد كانت الجامعة الإسلامية تجمع من جميع دول العالم الإسلامي وغيره، فأخذوا العلم، وانتشروا في البلاد، وحدثني الشيخ عطية (حفظه الله) أنه لقي أعداداً منهم في بعض دول جنوب شرق آسيا.

وسأذكر في هٰذه العجالة بعض تلاميذه الذين عرفت أسماء بعضهم والتقيت ببعضهم، فمنهم:

١ ـ **سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز**: أخذ عنه «شرح سلم الأخضري» في المنطق، ولا أدري هل أكمله أو لا؟ حدثني بذٰلك الشيخ عطية، وحدثني الشيخ محمد الحبيب نقلاً عن الشيخ محمد الأمين ولد الحسين، وأخبرني الشيخ محمد الحبيب أنه كان يرى الشيخ ابن باز يحضر حلقته في التفسير في الحرم المدني ما بين عام ١٣٨٨ و١٣٩٣هـ، وكان الشيخ ابن باز إذ ذاك من أكابر العلماء، ونائباً لرئيس الجامعة الإسلامية، ثم رئيساً لها.

٢ ـ **الشيخ حماد الأنصاري**: التقى به قبل الحج من عام ١٣٦٧هـ، حيث قدما في سنة واحدة، ثم التقى به بعد الحج في المدينة، وسأله عن

مسائل في التفسير والمنطق، ولازم دروسه في التفسير في الحرم المدني ودار العلوم عامي ١٣٦٩هـ و١٣٧٠هـ، وجاوره في الرياض سبع سنوات من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٨١هـ حيث نقل إلى المدينة، وأفاد من مجاورته كثيراً، وكان الشيخ حماد إذ ذاك من كبار العلماء، حيث إن مدة مجاورته له في الرياض كان يدرِّس معه في الكليات، وكذلك درَّس معه في الجامعة الإسلامية من عام ١٣٨٥هـ، ولا يزال يدرِّس بها إلى اليوم.

٣ ـ **الشيخ صالح بن محمد اللحيدان**: نائب رئيس مجلس القضاء الأعلى، وعضو هيئة كبار العلماء، وهو من أوائل تلاميذه، ودراسته على الشيخ كانت في الفصل بكلية الشريعة.

٤ ـ **الشيخ محمد بن صالح العثيمين**: عضو هيئة كبار العلماء، وأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود فرع القصيم، درس عليه في كلية الشريعة في الرياض.

٥ ـ **الشيخ عبدالله بن غديان**: عضو اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وعضو هيئة كبار العلماء.

قال لي الشيخ محمد الحبيب: «إن الشيخ ابن غديان قال له: نفعني الله بابن عمك، علمنا كيف نأخذ العلم وكيف نعطي».

٦ ـ **الشيخ عبدالمحسن العباد**: رئيس الجامعة الإسلامية سابقاً، ومن كبار العلماء، درس عليه في كلية الشريعة بالرياض.

٧ ـ **الشيخ عطية محمد سالم**: وهو أكثر من لازم الشيخ في البيت والمدرسة والسفر والإقامة، وأكثر من اهتمَّ بنشر علم الشيخ وطبع

محاضراته، وصحبه في رحلته إلى إفريقية، وأكمل «أضواء البيان» من أول (الحشر) إلى نهاية (الناس)، وكتب ترجمة للشيخ (رحمه الله) بعد وفاته، وهو الآن قاض بمحكمة المدينة، بارك الله له في عمره وماله وولده آمين.

٨ ـ **الشيخ الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد**: صاحب التصانيف الكثيرة، الباحث المحقق، لازم الشيخ (رحمه الله) عشر سنين، ودرس عليه بعض مذكراته في الأصول وآداب البحث والمناظرة دروساً خاصة في المسجد وفي منزله (رحمه الله)، ودرس عليه كتابَيْ ابن عبدالبر «القصد والأمَم في معرفة أنساب العرب والعجم وأول من تكلم بالعربية من الأمَم»، و«الإنباه على قبائل الرواة»، وقيَّد عليها بعض التحريرات من دروس الشيخ والنكات والضوابط العلمية.

حدثني عبدالله ابن الشيخ (رحمه الله) أن أباه قال للشيخ بكر: «ما أخذ عني علم الأنساب في هٰذه البلاد غيرك».

وحدثني الشيخ الدكتور محمد الحبيب؛ قال: «لقد شاهدت الشيخ بكر أبو زيد يحضر حلقة الشيخ في التفسير في رمضان، لم يتخلف يوماً واحداً».

٩ ـ **الشيخ أحمد بن أحمد الجكني الشنقيطي**: درس عليه شرح «مراقي السعود» كاملاً، وأخذ عليه أمالي سبق ذكرها.

١٠ ـ **الشيخ الدكتور محمد ولد سيدي ولد الحبيب**: وهو جكني، من بني عمومته، تلقى عنه العلم في البلاد عام ١٣٦٧هـ في السنة التي سافر فيها الشيخ (رحمه الله)، حيث درس عليه أمالي في التوحيد، ولازمه

في شهر رجب إلى نهاية ذي القعدة عام ١٣٧٤هـ، حيث كان يحضر درسه في التفسير في الحرم بعد المغرب، والذي بدأ معه فيه من قوله تعالى: ﴿وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَـوِّىءُ المُؤمِنينَ مَقـاعِـدَ للقِتالِ﴾ من سورة آل عمران، ودرساً خاصّاً في سطح بيته (رحمه الله) بعد العشاء في تفسير سورة البقرة، وخرج معه للحج من نفس العام، ودروسه (رحمه الله) مستمرة في السفر والإقامة، غير أنها لم تكن امتداداً للدرس الخاص في سطح بيته ولا لدرس المسجد، إنما هي إفادات عامة، وأسئلة، ثم عاد الشيخ الحبيب إلى بلاده في محرم عام ١٣٧٥هـ، وعكف على ما طُبع من «الأضواء»، إضافة إلى علوم أخرى، ثم رجع إلى المملكة عام ١٣٨٨هـ.

يقـول: «وحاولت دراسة «المراقي» عليه فإذا به قد ضعف عن ذلك، فصرت أقرأ «نشر البنود» على الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي، وآتيه لحل الإشكالات، وقرأت «الألفية» على بعض المشايخ، وآتيه لحل المشكل منها، وقرأت عليه «لامية الأفعال» لابن مالك كاملة، ولازمت دروسه في الحرم، وإفاداته في البيت، ومحاضراته التي يلقي على الحجاج في الحج من ذي القعدة ١٣٨٨هـ إلى نهاية عام ١٣٩٣هـ، حيث ودعته في اليوم السادس عشر من ذي الحجة، وتوفي (رحمه الله) في السابع عشر منه».

والشيخ الحبيب أستاذ بقسم الدعوة بجامعة أم القرى.

١١ ـ الشيـخ الـدكتـور محمـد الخضر بن الناجي بن ضيف الله الجكني: أول لقـائه بالشيخ (رحمه الله) محرم عام ١٣٨٥هـ، وكان قد اطلع على الجزء الأول من «الأضواء» في بلاده عام ١٣٨٠هـ، وعزم على التعلم على مؤلفه، ولم يقدر ذلك إلا بعد خمس سنوات بسبب قلة ذات

اليد، بدأ في ذٰلك العام يتعلم على الشيخ النحو والتفسير في آن واحد، وذٰلك بأن يقرأ بيتين أو ثلاثة من «الألفية»، ثم بعد شرحها يأخذ شيئاً من التفسير في سورة البقرة، وذٰلك في درس خاصٍّ في بيته بعد العصر، لكن المدة لم تطل، حيث سافر الشيخ (رحمه الله) إلى إفريقية من نفس العام، وبقي بها نحواً من ثلاثة أشهر.

وقرأ عليه الجزء الأول من كتابه «آداب البحث والمناظرة»، وهو مقدمات منطقية.

قال الشيخ الخضر: «وتعلمت عليه بعد ذٰلك في الجامعة الإسلامية بعد أن التحقت بها في مادة الأصول في كلية الشريعة، وكنت أجلس عنده في تفسيره للقرآن في كل رمضان، من ١٣٨٥هـ إلى عام ١٣٩٣هـ، ولم يكن في هٰذه الفترة يدرس التفسير في الحرم في غير رمضان، وأهم ما استفدت منه كوني كنت كاتباً له في «أضواء البيان»، وبسبب ذٰلك قرأت عليه الجزء الخامس والسادس وشيئاً قليلاً من السابع، ويلي ذٰلك في الاستفادة كثرة مرافقتي له في بيته حينما يجلس للناس، وحينما يخرج من بيته إلى الحرم، ويرجع منه إلى البيت.

وعلى كل حال؛ ففوائدي منه فوق الحصر، منها أني كلما أشكلت عليَّ مسألة أثناء دراستي في الجامعة ومجالستي مع طلاب العلم؛ أبادر إليه ليحل ما أشكل علي، وإذا رأيت شخصاً يريد سؤاله في مسألة؛ بادرت وحرصت على سماع جوابه ورده على ذٰلك السائل.

وكانت مدة ملازمتي له ما بين عام ١٣٨٤هـ وعام ١٣٩٣هـ، حيث بقيت بصحبته أعوده وأتردد عليه في المستشفى الأهلي بمكة حتى توفي

(رحمه الله)».

والشيخ الخضر أستاذ بقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى.

١٢ ـ الشيخ الدكتور عبدالعزيز القاري: الأستاذ المشارك بقسم الفقه بالجامعة الإسلامية، وعميد كلية القرآن سابقاً، درس عليه في السنة الرابعة بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية أصول الفقه أبواب القياس، ولازم دروسه في التفسير في شهر رمضان من عام **١٣٨١**هـ إلى عام **١٣٩٣**هـ.

١٣ ـ الشيخ الدكتور عبدالله بن أحمد قادري: رئيس شعبة الفقه بالدراسات العليا بالجامعة الإسلامية، صاحب التصانيف المفيدة في الدعوة والتربية والسياسة الشرعية وغيرها.

كان الشيخ (رحمه الله) معجباً بحرصه على الفائدة، ويقول لابنه المختار: إن أحد التلاميذ الأذكياء (اسمه قادري) كان يكتب عنه ما يلقي من المحاضرات في مادة التفسير بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية[1].

تلقى العلم على الشيخ (رحمه الله) خلال أربع سنوات دراسية في كلية الشريعة، من عام **١٣٨٢**هـ إلى **١٣٨٥**هـ، درس عليه في السنة الأولى ما يقارب نصف سورة البقرة، وفي السنة الثانية سورة المائدة وجزءاً من سورة الأنعام، وفي السنة الثالثة سورة هود ويوسف والرعد بتوسع في الأولى وسرعة في الأخيرتين، وفي السنة الرابعة سورة النور، وتفسيره لها

---

(١) انظر: مقدمة «معارج الصعود إلى تفسير سورة هود»، كتبه عن الشيخ (رحمه الله) الدكتور عبدالله قادري، وقدَّم له الدكتور محمد المختار ابن الشيخ محمد الأمين (رحمه الله) (ص ٤) من هذه المقدمة.

شبيه بتفسير سورة هود في التوسع، وسمع منه محاضرات في أصول الفقه[1].

قال الدكتور عبدالله القادري: «لقد كان غالب اتصالي بالشيخ في قاعة الدرس بالكلية، ولكنه كان كثيراً بالنسبة لأيام الدراسة؛ لأنه كان يلقي علينا محاضرات التفسير ومحاضرات أصول الفقه، وحضرت بعض محاضراته في المسجد النبوي، وبعض محاضراته العامة في دار الحديث، أما ما عدا ذلك؛ فكان قليلاً جدّاً، ولا أذكر أني زرته في منزله إلا مرتين؛ لمرضه، وكنت أسأله بعض الأسئلة في خارج قاعة الدرس، وقد أجده جالساً في المسجد النبوي وحده قبل إقامة إحدى الصلوات أو بعدها، فأسأله بعض الأسئلة، وكان غالبها في قواعد النحو»[2].

وقد قام الدكتور عبدالله قادري بكتابه محاضرات الشيخ (رحمه الله) في تفسير سورة هود، ثم بيَّضها وطبعها بعنوان «معارج الصعود إلى تفسير سورة هود»، وهو متداول.

١٤ ـ **ابنه الشيخ الدكتور عبدالله**: رئيس قسم التفسير سابقاً، وعميد كلية القرآن حاليّاً، عالم، طيب الشمائل، كريم السجايا، استفدت منه كثيراً في أخبار والده، جزاه الله خيراً.

١٥ ـ **ابنه الدكتور الشيخ محمد المختار**: عالم، فاضل، فقيه، يدرس بالجامعة الإسلامية.

---

(١) انظر (ص ١١) من مقدمة الكتاب المذكور لجامعه الدكتور عبدالله قادري.

(٢) انظر (ص ٢٠ و٢١) من مقدمة الكتاب آنف الذكر.

وغني عن الذكر ملازمتهما لوالدهما، وإفادتهما منه، واقتداؤهما به في سمته ودلِّه، بارك الله لهما في مالهما وولدهما وعلمهما، وسلك بهما سبيل العلماء العاملين؛ ليكونا خير خلف لخير سلف؛ إنه على ذٰلك قدير.

١٦ ـ الشيخ الدكتور بابا بن بابا بن آده الجكني الشنقيطي: وقد صحب الشيخ (رحمه الله) في القاهرة، ودرس عليه بالمدينة، وهو أستاذ بقسم الشريعة بجامعة أم القرى.

١٧ ـ الشيخ محمد الأمين بن الحسين الجكني الشنقيطي: يحمل الماجستير، ويدرس بالجامعة الإسلامية.

١٨ ـ الشيخ الدكتور محمد عمر بن حوية الجكني الشنقيطي: أستاذ بكلية القرآن بالجامعة الإسلامية.

وبعد؛ فإن من المتعذر الإحاطة بذكر كل من تلقى العلم عن الشيخ (رحمه الله) بله التفصيل في ذكر ما أخذوه عنه ومدة أخذ كل منهم، وإذ ذٰلك كذٰلك، ولئلا يطول الحديث في سرد الأسماء، فيطول بذٰلك الفصل، أكتفي بهٰذا القدر من العلماء الأجلاء من تلاميذه (رحمه الله)؛ لألج في بيان أقوال علماء عصره فيه، فإلى ذٰلك المبحث.

□ أقوال علماء عصره فيه:

١ ـ ما أثر عنه وعن ابنه من ذٰلك: حدثني ابنه عبدالله قال: قال لي أبي:

«نفعني الله بشيخ لي كان يقول لي: اعلم أن الفقهاء يقولون: إذا كان هناك ذكي ذكاء لا يوجد مثله إلا قليل؛ تكون فروض الكفاية فرض عين

عليه، فاتَّقِ الله في الأمة، ففروض الكفاية فرض عين عليك.

ونفعني الله بشعر محمد بن حنبل الشنقيطي:

لا تُسِيءْ بالعِلْمِ ظَنّاً يا فَتى ... إنَّ سُوءَ الظَّنِّ بالعِلْمِ عَطَبْ
لا يُزَهِّدْكَ أَخي في العِلْمِ أَنْ ... غَمَرَ الجُهَّالُ أَرْبَابَ الأدَبْ
إنْ تَرَ العالِمَ نَضْوَاً مُرْمِلاً ... صِفْرَ كَفٍّ لَمْ يُساعِدْهُ سَبَبْ
وتَرَ الجَاهِلَ قَدْ حازَ الغِنَى ... مُحْرزَ المَأْمولِ مِنْ كُلِّ أَرَبْ
قَدْ تَجُوعُ الأُسْدُ في آجامِها ... والذِّئابُ الغُبْسُ تَعْتامُ القَتَبْ
جَرِّعِ النَّفْسَ عَلى تَحْصيلِهِ ... مَضَضَ المُرَّيْنِ ذُلٍّ وسَغَبْ
لا يَهابُ الشَّوْكَ قَطَّافُ الجَنى ... وإِبارَ النَّحْلِ مُشْتارُ الضَّرَبْ»

وحدثني أيضاً أن الشيخ قال له: «حفظت شراح خليل في مدة من الزمن، وبعد ستة شهور بدأ يضيع عليَّ حفظي، فاضطررت لنظمه خوفاً من الضياع».

وحدثني أيضاً أنه قال له: «ما درست شيئاً إلا فهمته إلا مسألتين: أ ـ المقصود بالأحرف السبعة، ب ـ متعلق النهي».

وقد سبق أن نقلت أنه قال لابنه عبدالله: «لا توجد آية في القرآن إلا درستها على حدة».

وقال للشيخ عطية محمد سالم: «كل آية قال فيها الأقدمون شيئاً فهو عندي».

وحدثني الشيخ عطية أنه لما عرض عليه تفسيره لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مكتوباً بعد أن فرغه من الشريط المسجل،

وكـان الشيخ قد ألقاه في المسجد النبوي ارتجالاً، وأعطاه الشيخ عطية الأوراق ليراجعها، وسمع الشيخُ المكتوبَ بصوته؛ قال: «لولا أني أسمع صوتي بأذني وأنت أتيتني بهـا مكتوبة؛ ما صدقت أن شخصاً يقول هٰذا ارتجالاً»، وذٰلك بعد حوالي سنة من إلقائه الدرس، والذي تضمن ردّاً على ابن حزم في إنكاره القياس، وهو مطبوع الآن في ملحق بآخر «مذكرة أصول الفقه» في عشرين صفحة، وسبقت الإشارة إليه.

ولعـلَّ ممَّا يفسِّر عجبه ذٰلك قولُه (رحمه الله) حينما راجعه الشيخ عطية في تخفيف مستوى الدرس: «إن الله يفتح على المرء ما لم يكن يتوقع، ثم إن المسجد يجمع عجائب من أجناس مختلفة، ويكفيني واحد يحمل عني ما بلغت مما عندي».

وحدثني ابنه عبدالله؛ قال: «قرأت عليه (رحمه الله) في مكة جموع التكسير، فأعـطاني من المعلومـات شيئـاً عظيماً، وكنت ملازماً له ست سنوات، لم أره فتح كتاباً في النحو، وما أعطاني إياه؛ لو سمعته؛ لقلت: إنه يحضر له شهراً».

وقـال: «ولم يقرأ والدي علم التصريف على شيخ، وفي قول ابن مالك: «وإن بشكلٍ خيفَ لَبْسٌ يُجْتَنَبْ»؛ قال لي: لم أر النحاة مثلوا لها بشعر، ومثل لها هو بقول الشاعر:

أَقُـولُ مِنْ جزعٍ وقـدْ فِتْـنـا بهِ ودُمـوعُ عَيْنِـي بالـرداء غزارُ

بكسر الفاء من فتنا. قلت له: من أين حصلته؟ قال: من لسان العرب».

وقال: «قال لي الشيخ محمد المختار بن أحمد مزيد الشنقيطي: إذا سألت الشيخ عن شيء في اللغة، فقال لك: لا أدري؛ فلا تبحث عنها في

المعاجم؛ لأنني جربت».

وقال: «كان والدي يكره الشعر جدّاً، ويرى أنه لا يليق بالعلماء، ويكره نسبته إليه، وسمعته كثيراً يكرِّر بيت الشافعي:

وَلَـوْلا الـشِّعْـرُ بالعُلَمـاءِ يُزْرِي ... لَكُـنْـتُ الـيَوْمَ أَشْـعَـرَ مِنْ لَبـيدِ

ووجـدت شعـراً لأبي عند أحد الناس، فأردت حفظه، فقال لي: استأذن أباك، فاستأذنته، فزبرني بشدة، ونهاني عن تعلمه ونسبته إليه».

٢ ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار سابقاً (رحمه الله):

حدثني الشيخ بكـر أبـو زيد أن الشيخ محمد بن إبراهيم قال في الشيخ الشنقيطي: «ملىء علماً من رأسه إلى أخمص قدميه».

قال الشيخ بكر: «ولم أسمعها منه، ولكنها مستفيضة، وحدثني بها الشيخ محمد الخضر الناجي، وكذلك الشيخ عبدالله بن الشيخ (رحمه الله)، وسألت عنها سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز؟ فقال تحريراً في ٢٤/ ٧/ ١٤١٠هـ ما نصه: . . . أما ما سمعته من شيخنا العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ في حقه؛ فلا أذكر شيئاً محدَّداً، إلا أنه (رحمه الله) يثني عليه كثيراً، ويصفه بالعلم والفضل، وأسأل الله أن يتغمَّدهما جميعاً بالرحمة، وأن يجزيهما عمَّا قدَّما للمسلمين أحسن الجزاء إنه خير مسؤول».

وذكـر لي الشيخ بكـر أبـو زيد عن ابن إبراهيم أنه قال في الشيخ الشنقيطي: «آية في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب».

وحدثني الشيخ عطية سالم: أن الشيخ محمد بن إبراهيم أسند درس الأصول لكبار المشايخ إلى الشيخ، وقال: «هو أحقُّ مني بذلك»، وأنه لم يستقبل إنساناً عند باب المجلس ويودعه إليه إلا الشيخ الشنقيطي والملك سعود. اهـ.

وكان الشيخ (رحمه الله) يقول عن الشيخ محمد بن إبراهيم (رحمه الله): «ما رأيت رجلاً أعقل منه» اهـ. حدثني به ابنه عبدالله.

٣ ـ سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (حفظه الله):

كتبت إليه أسأله عن قوله في الشيخ (رحمه الله)، فأجاب: «. . . ما تضمنته رغبتكم في إفادتكم بما أعلمه عن فضيلة الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله) كان معلوماً.

والجواب: أعرف عن الشيخ المذكور العلم الواسع بالتفسير واللغة العربية وأقوال أهل العلم في تفسير كتاب الله عز وجل والزهد والورع والتثبت في الأمر، ومن سمع حديثه حين يتكلَّم في التفسير؛ يعجب كثيراً من سعة علمه واطلاعه وفصاحته وبلاغته ولا يمل سماع حديثه، فرحمه الله رحمة واسعة، ونفع المسلمين بعلومه. . .».

ثم ذكر ما سمعه من شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم في الشيخ الشنقيطي، وقد سبق نقله قريباً، والشيخ ابن باز قد صحب الشيخ الشنقيطي دهراً طويلاً.

٤ ـ العلامة محمد ناصر الدين الألباني:

وقد صحبه نحو ثلاث سنوات في الجامعة الإسلامية، سألته عن قوله

فيه فقال:

«من حيث جمعُه لكثير من العلوم ما رأيت مثله، كان حينما يلقي المحاضرة يذكرني بشدة حفظه واستحضاره للنصوص وبخاصة الآيات القرآنية بشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في قوة استحضاره للآيات التي تتناسب مع البحث الذي هو يخوض فيه، ولذلك فهو أهل لأن يتحدَّث في كثير من علوم الشريعة؛ كالتفسير، والفقه، وعلم الأصول، وبخاصة أصول الفقه، ولكن بالإضافة إلى هٰذه الخصال التي قلَّما تتوفر بهٰذه القوة في عالم رأيت أو سمعت كلامه أو محاضراته، فهو لم يكن عنده عناية خاصة بعلم الحديث تصحيحاً وتضعيفاً، ولذلك فهو حينما يذكر حديثاً ويخرجه يأتي إليه من أقرب باب، فهو يقتنع مثلاً بأن يقول: رواه الترمذي وحسنه أو صححه، أو رواه ابن حبان أو ابن خزيمة في صحيحيهما، ولا نكاد نرى منه نقداً لحديث ينسبه إلى أمثال هٰؤلاء الأئمة، مع أنه معلوم لدى المشتغلين بعلم الحديث أنهم من المتساهلين في تصحيح الأحاديث وتحسينها[1]...

بالإضافة إلى هٰذا؛ فكانت فيه خصلة تدل على أن الإنسان مهما سما وعلا؛ فهو إنسان، خلق ضعيفاً، فقد كنت ألاحظ أحياناً في بعض محاضراته يقوم طالب من طلابه الذين يتلقَّون العلم منه يورد عليه سؤالاً أو إشكالاً، فما يكاد يناظر أو يناقش الشيخ في تلك المسألة إلا وتجد الشيخ (رحمه الله) كأنه انقطع، ولا يتابع مناقشة الطالب حتى تقوم عليه الحجة،

(١) علاقته بالشيخ كانت من عام ١٣٨١ ـ ١٣٨٣هـ، وقد عاش الشيخ بعدها عشر سنوات.

وكأني أشعر ـ والله أعلم ـ بأن هٰذا نابع من كونه لا يرى أن المجادلة تفيد في المسائل العلمية، فكان بدل ما يستعمل سلطة الشيخ على تلميذه أن يقول له كما يفعل بعض المتجبِّرين من المشايخ أو الدكاترة: اسكت ومالك في هٰذا الشأن، ما كان يفعل هٰذا، بل ينهي القضية بأن يسكت، ولو حكم الحاضرون بأن الشيخ ضعيف في علمه وهو أقوى ما يكون، لكنه ليس قويّاً في مناقشته ومجادلته[1].

هٰذا الذي لاحظته منه وتبينته في تلك الصحبة نحو ثلاث سنوات في الجامعة الإسلامية...

وكان (رحمه الله) متواضعاً، وليس ككثير من المشايخ يحبون الأبهة والتعاظم، فكان أصغر طالب يستطيع أن يتكلم معه، وهٰذا من سمت أهل العلم والأدب» اهـ كلامه مع حذف بعض الاستطرادات، وهو مسجل في شريط كاسيت.

---

(١) كلام الشيخ الأول يوهم أنها صفة نقص، وكلامه الأخير يدلُّ على أنها صفة كمال، والثاني أرجح عندي، وتعليل سكوته في نظري أنه في عامَّة دروسه ومحاضراته يبالغ في إيضاح مراده بحيث لا يسأل إلا مَن غفل أثناء حديثه، أما مَن كان مصغياً؛ فإن المراد واضح، ومَن قرأ «الأضواء» وسمع أشرطته (رحمه الله)؛ تبيَّن له ذٰلك، ومعلوم أن الشيخ (رحمه الله) قد وضع كتاباً في فن المناظرة.

وقد قال قاضي (قرو) في موريتانيا بعد أن سمع جواب الشيخ (رحمه الله) على مهام من المسائل العلمية: «لم يبق لأحد هنا كلام؛ فقد ظهر الحق، ولا سؤال؛ فقد زال اللبس، وإن الحضور بين أحد رجلين: عالم؛ فقد عرف الحق فلم يبق له سؤال، وجاهل؛ فلا يحق له أن يسأل» انتهى من «ترجمة الشيخ عطية» (ص ٤١).

٥ ـ الشيخ حماد الأنصاري:

وهو من علماء الحديث الكبار بالجامعة الإسلامية، سألته عن قوله فيه؟ فقال:

«بارع في علوم كثيرة، لا سيما في الوسائل: اللغة، الأدب، النحو، التصريف، البلاغة، المنطق، أصول الفقه، والفقه المالكي، وهو أقوى ما يكون، ولكثرة تدريسه في التفسير؛ صار داعياً له للاطلاع على المذاهب الأخرى، فاشتغل بها وتقوى، ولكن دون المالكي، وجمع فيها مراجع يقرأ فيها، حتى كأنه حفظها، وهو بحر في هٰذه العلوم، وكذٰلك في التفسير له باع طويل في تفسيره بالقرآن والسنة، ولكن بالسنة تقوَّى فيه بعد التدريس في الحرم والرياض، وله حافظة نادرة قوية، ويعتبر في وقته نادراً، ولم يكن له منافس في تفسير القرآن بأنواعه الأربعة: بالقرآن والسنة وأقوال السلف واللغة العربية، وعنده في اللغة استحضار عديم النظير» انتهى كلامه.

والشيخ حماد (حفظه الله) حضر دروس الشيخ في دار العلوم وفي الحرم النبوي عامي ١٣٦٩ و١٣٧٠هـ، وسكن بجوار الشيخ (رحمه الله) في الرياض، واستفاد منه كثيراً من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٨١هـ مدة سبع سنوات حيث انتقل الشيخ (رحمه الله) للتدريس بالجامعة الإسلامية، ولم ينتقل الشيخ حماد إلا عام ١٣٨٥هـ، حيث صاحبه فيها إلى أن توفي (رحمه الله) عام ١٣٩٣هـ، فمجموع مصاحبته له سبعة عشر عاماً تقريباً.

٦ ـ الشيخ إسماعيل الأنصاري:

وهو من علماء الحديث في الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية

والإفتاء، سألته عنه؟ فقال:

«ليس لي به كبير صلة، وهو علَّامة، متمكن في علم التفسير وعلم الأصول والمنطق، ولسانه أقوى من قلمه، إذا جلس في مجلس؛ يسكت الحاضرين بسعة علمه، أما كتابته؛ فلا تصل إلى هٰذا الجد، يندهش الحاضرون لما يرون من سعة علمه، فحين يتكلم في الآية تتسابق إليه العلوم من بلاغة ونحو وشواهد عربية وغيرها مما يدهش الحاضرين». انتهى كلامه.

وأكتفي بهٰذا العدد من العلماء الذين عاصروه وعرفوه من قريب من أعلام أهل السنة في هٰذا العصر، إذ يصعب حصر المثنين عليه خيراً في علمه وورعه وزهده.

أما تلاميذه فأقوالهم فيه أضعاف أضعاف ما نقلت عن أقرانه من العلماء، وإن كان بعض أقرانه قد درس عليه شيئاً من العلوم كالشيخ حماد.

وكان الشيخ الألباني يحضر دروسه ومحاضراته كما سبق نقله من كلامه.

وحدثني ابنه عبدالله بأن الشيخ عبدالعزيز بن باز أخذ عنه المنطق، والشيخ عبدالعزيز بن صالح إمام المسجد النبوي أخذ عنه النحو والصرف.

وقد سبق ذكر كلمة الشيخ بكر أبو زيد: «لو كان في هٰذا الزمن أحد يستحق أن يسمى شيخ الإسلام لكان هو».

وعلى أية حال؛ فلا أريد الاستطراد في ذكر أقوال العلماء الذين عرفوه فيه، إذ الحصر متعذر، وفي البعض تنبيه على الكل، ومن ذكرت هم

أبرز معاصريه من أهل السنة الذين عرفوه عن كثب.

ولعل مراجعة الفصل الثاني من هٰذا الباب (سياق رحلته إلى حج بيت الله الحرام) يصور لنا إعجاب ـ بل ذهول ـ كل من مر عليهم والتقى بهم في طريقه من سعة علمه وإجابته عن كل ما يورد عليه، وهو إذ ذاك في الثانية والأربعين من عمره، وقد استجدت له من المعارف والعلوم بعد استقراره بالمملكة ما لم يكن عنده من قبل، كالاطلاع الواسع على كتب المذاهب الأخرى، والتوسع في علم الحديث، واستيعاب أكثر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، فازداد نوراً على نور.

وبعد هٰذه الجولة المختصرة في ترجمته (رحمه الله)، والتي لو أطلقت الزمام للقلم فيها لبلغت مجلداً، أرجو أن أكون قد وفقت لإلقاء الضوء على جوانب مهمة من حياة هٰذا الجهبذ الحبر البحر، والله المستعان.

□□□□□

الفهرس

المقدمة ٥
الفصل الأول: حياته قبل مجيئه إلى المملكة ٩
المبحث الأول: نسبه، ولادته، نشأته ٩
المبحث الثاني: طلبه للعلم ومشايخه فيه ١١
أنواع الدراسة في القرآن ١١
المنهج السائد في بلاده وقت طلبه للعلم وأثره عليه ١٥
إفراد الفنون ١٦
طريقة الدراسة اليومية ١٦
دراسة الشيخ (رحمه الله) ١٧
الحياة الدراسية ١٨
المبحث الثالث: أعماله وجهوده في نشر العلم قبل قدومه إلى المملكة ٢١
المناطق التي أفتى فيها ودرس في طريق رحلته للحج ٢٢
مؤلفاته في بلاده ٢٤
الفصل الثاني: سياق رحلة حجه وما فيها من النكت العلمية والأدبية ٣١
الفصل الثالث: جهوده في الدعوة ونشر العلم بعد استقراره بالمملكة ٦٧
سبب استقراره بالمملكة ٦٧
جهوده في التدريس ونشر العلم ٦٩
مصنفاته (رحمه الله) بعد وصوله إلى أرض الحرمين ٧٥

خلاصة أدلة الشيخ على نفيه للمجاز ٧٦
خلاصة رد الدكتور المطعني على الشيخ في رأيه في المجاز ٧٨
التعقبات على رد الدكتور المطعني ٨٠
التعقب الأول ٨٠
التعقب الثاني ٨١
التعقب الثالث ٨٢
معارضة دعوى الدكتور ٨٦
التعقب الرابع ٩٦
الملاحظات على تعقبات الأستاذ أحمد جمال على «دفع إيهام الاضطراب» ١٠٢
ما تمتاز به «مذكرة أصول الفقه»، وبيان موضوعها ١١٢
قيمة المذكرة التوثيقية ١١٣
تنقيحها من المباحث الكلامية ١١٤
طريقة الشيخ في «المذكرة» ١١٦
سبب تأليف «آداب البحث والمناظرة» ١١٨
حصر المسائل العلمية الخمس والأربعين الواردة في «رحلة الحج» ١٢٣
مخطوط «شرح مراقي السعود» وقصة تأليفها وبيان أهميتها ١٢٩
الفصل الرابع: عقيدته رحمه الله ١٤١
أقسام التوحيد ١٤١
قضايا توحيد الإلٰهية ١٤٣
أولاً: من يستغيث بغير الله ـ حتى في حال الشدَّة ـ أسوأ حالاً من المشركين .. ١٤٣
ثانياً: بناء المساجد على القبور ١٤٤
ثالثاً: من عبد الرسول كافر، ومن كرهه كافر ١٤٥
رابعاً: الشرك في الحكم ١٥٠
توحيد الأسماء والصفات ١٥٦
مسائل عقدية أخرى ١٦٢
أولاً: مسائل الإيمان ١٦٢
ثانياً: مسألة القدر ١٦٤

ثالثاً: مسألة رؤية الله في الآخرة ١٦٧
رابعاً: تأثير السحر في الرسول ﷺ ١٦٩
خامساً: المعدوم ليس بشيء خلافاً للمعتزلة ١٦٩
سادساً: الرد على من استدل بالإلهام والخواطر ١٧٠
سابعاً: بيان معنى قوله تعالى: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ ١٧٣
ثامناً: مسائل متفرقة ١٧٤
الفصل الخامس: مآثره ومراثيه ١٧٨
المبحث الأول: وفاته ومراثيه ١٧٨
المبحث الثاني: سمته وأخلاقه (رحمه الله) ١٩٢
عنايته بالعلم النافع ١٩٢
تجافيه عن الفتوى ١٩٧
زهده في الدنيا وورعه ١٩٩
بكاؤه من خشية الله ٢٠٣
سمْتُه ودَلُّه ٢٠٤
المبحث الثالث: تلاميذه وأقوال علماء عصره فيه ٢١٢
تلاميذه ٢١٢
أقوال علماء عصره فيه ٢٢٠
١ ـ ما أثر عنه وعن ابنه من ذلك ٢٢٠
٢ ـ قول سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ٢٢٣
٣ ـ قول سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ٢٢٤
٤ ـ قول العلامة المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٢٢٤
٥ ـ قول الشيخ حماد الأنصاري ٢٢٧
٦ ـ قول الشيخ إسماعيل الأنصاري ٢٢٧